دار راشد للنشر
Dar Rashid Publishing

رواية

زهر الغرام

أحمد قاسم العريقي

الرواية المرشحة للقائمة الطويلة / كبار

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

2020

رواية زهر الغرام

أحمد قاسم العريقي

الرواية المرشحة للقائمة الطويلة / كبار

لجائزة راشد بن حمدالشرقي للإبداع

الطبعة الأولى 2020

رقم الطلب: MC-03-01-8761563

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9948-34-329-5

التصنيف العمري: +21

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتاب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

الفجيرة دولة الإمارات العربية المتحدة

ص. ب. 7444 -الفجيرة

هاتف: 678 2222 9 971+ فاكس: 959 2222 9 971+

Website : www.darrashid.ae Email : Info@darrashid.ae

تصميم الغلاف : فيصل جواد

الإخراج الداخلي: Lakru Randika

التدقيق اللغوي : د. حكمت زريقات

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

دار راشـد للنـشـر
Dar Rashid Publishing

الأفكار والآراء في هذا الكتاب تعبر عن آراء الكاتب ولا تعبر عن رأي دار راشد للنشر.

جميع الحقوق محفوظة لدار راشد للنشر، لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

الجزء الأول

اليرقة

لولاهُ لبقيتُ يرقةً مُحنّطةً وما عرفتُ الطيران

الفصل الأول

شاهدني أول مرة وأنا برافقة أمي في حفل زفافهِ على ابنة عمّه "فاطمة"، ثالث يوم من عيد الاضحى. كان ذلك أول حضور لي؛ لأشارك أمي الغناء والضرب على الدُّف والرقص، بعد أن بلغت السادسة عشرة من عمري، وتعلّمت على يدها لأخذ موقعي فيما بعد.

جلستُ في الديوان بجوار أمي، أمام جمع غفير من رجال ونساء وأطفال القرية، وأنا أشعر بالرهبة! وشوقهم للغناء يستعجل الطرب. بدأت أمي تغنّي وأنا أردد بعدها ما تقوله، والعرق يأخذ طريقه على خديّ. غنّينا بعض مقاطع الغناء من لحن أمي فتلاشى الخوف عنّي! وبدأت أرشق الموجودين بنظرات خاطفة وهم يمضغون القات. أحسستُ بنظراتهم تلتهمني! وتفاجأت بحبيب الدين يُحدّق فيّ بفم فاغر، والدهشة في عينيه وهو بجوار عروسه! يُغطّي أرجلهما معاً الرداء الأبيض الذي اعتادوا عليه. أقترب منه أحدهم، نسمّيه في قريتنا "الغازي" وهمس في إذنه وأعاد إليه انتباهه، وشقيقتاه الصبيتان حليمة وسميرة تجلسان بجوار عروسه، تدفعانها خفية لتقترب منه أكثر وهي تواري الخجل. غنّت أمي مقاطع صغيرة، وأنا أقوم بغناء مقاطع أخرى بعدها:

بسم الله المُبدى، على العروس ربّي حجا
هذي العروسة والعريس، مُحوّطين بالأولياء

والليل (ألا) يا بُو علي، تغيرْ مع هذي العروس
والليل (ألا) يا نادية، يا قَبْوة (ألا) الكاذية
واليوم (ألا) يوم القبول، اليوم (ألا) جَنة ونور
يهناك يا حبيب الدين وأنتِ شمس البدور

أخذنا قسطاً من الراحة لمضغ القات، والحاضرون يتداولون قصبة المداعة[1] من فم إلى فم، أما نحن قدموا لنا مداعةً خاصة بنا. عُدنا للغناء وغيّرت أمي لحناً آخراً، بإيقاع مختلف على الدف ورحنا نتناوب مقاطع الغناء...

توقفنا عن النغم، فهتفوا كيما نواصل تلك الباقة، وإعجاب حبيب الدين يُحدّق فيّ! لا يخشى زوجته بجانبه؛ فهن يدركن مَن نحن. أنهال الحضور علينا بالمدح وأمطرنا بالمال والاعجاب. قال أحدهم لأمي وهو يُحدّق فيّ بعين بلهاء: "أين كنت يا شفّاف تخفين هذه الجوهرة، صوتها أحسن منك؟!" طلبتْ إحدى نساءهم أن نرقص فرقصتْ أمي أفضل مني، لكنهم لم يمتدحوا غير رقصي أنا وعيونهم تطوف حولي.

شاهدني حبيب الدين في الأسبوع الثاني بالقرب من البئر على ضفاف الوادي، وأنا أجلب الماء. لم أكن أعرف حينها أنها أحد حيّل الشوق ليراني. وفي مرة أخرى اقترب مني أكثر ابتسم وقال: "ما أجمل صوتك يا زهر الغرام! إنه لا يفارق سمعي. هل يمكن أن تسمعيني أغنية

[1] النرجيلة

قصيرة؟". قُلت له: "يا سيْدي أنا خادمتك، لكن لا أغنّي إلا في الأفراح أو في بيتنا". ابتعدتُ عنه وتنَكة الماء على رأسي، أحدّث نفسي بما حذّرتني به أمي: "أن بعض الأسياد يرغبون في بناتنا سراً، يتلذذون بآلام العذارى دون رحمة!" فخفت من قسوتهم. تكرر مروره في الوادي ليقابلني، وأنا ابتسم له لا غير، ورغم أننا لا نحسدهم؛ فهذا ليس من حقنا، إلا أنني حسدتُ زوجته فاطمة.

أول زيارة له إلى كوخ أبي خفية كانت بعد شهر من زفافه على فاطمة ابنة عمه، جاء عند الظهيرة وهو يضع شالاً حول فمه كلثام، يحمل معه القات واللحم بشالٍ آخر على كتفه. امطرته أمي بالترحاب! جالس ولم يتأفف من فرشنا المتواضع، وراح يمضغ القات. فرحتُ فرحاً ممزوجاً بالخوف أن تكون زيارته للهو كما تناهى إلى سمعي من بعض فتيات الحي! وهن يتحدثن عن الزيارات السرية للأسياد إلى قريتنا. أشار لأجلس إلى جواره، وهو يثني على صوتي! دفعني الخجل منه لأخرج من الكوخ، ورحتُ أعد مع أمي وجبة الغداء الدسمة التي أحضرها معه، وقلبي يحدثني أنه يخفي شيئاً غير الشوق لسماع صوتي كما أخبرني من قبل! حضر أبي ولم يندهش بأن أحدهم في بيته، بل راح يرحب به، وجلس أمامه دون أن يمد يده لمصافحته فذلك غير ممكن. ناداني أبي لنجلس سوياً وهو يُحدّق في القات، ورائحة قِدر اللحم تنفذ إلى كوخنا وكذلك أكواخ الجيران.

أعطيتُ جارتنا "تزيهة" لحماً ومرقاً، وراحت تهمس لي بكلام فاحش...وعدتُ لتناول غذاءنا وهو يمضغ القات. فرغت أمي من عمل البيت وسخّنتْ الدفّين وبدأنا نغرّد أمامه، وقلبي يبتسم لنظرات العشق الثاقبة التي تخترق ثيابي! وتطوف حول نهديّ النافرين كبرتقالتين كبيرتين، والسعادة تغمرني بأن أحدهم يهتم بمثلي، وفي نفس الوقت خفتُ أن يكون قد أغرى أبي بالمال.

راحت أمي تتغزل بالنساء السُمر المشوب بالبياض مثلي، تتفاخر بي أمامه:

-يا لخْضري يا بو خدود عقيقي.. كل ما اذكرك يجف عَلوك[٢] ريقي.

ورددت أنا بعدها قائلة:

-واني اسألك يا ربْ توفّق بين اثنينْ.. دموعهمْ مثل المطرْ يشنّين[٣]

ظلّت أمي تغني وأنا أختلس النظر إلى بدر يضيء كوخنا لأول مرة. لم تتوقف أمي عن النغم إلا وقت صلاة المغرب، حينها أخرج النثارة الخضراء من فمه وقام ليُصلي. شاهدتُ أول مرة إنساناً يقيم الصلاة ويتلو القرآن في قريتنا. صوته رخيم، لو أنه مُغنياً لكان صوته يخلب اللبَّ! أنهى صلاته ثم عاد لمضغ القات، وإعجابه يشيد بصوتي، وأطرب أبويّ بمدحه. توقّعت منه أن يطلب مني أن أرقص الرقصة

---

[٢] عليك

[٣] يقطر

"الزُّبيرية" امامه لكنه لم يطلب. انصرف في منتصف الليل، ولم يحدث ما كنت اتخيله! إلا أنني أوقدتُ شُعلتي في قلبه.

بعد أسبوع أتى مرة أخرى يتسلل خفية، يحمل الحلوى والقات ونحن نتناول عشاءنا. خِلت قلبي سوف يُوقظ الحي بأجراس الفرح. لم يدعُه والدي لتناول الطعام معنا؛ لطالما ذلك مستحيلاً أن يأكل معنا ولو في صحن آخر، وإذا شربنا بكأس أحدهم أو أكلنا في صحن يُغسل ذلك الإناء عدة مرات، ولا يجاورونا في السكن أيضاً. ترك حبيب الدين هديته وتأهب للعودة، وقلبي يرفرف حوله كفراشة تحوم حول النار. ابتعد عني وفؤاده مشدود بخيط في يدي.

في الزيارة الثالثة أتى ليلاً بهدية أكبر وانفرد بأبي خارج الكوخ. كُنّا نسمع والدي وهو ينحني منكسراً أمامه، قائلاً:

- لا يا سيْدي هذا مستحيل...! طلبك هذا سيجلب لك ولأسرتي المشاكل وسنُطرد نحن من قريتنا يا سيْدي، هذا إذا لم يتهموني أننا سحرناك. أرجوك يا سيْدي اذهب لا تعد مرة أخرى أرجوك! لا تجلب مصيبة لنفسك، ستخسر أهلك وعشيرتك يا سيْدي...

ذهب حبيب الدين وعاد أبي إلينا، وهو يُقلّب كفّيه ويلطم خدّيه، يقول: لقد جُنَّ ابن الأسياد! سألته أمي:

- سيْدنا عاقل، لِمو (لماذا) تقول إنه مجنون؟!

- يا شفّاف، يريد يتزوج زهر الغرام! أهله لن يرحمونا سيقولون إننا سحرنا ابنهم.

أخذ أبي يلطم خده، وأمي تهدئه من روعه، وتقول:

- لِمو كل هذا الخوف يا مَقرع، يمكن أتى يتسلّى معنا؟!

كان خوف أبي يبعثر حلمي رماداً في ليل دامس، وهو يصيح:

- هُم لا يعاقبون النساء، سيقع الغضب عليّ وحدي يا مَرَة. أنا لا أستطيع أن أرفض طلبه ولا أقبله. ماذا أفعل يا شفّاف؟! اخبريني.

ووضع كفيه بجانب رأسه كمَن أصيب بالصداع.

انفردت أمي بأبي، أمّا أنا لم أصدّق أذني فيما قاله والدي، ظننت أنه يحلم مثل أحلام اليقظة التي نعيشها. تلك الأحلام تُحقق لنا ومضة من السعادة نعيش عليها زمناً. نعم، سمعتُ أن بعض الأسياد يرتادون قريتنا للهو ثم يرحلون، لكن حبيب لم يكن مثلهم.

عاد أبي بعد محادثة أمي، ينظر إليّ بعينيّ القلق! وعرفتُ أن أمي خلعت جلباب الخوف عنه. حينها حملتني الفرحة لأحلّق في السماء، وأصيح: سأتزوج مِنهم، سأتزوج مِنهم...!

طلب الزواج مني أيقظ فيّ حق الحياة بكرامة، أفكر بأشياء ما لم أكن أفكر فيها من قبل. سألت نفسي سؤالاً لم يحضرني سابقاً، لماذا هُم لا يتزوجون منّا؟! ألسنا نحن بشراً مثلهم؟!. لماذا كل هذا الخوف من

قِبل أبي تجاه طلب حبيب الدين للزواج مني سرّاً!؟. لماذا نحن منبوذون من قبلهم؟! هل لعدم نظافتنا؟ لفقرنا المدقع؟ لجهلنا!؟ كان من الأحرى بأبي أن يفرح أنّي سأنتقل من عالمنا إلى عالم الأسياد. طلب حبيب هذا جعل ذاتي المطمورة بغُبار الذلِّ تنفض ما عليها، وتطالب بحقها في العيش بكرامة. هكذا برزت زهر الغرام الأخرى إلى السطح!.

غاب حبيب الدين عشرين يوماً، انتظرته على جمر الشوق في فترة غيابه، ولم ألتفت إلى كلام أبي الذي ظل مطرقة تهشم أحلامي التي فوق العادة، وهو يحذرني من مغبّة زواجي بحبيب الدين.

لم أنسَ سلوكي الطفولي لحظة دخوله فجأة إلى كوخنا تحت جُنح الليل! جلس أمامي وعيناي ترشقه قُبلاً، ثم راح يستعجلني لألبس الشرشف[٤] الأسود الذي أحضره خفية. حاولت أن أضع اللثام حول وجهي فلم أعرف! اقترب مني وشروق بسمته تضيئ حولي، وربطه جيداً حول رأسي، وخدّي يُقبّل أنامله وهي تمر كريشة حُبٍّ على خديّ تسري رعشة في جسدي! ولساني تتلعثم، ووجيب قلبي ينبض كالدُف طرباً. وضع شاله كاللثام حول وجهه، ثم ودعتُ أمي وخرجتُ من شرنقتي، وكان أبي يقول له: "هي أمانة في عنقك". قال حبيب الدين: "سأجد مُن يعقد زواجنا عقداً شرعياً في المدينة".

[٤] عباءة

ذهبتُ بصحبته وأجنحة الفرحة ترفرف بي في سماء السعادة، نمشي بخفة على طول الوادي حذرين، ونحن نتوجه تجاه طريق العربات، تبعد عنّا مسيرة خمسة ساعات. مشيتُ أمامه وكشافه الضوئي يبدد ظلمة الليل وحب حبيب يبدد ظلمة قلبي. تلك الرحلة...التي أخرجتني من عالمي المنبوذ ظلّت عالقة في ذاكرتي حتى في منامي.

وصلنا عش الحب في مدينة الحديدة حي "الحالي" شارع زايد بن سلطان. كنت انتظر منه قُبلة، لكنه لم يفعل! وأنا أرى في عينه الشوق يكاد يحضنني. خرج وقال: "سأعود حالاً"، وذهبتُ لأرى البئر وأنا أشعر بحر لم أألفه من قبل. تفاجأتُ بطعم ماء البئر المالح! غسلتُ جسدي وجلست على السرير المحبوك من الحبال، تحت المظلّة المسقوفة بالقش، أدلّي رجليّ كطفلة حصلتْ على كنز السعادة، ورحتُ أعد الثواني لعودة مُخلّصي.

لحظة أن طرق باب فناء المنزل أسرعتُ لفتحه، كنت سأحتضنه أمام ضيوفه الثلاثة؛ فهذا ليس فيه عيب في مجتمعي الذي أتيت منه، وشعري ينساب إلى نصفي الأسفل والماء يقطر منه. أشار الغضب في عينيه لأذهب إلى الغرفة؛ فهرولت مسرعة إليها. تبعني هناك وقال وقد خف الغضب قليلاً: "كيف تقابلينا بثياب مُبلّلة وشعرك هكذا؟!" ثم ابتسم فبددت بسمته تلك السُحب السوداء التي طافت حولي، وقال: "أحضرت الشهود والقاضي ليعقد زواجنا وسيكون هو وكيلك".

عقد بي القاضي عقداً شرعياً ليس فيه لبس؛ فشوق مُخلّصي لا يريدني إلا حلالاً، أمّا أنا كنت سأمكنه من نفسي دون ذلك. نحن لا نعرف عن الشرع كثيراً، نحتكم لأعراف خاصة بمجتمعنا ولدينا شيوخ خاصة بنا. كانت لهفتي للحب تنتظر خروج القاضي ورفقته، وحين خرجوا ذهب حبيب الدين لإحضار طعام العشاء، رغم وجود ما يحتاجه مطبخنا. عاد يحمل بكفّه دواءً لجرح أصبع قدمي، أُصبتُ به وأنا أحثُّ الخُطى أمامه حافية القدمين في جنح الليل إلى طريق المركبات في منطقة حيفان.

قبل تناول وجبة العشاء غسلت يدي بالماء والصابون عدة مرات، كما علّمني ونحن نتناول فطورنا في الحوبان مدينة "تعز". قدّمتُ العشاء ليتناول كُلٌّ منا في صحن مستقل، لكنني وجدتُه قد كسر كل قيود العادات الظالمة التي رمتنا في هاوية الذل! قال: "سنأكل من طبق واحد يا زهر الغرام". لم أصدق نفسي! وددتُ أن أطعمه بيدي كعصافير تطعم بعضها، لكنني خفتُ أن يرفض. أحسستُ بنفسي فراشة خرجت من شرنقتها لتحلّق في سماء البهجة، غير واثقة إنني أصبحتُ زوجة لأحد منهم، أشعر أنني في حلم وسأصحو منه قريباً! لأجد نفسي في كوخ أبي وهو يقول لي: "الآن صدّقت كلامي يا زهر الغرام، كيف يرضى حبيب الدين بمثلك زوجة! نحن أدنى من عبيد في نظرهم يا ابنتي".

فرغنا من تناول الطعام، ثم حَملني الحبُّ بين ذراعيه إلى سريره، وقلبي ينبضُ بالسعادة. فكرتُ بأنه سيطرحني على فراشه، لكنه ائتزر بفوطة وراح يضع البلسم على جرح أصبعي ويربطها بالشاش! شعرتُ بأنامله الخشنة كحرير تبلسم جرحي وتعزف أوتار فؤادي، وأنا أحدّث نفسي: "هُم لا يقبلون أن يصافحوننا؛ كيف حنانهُ يرفع قدمي ويُعالجها!" رأيته ملاكاً نزل من سماء المحبة ليزيل الفوارق والطبقية بين بني آدم الموجودة حتى اليوم، وفضّل أن يبلسم جرحي على لهفته للقاء.

لم يعجبه السرير المحبوك من حبال السَلَب فأنزل فرشه على الأرض والتصق بي. أحسستُ بدفء جسده المفعم بالحب، صرختُ فجأة ودفعه وجعي بعيداً عنّي دون مشيئتي. استلقى على ظهره والفرحة تشرق في وجهه وجبينه يقطر عرقاً؛ أظنهُ كان يفكّر أنه لن يجدني عذراء! ذهبتُ إلى الحمام لأرى جرح الرغبة الذي أحدثه فيّ، وعدت إلى حضن الحب حتى الصباح.

خلدت ليلتي الأولى في حُضن مُخلصي أتدثّر في حُبه، ولم أصحو إلا عند الفجر حين طوقني إلى صدره وضغط بخنجره الناعم على بطني واشعل صبوتي، وراح يكمل ما لم ينجزه في الليلة الماضية، ووجع اللذة يعضُّ طرف البطانية، ثم استلقى على ظهره والعرق يقطر من جبينه. كنت أعرف أنهم يعطون زوجاتهم ذهباً في الليلة الأولى من الحُب، بيد

أنّي لم أطلب منه شيئاً، يكفيني شرفاً أن أحدهم أكرمني بما ليس له قدر من المال وتزوجني.

طوقني "سِيْدي" بذراعيه، هكذا كنتُ أناديه حين أنسى، رغم تحذيره ألّا أناديه بهذا التسمية، منذُ أن هربنا في جنح الليل من القرية؛ لنبني عُش الحب بعيداً عن عيون العادات الصدئة.

خلال فترة وجيزة في مدينة الحديدة علّمني طباختهم ونظافتهم. حدثني أنه كان يعمل مساعد طباخ في أحد الفنادق، وتعلّم فنون الطبخ لكنه فضّل مهنة البناء. طبخه اللذيذ والقرب منه أخذني إلى الأسف على الحياة التي عشتها، وجعلتني أعرف معنى التهميش الذي لم أكُن أشعر به يوماً وأنا في مجتمعي. لا ندري لماذا توارثنا الذل! ليس لنا أي حقوق مثلهم أو واجبات، لا نمتلك أرضاً أو حتى شجرة ولا نبني سوى أكواخاً صغيرة في القرى. نحن عبيد أحرار، لكنهم يروننا أدنى من ذلك.

علمني حبيب كيف أكون طاهية ماهرة، والنظافة الجيدة التي لم أعهدها، أكنس بيتي عدة مرات في اليوم، وأرش ساحتها الرملية بالماء كل صباح ومساء. علّمني كيف أصلّي، فخطيت خطوات أخرى نحو عالمهم. تمرغت ببساط الحب وعرفت أن المرأة أرض والرجل محراثها، وهي الأشواك والأزهار وهي الجنة والنار.

كنا نقضي بعضا من أوقات البهجة على السرير تحت السقيفة والحب ثالثنا. ذات مساء وأنا أقطف له أوراق القات، كما يقطفني هو ليلاً فاكهة

شهية تزهو أمام آكلها، سألته عن الجبهة الوطنية التي ذكرها لي عند هروبنا من القرية، ووعدني أنه سيخبرني حين نصل منزلنا. أخذ يمضغ القات وهو يحدثني عن ثورة ستة وعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م، التي قضت على حكم الامام أحمد، وعن القتال الذي دار بين الثوار أنفسهم عام ١٩٦٨م! وتشكيل الجبهة الوطنية. لم أفهم ما قاله، لكنني كنت أحس بحسرة تطفو على وجهه وهو يتحدث!. حين سألته: "لماذا ينهش الأسياد كُلَّ الآخر؟! ولماذا ثاروا على الإمام أحمد؟! يقولون أنه سيّد الاسياد". حنيذاك كنتُ في العاشرة من عمري. نحن لم نستفد من إمام ولا أيتها ثورة، ولا من أي حاكم أتى بعدهم.

رغم حُبّه لي إلا أن دودة الشك ظلت تنخرُ في عقله شهوراً في بداية حياتنا زوجية! أما قلبه فلا. ظل زمناً يراقب سلوكي سراً وعلانية حتى وجد فيّ ما يرضيه. هُم لا يثقون بنا ولا يقبلون أيتها شهادة أحد منا. مجتمعاتنا يعيش على حافة مجتمعاتهم؛ لينالوا حسنة نراها حقاً لنا من منذ عهود.

بعد أسبوعين من الخوض في الحب، أغلق باب المنزل بالقفل من الخارج عند خروجه وذهب إلى العمل! واستمر هكذا لشهور عدة. كنتُ سعيدة أن الحب هو سجّاني، لكنني كنت أبقى على جمر الخوف، والقلق يساورني حتى يعود؛ لعلّ مكروهاً يحدث له أو أنه أشبع رغبته مني! وفي نفس الوقت أعذره فهو كأحدهم لا يثقون بسلوكنا؛ لطالما نحن

لا نضحي من أجل الشرف مثلهم ولا نشعر بالغيرة، ولا نستحي عن التحديث في المتعة جهراً؛ لِمَا لا نرى فيها أي عيب بما أننا خُلقنا عبرها، فلولاها لما كان هناك حياة في الأرض، فلماذا نخجل منها؟! نحن بهذا منذ قرون عدة، لم نجد أحداً يأخذ بأيدينا في شمال الوطن كما حدث في جنوبه.

كان حبيب الدين مختلفاً عنهم، أتته شجاعة نادرة! تزوجني وعلّمني سلوك مجتمعهم، وحثني كيما اتخلى عن سلوك منبوذ من قِبلهم، لكن هناك سلوك أعجبه فيّ، وهو إذا غشيني في الفراش أفحشتُ وأهرجتُ، ما لم تعمله زوجته الأولى فاطمه. تزوجها بعد الحاح أخيه تاج الدين، واقنعه بأن يتزوجها لميراث كَبُر في عينيه، فتزوجها دون رغبة، وقال لي أنه لم يحب امرأة غيري منذ أن رآني في يوم عرسه بفاطمة. ذلك اليوم أسرّ لصديقه عبد الستار الغازي بإعجابه بي. قال له:" أه، يا صديقي، لو أنهم زوجوني زهر الغرام!" فحذّره صديقه وهو يضحك ساخراً ألا يفكر بهذا الأمر مطلقاً! وألّا ينسى أصل عائلته الكريمة، وهذا التفكير يعد جُرماً بحقه وحق عائلته. كلام صديقه لم يكن جديداً علينا، لكن الجديد بالنسبة لي هو تحدّي حبيب تقاليدهم التي يراها الكثيرون ديناً!.

الفصل الثاني

مر شهر من الوجد وهو لم ينسَ اغلاق باب المنزل يوماً خلفه بالقفل من الخارج عند مغادرته، لكنني كنت أشعر أنني في الجنة رغم حر الجو الذي لم أحس بمثله في حياتي. حين أخرج برفقته كان يتوجس خيفة؛ أن يشاهدنا أحد مِمَن يعرفه، كذلك اليوم الذي لم أنسَهُ وهو ذكرى عيد الرابع عشر من ثورة السادس والعشرين من سبتمبر، كنت لا أدري ماذا يعني عيد كهذا. أخذني حبيب ذلك اليوم في نزهة إلى البحر أول مرة، وأنا سعيدة بارتداء عِباءة نسائهم، حين شاهدت البحر قلتُ له في دهشة من أمري: "كم يا مااااااء يا سيْدي!" فزجرني بهمسة غضب عن ذكر كلمة (يا سيْدي). مشينا فوق رمل الساحل حفاةً والماء يداعبها، رفعت العباءة قليلاً فظهر جزء من ساقي، فرشقني بسهام الغضب مما أخمد الفرحة فيّ.

شاهدت رجالاً يسبحون ونساء يخضن في الماء بثيابهن، وحبيب يتلفت يمنة ويسرة والقلق في عينيه، أمّا أنا كنت أحدث نفسي: "فليعرف العالم أنّي زوجة أحدهم". جلسنا على الرمل ونحن ننظر إلى البحر وشاله حول رقبته رغم الجوا الحار! أخبرني أنه حين يرى أحداً من أهله

أو أصحابه يغطي فمه بالشال أو يتوارى عنهم. خلال حديثنا أقبلت امرأتان سمراوان تتسولان بلهجة غير لهجة قريتنا، إحداهن كانت تحضن طفلاً قذراً لا تمسح له أنفه، عرفت أنهما من أبناء سلالتنا. أحسست بالحرج من سوء نظافة الطفل وسلوك تلك المرأة وهي تمد يد الذل، وتلح بالطلب تشكو الفقر. قلت لها: "لماذا لا تعملين وأنت في المدينة؟! ولماذا زوجك لا يعمل؟. رحت أتذكر نفسي وأنا في السابعة من عمري حين كنت أمر على قراهم للتسوّل مع أمي.

ضحكت تلك المرأة وبانت الشّمّة البيضاء تحت شفتها السفلى، قالت: "أنتِ غريب على أمبلاد[٥] هذي، مِنو[٦] يرضي يُشغّل أمخادم معه، نحن ما معاناش شُغل غير أمعمل في النظافة مع امبلادية وتعطينا ملاليم. أنتِ طيبة قولي لزوجك يعطيني ريال حق أمغدأ، الله يُهنّيك بزوجك هذ أمقمر، الله يسترك، أمي مريضة في أمبيت".

راحت ترشق زوجي بنظرات ليس فيها أي حياء. ضحك حبيب وأعطاهما ريالين فشعرتُ أنه أعطاه إكراماً لي. كدتُ أصيح وأقول: "لماذا يَقبل بني جلدتنا حياة كهذه؟!" لكنني عرفتُ السبب لذلك فيما بعد من الدكتور سامح، الذي هو الآخر نقلني نقلة أخرى إلى عالمهم. لم أطلب من حبيب أن نسبح معاً كالآخرين، فالنظر إلى البحر والجلوس أمامه متعة كافية بالنسبة لي. ذلك اليوم كأنني شاهدت العالم كله.

---

[٥] يوضع أم بدل عن ال بداية الأسماء باللهجة اتهامية

[٦] مَن

في ليلة الجمعة بعد أسبوع طلبتُ منه أن نذهب فجراً إلى البحر كي نسبح، وأسعدني بموافقته على طلبي. تلك الليلة أخذته فرحتي إلى سماء المتعة، مارست معه طرائق عدة علمتني إيّاها امرأة منّا، وأنا في الثالث عشر من عمري حتى نام بجانبي كالطفل. لم يكن هو يدري أنني بهدف البحث عن المتعة أيضاً كنت أسعى لأنسيه زوجته فاطمة، وأرى أن هذه إحدى وسائل الانتقام من نسائهم اللواتي يريننا مُومسات ونغري أزواجهن.

ذهبنا باكراً إلى البحر والفرحة تغمرني بأنني سأسبح في البحر، نزلت بثيابي وأحسستُ ببرودة الماء وقادني هو إلى المياه العميقة، حتى اغتمر ثدياي بالماء وشعرتُ بالدفء. لم أخف كثيراً كما شاهدتُ الغير من قبل يخشون الخوض في العمق مثلي، لكنني بقيت قابضة بشدة على يده والتصقت به. مددت يدي من تحت الماء ورحت أعبث بخصوصياته وأنا أضحك. استغربتُ أنه نعض بقوة. داهمتني صبوة مجنونة؛ لطالما ليس هناك شخص ما يسبح بالقرب منا: "ترى كيف سيكون ذلك تحت الماء! لماذا لا نجرب كالأسماك هههه؟!" دفعني الشبق بقوة كي التصق به أكثر. كنت أظن أنه سيرفعني إلى خاصرته وسيكون ذلك رائعاً، لكن سياط غضبه لسعتني بشدة: "ماذا تفعلين؟! إلا تستحي؟، تريدين العودة إلى أصلك، ممكن يشاهدنا أحد، أنتِ..." كانت

كلماته تخترق أذني كالسهام، سببت لي جرحا بليغاً في القلب. تلعثم لساني ونفذت زهر الغرام القدمية بجلدها بعيداً عني.

خرجتُ من البحر وأنا أسعل، والماء المالح يغسل دموعي. جلستُ هناك وقلبي يتكسّر كالموج الذي يتكسر عند قدميّ، وصوت حبيب يحيط بي: " إنك ما تستحي"، وعدت بذاكرتي إلى كوخ أبي في القرية، وأمي تقبض على خصوصيته وهو سعيداً بذلك، وكذلك شاهدتُ جارتنا "شقادف"[٧] تعمل نفس الشيء مع زوجها دون أن يغضب؛ لطالما العلاقات الحميمة في مجتمعي لم تكن خلف ستار الحياء كثيراً. ضحكت وأنا أحدث نفسي: "ترى ماذا لو وافق، كيف سيكون ذلك؟!" تخيلت نُطفه تعوم وتتحول إلى اسماك، ثم قهقهت عالياً. ورحت أتساءل لماذا ماء البحر مالح مثل دموعنا؟!.

كثر توافد الزوار إلى الشاطئ صباحاً، فخرج حبيب من البحر وثيابي قد جفّت، ومشينا نحو منزلنا والخوف في عينيه حذراً أن يراه أحد يعرفه وهو يمشي أمامي ببضع خطوت. لم أشعر بالخجل مما فعلته تحت الماء، ولكنني شعرت بالأسف لأنني أغضبته. في طريق العودة شربنا كأسين من عصير الفاكهة ولعقت ما بقيَ من العصير بأصبعي، وللمرة الثانية يغضب مني؛ مما جعل الدمع يتدفق من عيني وأنا أمشي بعده، إلى أن وصلنا البيت وهو لم يتحدث معي والشال حول فمه. كنتُ

[٧] يسمون المولود بأول كلمة ينطقها الأب بعد الولادة وشقادف يعني أشياء مكسرة.

أحدث نفسي: "ترى هل يشعر بالأسف لزواجه مني؟! هل ممكن أن يتركني؟" كدت أغرق في حزني. ذهبت إلى الحمام كيما أغتسل وبكيت هناك، إذ به يقبل ويغتسل معي، ضحك وقال لي: "لقد سامحتك لشعورك بالحياء من تصرفك، أدركت أنك ستتعلمين سلوكنا". عندها توّقه شغفي بقوة، وما كنت أريد أن يفعله تحت الماء راح يفعله والماء ينهمر على جسدينا وأنسيته هفوتي تلك.

أصيب بآلام الكلى فكانت البذرة الأولى لآلامي أنا أيضاً. نصحه الطبيب بالإكثار من شرب الماء، أما أصحابه نصحوه بشرب البيرة فاشترى منها كرتوناً، يحتسي بعد صلاة العشاء ماء شاء منها، ثم يقودنا الحب إلى فراشه وهو يضحك، ورحت أشجعه على شرب البيرة ليلاً لغرض في نفسي. سألت نفسي: "ترى ماذا لو جربتُها؟!".

ذات يوم كان الجو حاراً وأنا أعد طعام العشاء الدسم قبل أن يعود حبيب من عمله. برزت فيّ زهر الغرام القديمة تحدثني لأجرّب شُرب البيرة! فشربت إحداها رغم طعمها المُر، ثم تناولت أخرى فشعرت بالغبطة والخفة في جسدي، كأني ريشة يداعبها الحب، لكن خُطايّ كانت ثقيلة. تذكرت نفسي حين أردتُ من حبيب أن يفعلها معي في البحر وضحكت بصوت عالٍ. خلعت ثوبي وتعرّى نصفي الأعلى، والعرق ينساب بين ثدييّ ورحت أهزهما وأنا أزهو بهما أثناء سيري في ساحة منزلنا، وحاولتُ مص إحدى الحلمات وهي لم تبرز بعد

وأعصرهما. أفكر: "هل سيكون ذلك كما يفعله هو!". وضعتُ السُّكر بدلاً عن الملح في الطعام؛ لتقارب لونهما عندي.

فتح حبيب الباب وأنا أشرب العلبة الثالثة، فذهبت نحوه اترنح كغصن يداعبه النسيم، والنشوة تُضحكني وفي يدي إحدى علب البيرة. وقعت في حضنه كفراشة والرؤية عندي غير واضحة. لم أرَ أي تعبير في وجهه، بل كنت أسمعه يقول: "لماذا تشربين البيرة؟! كم شربتِ؟" لم أجاوبه، بل كنت أترنح أمامه وأنا أضحك وأصابعي الأربع نحو الأعلى، وهو يصيح: "مُش معقول شربتِ أربع علب! أجبته بهز رأسي بالإيجاب، ولا تزال أصابعي الأربع نحو الأعلى وأكاد أن أقع على الأرض، ولم أذكر ماذا كان يقول حينها.

حملني بين ذراعيه وضحكي لم يتوقف، وهو يلتفت يمنة ويسرة علّ أحد من الجيران يشاهد عُري. وضعني على الفراش فتشبثت به وأنا في هستيريا الضحك. لعقت عرقه كان مذاقه كالسكر عندي، أراد أن يبتعد عني فلم أسمح له حتى لخلع قميصه.

كنت أشعر بالألم في عنق الرحم، وهو يلهث بالنشوة حتى تدفق الدم؛ فخاف وابتعد عني وهو يقول: "ماذا يا زهر الغرام؟! قلت إنكِ حامل وهذه العادة الشهرية تنزل منك. دفعني الخوف لأشاهد الدم! فصحوت مما كنتُ فيه من نشوة وهرعت إلى الحمام، وخوفي يشاهد الدم وهو

يسيل خيطاً حتى قدمي. لم أخرج إلا وقد سقط جنيناً، أظنه كان في الأسبوع السادس.

لم يعد حبيب الدين يحضر البيرة إلى البيت، رغم أن زهر الغرام القديمة فيّ كانت تشجعه على شربها، وفضّلت أن نشربها معاً. كنت أري أنني في الجنة، ففي جنتهم ما يشتهون: لحم، حلوى، سمك... ونحن لنا فُتاةً منها وروائحها، التي عرفتها أخيراً أول مرة حين أحضر سمكاً مشوياً أثناء عودته من عمله، رائحته جديدة على أنفي كالعطر الذي لم يكن لديّ معروفاً. التهمتُ منها بنَهم قبل جلوسي حول المائدة ثم شعرت بالخجل، لكن طيبة حبيب كانت ترشدني حين أخطئ في أي سلوك أرتكبه: "عليك أن تعملي كذا وكذا ولا تعملي كذا..."، قُل ولا تقُل... كنت أحاول أن أنسلخ من جلدي سريعاً وما أصعب ذلك. أود أن اتعلُّم سلوكهم، لكن هذا يستحيل عليّ فهو لم يدعني أحتك مع نساء الحي، ولا يكفي ليقوم هو بتعليمي فقط وتقويم سلوكي كطفلة في السادسة من العمر، وبالمقابل كنت أنسيه نفسه في الفراش؛ ردّا للجميل الذي فعله معي وأخذني إلى عالمهم، فليس لديّ شيء أعطيه غير هذه المتعة، وأظن أنّي أكذب على نفسي برد الجميل هذا، إلى جانب ذلك كنت أود أن أنسيه زوجته الأولى فاطمة.

أحسست أن للسمك قدرتهُ على الباءة؛ فطلبت منه أن يحضره كل يوم. أقوم بتنظيفه وأقدّمه قبل الطهي ليرى نظافتي فيما أقوم به، ومع

تكرار ملاحظته لِما أقوم به أصبح يثق بنظافتي. بهذا نجحت في امتحان النظافة التي لا نهتم بها في معشرنا، إلا مَن أنسلخ من مجتمعه مثلي.

اعتاد على شراء السمك أربع مرات في الأسبوع، فازداد وزني وتوردت وجنتاي كالتفاح. هكذا كان يقول لي: "أن خدي كالتفاح، وعيناي كعيون المهاء، وبسمتي كالصباح". بقت فائدة السمك في ذاكرتي، حتى بعد أن ارتبطتُ بزوجي الثاني بشير المولّد، وجدته عكس ما كنت أتوقع منه، وعرفتُ معادن الرجال.

حين كان حبيب يذكر قريته أمامي، تشتعل النيران في قلبي ويزداد خوفي من المجهول، وأذكر تحذيرات أبي التي تلفني بالحزن. لذلك سعيتُ جاهدة لأنسيه فاطمة، ولتكُن هي أمّاً لأطفاله لا غير، وأنا الأم والزوجة والعشيقة والسعادة، وليطلّق القرية كما يطلقون النساء.

عادة يعود من عمله قبل غروب الشمس وثيابه مبلولة بالعرق، فأسرع لخلعها عنه وأنا اتنسم عطراً مبتلاً بالتعب، أدخل معه الحمام لأدعكه بالصابون، وأزيل التعب عنه وليّ مآرب أخرى، حتى لا يفكر بفاطمة التي أراها حتى في أحلامي. كانت في صِغري تحتقرني عند مروري مع أمي نتسوّل في قريتهم! لم أكن استحي أن أشير له برغبتي لفراش الحب، هذا ما لم تفعله زوجاتهم. وجدت سلوكي هذا يثيره ويجعله يلهث خلفي. قال لي ذات مرة: "أنتِ امرأة بأربعة نساء، هل كل الخادمات

مثلك...؟! بلعتُ شوك الحزن وأنا أعذره عما قاله بما يجرح احساسي. ضحكت رغم حزني وقلت له: "إنه الحب يا حبيب، فحبي لك كالبحر كما هو حبك لي". شعر بحزني وراح يعتذر بطبع القُبل على تفاح خديّ، ثم قال: "لقد صدقتِ حيث يكون الحب تنصهر جبال الجليد بين المحبين!". أيقنتُ أنه لا ديناً من دون الحُب، وأنني أعيش أروع حلم طال أمده، وأخاف أن أصحو منه.

حلّ شهر رمضان وذهب ليشتري الكثير ما يحتاجه مطبخنا، وكأننا في حالة حرب ستدوم شهوراً! وأخبرني ماذا يعني الصوم، كنا في قريتنا نسمّيه "شهر جوع الأسياد". نحن نصوم مثلهم لكن حين لا يتوفر الطعام لدينا. حين يشاهدنا أحدهم ونحن نأكل أثناء الصوم نسمعه يقول علينا: "أخدام لا جُناح عليهم" رغم أن هناك منهم مَن يفطر خفية، يقولون: "وإذا بُليتم فاستتروا" وكيف يستترون من الله؟!

علّمني حبيب كيف أعد طعامهم: الشُربة، المُحلبية، الشفوت... لوجبة الإفطار، هذه الأطعمة لم أعرفها من قبل. في أول يوم من رمضان توقفت عن الأكل حتى صلاة العصر ولم أستطع مواصلة الصوم؛ فقد عطشتُ. لم يغضب حبيب مني. قال: "ستعتادين على الصوم، وفي اليوم التالي أجبرتُ نفسي لأهزم جوعي، رغم أنني سهوت ووضعت قطعة عجين صغيرة كنت أقوم بعجنها، وتفلتُ بها فوراً، ولعنت الشيطان

الذي أنساني، ذلك الكائن الذي لا يُذكر في مجتمعنا، وكثيراً ما أسمع الأسياد يلعنونه كلما أخطأوا، وأنا الآن منهم يجب عليّ أن ألعنه مثلهم.

في فترة رمضان عادة يذهب حبيب إلى العمل بعد صلاة الفجر، ويعود ظهراً يغتسل ثم ينام. دخلت معه ذات مرة نهاراً في بداية رمضان لأدعكه بالصابون كما أفعل عادة، فضحك وقال: "يا زهر الغرام هذا حراااام أثناء الصوم، اخرجي والعني الشيطان!" لم أفهم لماذا ذلك حرام! وحين خرج من الحمام أخبرني بما حيّرني، قال: "سننام بعيداً عن بعض في النهار خلال رمضان!" قلت: حاضر يا سيْدي. فكرت أن حبه بدأ ينضب، وأخذ يكثر من صلاته والتسبيح، أخبرني أنه شهر التوبة، لكنني لم أقتنع فالأشهر والأيام أراها كلها أيام الله، والتوبة واجبة طوال العام.

ذات ليلة من ليالي رمضان خرجتُ معه إلى سوق "المِطراق" في وسط المدينة، وأنا أشعر بالفخر بأني أمشي بجانبه، كأن العابرين تعرف من أنا وأنني أصبحت منهم. استغربت كثرة النسوة يمشين دون أهلهن من الرجال ودون خوف، كما يمشين في وضح النهار، وهذا ما لا يحصل في غير شهر التوبة كما يقولون. دخلنا معرضاً للأزياء والعطور في سوق الهنود، فانبهرتُ كأنّي دخلت مغارة "علي بابا"، تلك التي كان أخي مرجان يحلم بدخولها. شاهدتُ أحد بيّاعي الملابس في المعرض يضع يده خلسة فوق يد امرأة زبونة منهم، وهي تضع يدها تحت قطعة ملابس، ظننتها ستلطمه أو ستسحب يدها، لكنها ضحكتْ وأظن أن

كفيهما التحم هناك، حيث شاهدتُ ملامح وجه البائع تتغير. قلت في نفسي: "كيف يرونه شهر التوبة؟!" نحن إذا أخلصنا لا نفرط بمن يثق بنا، وقد حدث لي إغراءات كثيرة بعد أن سكنتُ مؤخراً في مدينة "تعز"، ولم أنجر وراء المعجبين بغنائي.

أخبرني حبيب بأن أختار ثوباً لي للعيد فلم أصدّق أذني، فاخترت ثوباً ليس أنيقاً لكنه بالنسبة لي كان رائعاً، حين عرفت سعره اقتربتُ منه وهمست له: "غالي يا سيْدي!... "عبسَ وجهه وهمس غضبه في أذني: "كم حذّرتك ألا تذكري هذه الكلمة، إذا عرف الناس أصلك سيخطئون في حقك، ولن يشفع لك حُسن سلوكك". هدأ غضبه وراح ينظر إلى الثياب وقال: "أريدك أن تختاري ثوباً لفاطمة". احتملت الجمرة وهي تلسع قلبي، لكني بحثتُ عن أجمل ثوب في المعرض. لست أدري لماذا أخترت لها ثوباً أجمل من ثوبي رغم كُرهي لها! ابتسم حبيب وقال لي: "لو كنتُ أخترتُ أنا لما أُحسنتُ الاختيار مثلك، أنتم قلوبكم طيبة". كانت كلمة (أنتم) جمرة أخرى في أحشائي، ثم أخذني لأختار عطراً للعيد، قلت له أنني لا أعرف العطر الجيد ولم أره من قبل. ثم أختار لي حذاءً حلمتُ بشراء مثلها حين رأيتها تُزيّن اقدام نسائهم، واشترى لي أيضاً ملابس داخليه مغرية. قلتُ له: "لا تشتري، هذا غالي"، همس لي: "أنا أعرف أنك لا تحتاجينها، كلامك أثناء الفراش فيه إغراء يعجز عنه أجمل ثوب" ثم أشترى ثياباً له ولأسرته في القرية.

في طريق العودة إلي البيت شربنا عصير المنجو، وفي المرة هذه لم ألعق ما تبقى في الكأس كما فعلت في المرة الأولى. هكذا كلما علّمني حبيب درساً أنقشه في ذاكرتي. أمشي خلفه بخطوات كالعادة، لا أنظر إلى وجوه الرجال، لا أضحك في الشارع. كنت أحدث نفسي أثناء العودة إلى منزلنا كيف سأرتدي حذاءً ذو كعب عالي، كيف سأبدو به؟! وأنا عشت سنين عمري في قريتنا دون حذاء. في الطريق قابلنا ناجي سعيد فجاءة وأقبل نحو حبيب لتحيته، لكن حبيب أبتعد عنه وتجاهله. كنت أعرف ناجي، حيث مررتُ مع أمي إلى داره في القرية عدة مرات نتسوّل بعد موسم الحصاد، ومرة أخرى رأيته في عرس حبيب الدين على فاطمة وقام يرقص مع زوجة قائد عمر. ذلك اليوم الذي كادت نظراتهم في الديوان[٨] تخترق ثيابي، ولو لم يسبقهم حبيب للزواج مني لكنتُ غزالاً يطاردونها صيادو الحُسن، وأظن تناهى إلى سمعه وهم يشيدون بجمالي، وبخططهم في وضح النهار لاصطيادي، وكُلٌّ يريد أن يكون السابق لقطف الزهرة قبل غيره، ثم تساءلت في نفسي: "ترى ماذا يقولون عن اختفائي المفاجئ"؟. لم يعرفني ناجي فأنا ملثمة الآن، لا أمشي سافرة الوجه في الشارع مثل بني جلدتنا. عرفتُ فيما بعد أن زوجي أعتزل اصدقاؤه القدامى جميعاً واتخذ له أصحاباً آخرين.

[٨] مجلس كبير في البيت

وصلنا منزلنا قبل آذان الفجر سألني: "لماذا أخترتِ ثوباً لفاطمة أجمل من ثوبك؟!" فلم أعرف بماذا أرد عليه. أنستني فرحتي بحذائي وثوبي الذي لم يلبسه أحد قبلي وأنا أطهو طعام السحور، فاستعجلني حبيب بالطهو وراحت كفوف الفرحة تعده على وجه السرعة، وأثناء تناول طعام السحور أقام المؤذن أذان صلاة الفجر، توقف هو ولم أتوقف وأنا، فأمرني بالكف عن الأكل وأنا لم أشبع بعد!.

دخلت غرفة نومي وخلعت ثيابي ورحت أرتدي الثوب الجديد، وجدت الحذاء قد زاد من طولي قليلاً، رحت أمشي به رويداً في الغرفة أتدرب على المشي، والزهو يكاد يرفعني عن الأرض. برزت فيّ زهر الغرام القديمة ومشيت به أمامه، وأنا أحاول أن أثبت على قدميّ كي لا أسقط. توّقت معبودي بيديّ الحب، وكنت أريد أن أكافئه بطريقة هي تعجبه كثيراً ؛ فنهرني وقال: "لقد قلتُ لك في بداية رمضان، لا يجوز أن نفعل مثل هذا عند الصيام!". قلتُ له لكنك قلتَ: "حرام أن نقترب من بعض أثناء النهار يا حبي وها هي الشمس لم تشرق بعد!". ابتسم وقال: "سأبدأ أعلّمك قراءة القرآن وأن تذكري الله ورسوله كثيراً". فرحت بما قاله، فلم أرَ في حياتي فتى مِنّا يذهب إلى فقيه القرية يدرس القرآن عنده، حتى بعد أن عشتُ في قريته "الدُقم" مؤخراً، لم يذهب أحدنا إلى المدرسة التي بُنيّت فيما بعد.

في اليوم الأول علّمني الحروف الأبجدية فحفظتها خلال يومين، وكتبتها غيباً خلال اليومين التاليين، ثم بدأت أكتب: كلمات، أسماء،... وأول اسم كتبته هو "حبيب الدين". حينها كان هو في عمله، انتظرته فرحتي وشعرت أن الزمن توقّف. رحت أسلّي نفسي بكنس البيت وتنظيف المطبخ، ابخّر غرفة نومي ببخور والفرحة تراقصني، ذلك البخور ظننته حلوى لطعمه الحلو، فقضمت قطعة منه حين أحضره أوّل مرة، مجتمعي لا يعرف هذه الرائحة الطيب، نحن أدمنا على العكس من ذلك، ولا نتأفف منها حين يعمل أحدنا في الصرف الصحي.

أقبل حبيب من العمل وسمعته يُحّرك قفل الباب، فأسرعت فرحتي تستقبله لأفاجئه باسمه المكتوب في الدفتر، وهو لا يدري أنه محفور في القلب، لكنه وقف عند الباب يبحث عن المفتاح في جيبه، واتضح أنه ضيّعه ثم راح يكسر القفل. دخل البيت وأنا أخفي الدفتر خلفي، ثم أبديت له اسمه المكتوب فصفّق لي، وأخذني بين ذراعيه ودار بي في الجو وقال: "كيف خلال أربعة أيام استطعتِ أن تكتبي؟!". سعادته تلك جعلتني ريشة في سماء السعادة. وفي تلك الليلة رقدت في حضن الوجد حتى اقترب آذان الفجر، وقمت أعد وجبة السحور وهو يغتسل في الحمام، ثم تناول السحور وذهب إلى عمله.

أستمر يُعلّمني قراءة القرآن وحفظت جزء "عمّ" ورحت أكتبه غيباً، وهذا ما أدهشه أكثر! ورغم سعادتي معه، إلا أنني عِشت فترة حياتي

الأولى بين القلق والخوف، من أن تكون أنامل المُتعة فيه تعبث بقلبي. فحين يكون خارج البيت أبقى متوّجسة على جمر القلق حتى يعود.

في الأيام الأخيرة من رمضان أحضر معه القلق والخوف؛ حيث أقبل برفقته صديقه عبد الستار الغازي، ذلك الرجل الذي تتحدث عنه نساء قريتنا وعن غزواته الليلية. جلس بجانب زوجي يتناول وجبة العشاء، وراح خوفي يسترق السمع وهما يتناولان الطعام، والغازي غير مصدّقٍ أنني التي طبخته. اندهش أكثر حين قال له زوجي بأني تعلمت القراءة والكتابة، وحفظت القرآن في فترة أقصر مما يتصوّر. طغت الدهشة في عينه وقال: "يا رُجل مُش معقول! لم أسمع في حياتي أن أحداً من الأخدام يقرأ ويكتب"، ثم بدأت عينه الوقحة تختلس النظر إلى أبواب المنزل. كرهت شذوذه، وكرهته أكثر حتى الموت حين قال لزوجي: "أنا قلتُ لك أن تنام معها فقط، ولم أقل لك أن تتزوجها!.. رد زوجي: "أنا لا أحب الحرام فطلبتها للزواج، كنت مفتوناً بها سأفقد عقلي لو لم أتزوجها، حتى زوجتي فاطمة أنام معها وزهر الغرام في خيالي، أراها أمامي في كل مكان أنا فيه، حتى وقت الصلاة. طُز بالعادات المريضة يا أخي". كانت كلمات عبد الستار الصدئة تقذفني بالسُخرية وهو يقول:

- يا صديقي طُز بالحب الذي سيفقدك أهلك ومجتمعك، إذا لم تخف على نفسك خف على أولادك مستقبلاً، كيف سيعيشون

والناس ينادونهم بأولاد الخادمة؟! والله إنك أجرمت في حقهم. لكن أظنك لن تخلّف ذُرية منها وستعود لعقلك وتردها إلى كوخ أهلها. أبوها يقول في القرية أنها تزوجت منهم إلى قرية بعيدة، ويمكن أن يقول الحقيقة ذات يوم، هذه ليست زوجة العمر، ابنة عمك فاطمة هي التي ستشرفك أنت وأولادك أمام الناس، أمّا زهر الغرام ستخزي العائلة كلها. إذا يعرف أخوك تاج الدين سيجبرك على طلاقها ولو يكون لديك عشرة أولاد منها، أعد النظر يا صاحبي في تصرفك ستجدها نزوة عابرة تنطفئ جذوتها مع الوقت!.

لم أستطع أن أتحمّل حِمم عبد الستار الفاجر، وهو يصبّها في سمعي، يحرّض زوجي على الاستغناء عني. لعنتُه في نفسي هو وأهله وأهل أهله ومجتمعهم الظالم، والدولة التي لم تعمل شيئاً لتخرجنا من قوقعتنا ومستنقعنا. يستخدم الترغيب والتهديد مع أزواج كثر في قريتنا لينال ما يرغب فيه. ودت لو أخرج واطرده من بيتي، لكن حبيب اطفئ النار المشتعلة في قلبي، التي امتدت إلى معدتي حين قال له:

"لن أتركها، لقد أحببتها بعد الزواج، أكثر إنها تعبدني. فاطمة لا تضاهيها في شيء"، ثم ضحك وقال لهُ: "تزوّج منهم وأنت ستعرف الفرق بين نسائنا ونساؤهم في الفراش". انتصب غضب عبد الستار كالشيطان وقال: "لن أهين نفسي بالزواج من خادمة! أنا متأكد من عودة

صوابك وستتخلى عن زهر الغرام. أظنك ستفكر في نصيحتي ولنا لقاء آخر".

لم أكن أعرف من قبل أنهم يروننا أدنى من العبيد، ليس لنا مكان في هذا العالم. كنت أرى أن السيد خُلق سيداً والخادم خادماً، وهذا قدر لا سبيل لرد قضاءه. لم يحزننا شيء غير الألم، حتى موت الأهل لا يحزننا فالأب لا يعيل أسرته والأم هي التي ترعى أطفالها في الصغر فقط، ثم يعلمونهم دروساً في التسوّل لا سيّما في المدن. نرى التشرد حرية. نتمتع بها وهم لا يتمتعون مثلنا، نقول ما يخشون قوله، نعيش لحظتنا بسعادة وهم يعيشون الحاضر والمستقبل والماضي. يعانون من أمراض نفسية ونحن لا نصاب بها مثلهم، عرفت هذا بعد أن خبرتُ الحياة. هكذا نرى أنفسنا أحياناً أفضل من أسياد يتباهون علينا منذ القِدم، لا نفكر إلا في اللحظة التي نعيش فيها لا غير.

انهمر حزني دون بكاء وبلل خدي، وعبد الستار يحث زوجي عن التخلّي عني، وأنا متأكدة لو تركني حبيب سيطاردني هو كالذئب. تخيّلت نفسي أعود إلى عالم المذلّة الذي هجرته، وأنني سأخرج من نعيم الدنيا الذي دخلته للتو. لكن دموع الحزن تلألأت مشرقة، وتحولت إلى دُرر على خدي فجاءة؛ حيث صرخ الملاك الذي يقطن في قلب حبيب: "لا يا صديقي، حرام العبث بمشاعرها، تراني مُخلصها، اخرجتها من عالمهم، كيف أكون جباناً إلى هذا الحد. لن أتركها ولو قاطعني الأهل

جميعاً"، ثم التفت إلى عبد الستار وقال برجاء: "نحن أصدقاء منذ طفولتنا ولن تتسبب في أذيتي ولا زهر الغرام أيضاَ، ولولا صداقتنا وثقتي فيك ما استضفتك في بيتي من دون جميع الأصدقاء، وأظنك ستقف معي أو مع أولادي يوماً".

هزم ملاكُ حبيب الدين شيطانَ عبد الستار، وقد كنت أراه الشيطان بذاته، ثم ابتسم وقال: "أنا أحب العاشقين يا صاحبي، لكن عشقك شريف شريف!" ثم أقسم بالله أنه لن يفضح زواجنا لأحد، فتحول العرق الذي بلل ثيابي وأنا متخفٍ في المطبخ برداً عليّ، ونذرت أن أصلي لله كل ما فاتني من فروض الصلاة في حياتي السابقة. استعد عبد الستار للذهاب وأنا أشكُّ من صدق نواياه أراه سيعاود الكَرّة مع حبيب، ليحثّه على التخلي عني، ويلاحقني هو في غزواته في القرية. حيث خرج وهو يقول: "ستندم يا صاحبي مستقبلاً!"

سبقني قلبي إلى حضن حبيب وأحتضنه بقوة، وعيناي تذرفان الفرح! استفدت من عبد الستار بقدر ما خفتُ منه؛ فقد عرفتُ أكثر ماذا أكون لمُخلّصي، ونزعت الشك من عقلي الذي غرسه أبي قبل أن أتزوج حبيب الدين، وفي نفس الوقت حاولت نسيان عبد الستار؛ حتى لا أكدر صفوة حياتي، وأعيش لحظتي.

عالمهم جديد عليّ لم أعرف كثيراً عنه بسرعة، ولم أتوقع أن مَشط الشعر أمام الغير فيه عيب، عرفت هذا حين برزت فيّ زهر الغرام

القديمة وراحت تمشط شعرها في ساحة المنزل، حيث كشّر غضب حبيب نحوي وصاح: "ألا ترين أنه من الممكن أن يشاهدك أحد! متى ستنسين ماضيك؟، ألم أخبرك أن الحياء مهم في حياتنا!".

حملتني قدامي الهاربة إلى غرفت نومي، ورميت بالمشط وراحت زهر الغرام القديمة تذوي والجديدة تبكي. هو يريدني أن أتغيّر بين عشية وضحاها بمجرّد أن أصبحت زوجته، لا أرى أن هناك عيباً في مشط الشعر أمام الآخرين. أمي تمشط شعرها أمام المارة في الحي، وهناك أشياء لا نشعر أنها عيب ولا نفكر مثلهم بجرم ذلك السلوك. سمعت كلاماً يخدش الحياء تقوله النساء في قريتنا، لكنني أحسست أن زجره هو حُب لي؛ لأكون زوجة عُمره. عدت إليه وفاجأته بقُبلة على خده. قلت له: "كل ما تقول سأنفذه بالحرف يا سيْدي، فوقف غضبه منتصباً! وصاح وهو يشير بأصبعه تجاه فمي: "وهذه الكلمة، لا أريدك أن تكريرها. كم مرة قلت لك!" فتبسمتُ هذه المرة من تصرف طفل لا يطيعه أحد، وكان غضبه مضحكاً.

كانت كل أوامره مُقدّسة بالنسبة لي، أفعل كل شيء حسناً حتى صلاتي تعمّدت أن اؤديها أمامه؛ لأشعره بأنّي أصبحت منهم. أختلط عليّ الأمر هل أصلي وأصوم لله أو لحبيب الدين؟! فمازال أجهل كثيراً عمّا يقوله الإسلام، كنا نسمع عنه ولا نعرف عنه كثيراً، لأننا لا نجد أحداً يُعلّمنا. فالصلاة وحدها لا تكفي لأن يكون المرء مسلماً.

كان كلام عبد الستار يتردد على ذهني أحياناً رغم محاولتي نسيانه، وكلما اقترب العيد يزداد خوفي، أحدث نفسي: "كيف سأقضي فترة عيد الفطر وحبيب في القرية؟!" كان حزني ليس لبقائي في البيت وحيدة؛ فنحن لا نخاف المبيت لوحدنا، بل كان خوفي من عاقبة معرفة قريته بزواجه، لم يفكر أحد منهم أن يفعل فِعلته، ولست واثقة من وعد عبد الستار الغازي بكتمان سر زواجنا.

بعد نصف شهر من زيارة عبد الستار سمعت شخصاً يطرق باب منزلنا. تسألت في نفسي مستغربة "كيف لشخصٍ يطرق بابٍ مغلقا من الخارج!". اقتربت من والباب وسألت:

- مَن أنت؟!
- أنا عبد الستار. أخبري زوجك بأنني سأزوره الليلة.

بقيت قلقلة أحدّث نفسي "هذا الفاسق لا يريد لي الخير. تُرى ماذا يريد من زوجي هذه المرة؟!"

عاد حبيب عند الغروب وأخبرته بما قاله عبد الستار. اغتسل وتناول طعامه وجلس يمضغ القات ينتظره.

جاء عبد الستار مساءً وراح يمضغ القات مع حبيب، وجلست أنا في غرفة النوم خلف الباب؛ لأسترق السمع، وقلبي يلعن عبد الستار. تحدثا بصوت خفيض كاللصوص مما أخافني، بيد أن صوت حبيب علا فجأة، وسمعته يقول:

- خلاص يا عبد الستار تخلّصوا مننا، بعد أن مكنّاهم من السُلطة وحمينا الثورة من السقوط.
- يا أخي لا تشكي لي أبكي لك. أنا مثلك وهذا ما جرى لي ورفاقي في جبهة التحرير. بعد أن وقفنا معاً نحن والجبهة القومية وحررنا بلادنا من الاستعمار. لجأنا إلى الشمال مشرّدين من الجبهة القومية.

كان حديثهما غريباً عني، لم أفهم ما معنى الثورة ولا جبهة التحرير ولا والجبهة القومية. لكنني بقيت قلقة من حديث بينهما لم أسمعه بينهما وهما يتحدثان بصوت خفيض.

غادر عبد الستار منزلنا في وقت متأخر من الليل، وقد طفح الضجر فيّ. حين دخل حبيب الغرفة قبّلته لأزيل الغضب الذي كان على وجهه. سألته عمّا سمعته أثناء حديثهما وأنا أعد الفرش لننام. التفت نحوي بغضب أخافني، وأخبرني بألا أساله مرة أخرى عن الثورة!.

تلك الليل نام بجانبي ووجهه تجاه الجهة الأخرى. رحت أثيره كما أفعل كل ليلة حين يعود مرهقا من العمل، لكنه أبعد يدي عن منطقته الحساسة. قمت أجلس ورأيته يبكي. آليت على نفسي ألا أسأله عن الثورة ولا شيء عن حياته الماضية، ولعنتُ عبد الستار الذي أفسد ليلتي!.

الفصل الثالث

أغلق حبيب الدين باب المنزل من الخارج عند السفر إلى قريته بقفل أكبر من القفل السابق. لم أشعر بالخوف ليلاً أو نهاراً رغم أن سور البيت يمكن لشخص ما أن يعتليه ويقفز إلى ساحة المنزل. أعتدت على الجلوس تحت سقيفة القش وزهر الغرام القديمة تتقمصني. أنام هناك على السرير، لم أخش مهاجمة أحد. أشعر بأن عالمي القديم لا يزال في داخلي، لا نخشى الغرباء وليس هناك ما نخشى عليه غير حياتنا. انتعلت الحذاء الذي اشتراها لي حبيب أتدرب على المشي به؛ حتى عرفت الطريقة التي تمشي بها السيدات منتصبات القامة. أمشي وثدياي يسابقانني للأمام، وأخذني الاعتزاز بنفسي لأول مرة. نحن نفرح مثلهم، لكن لا نعرف الاعتزاز بالنفس.

لم أصُم ما تبقى من شهر الصوم، وصلاتي كذلك لم أهتم بها كأنني أصلي لإرضاء حبيب، حتى شوقي للغناء أخرسته إرضاءً له، لكنني عدت إليه بعد عشرين عاما بعد تشجيع من قِبل الدكتور سامح وزوجي الثاني بشير، كان يفخر بي أمام الآخرين. برزت زهر الغرام القديمة إلى السطح، ترقص كما تشاء وتمشط شعرها في ساحة منزلنا وتدندن

بالغناء. لم أرغب في أيتها متعة أثناء غيابه، أنطفت شعلتي التي تقودني لألتصق بنصفي الآخر كي يطفئها. أخبرتني بهذا الاحساس أيضاً صديقتي المولّدة مريم أخت زوجي بشير، بعد هروبنا من جحيم القرية إلى مدينة تعز للعيش فيها، وبدأتُ فيها مسيرة حياة أخرى، وأيضاً أخبرني الدكتور سامح، الذي درس الطب في روسيا حيث قال: "ذات يوم كان المخلوق الحي (الذكر والأنثى)ملتصقين معاً، ثم انفصلا عن بعضهما! أظنه كان يضاحكني ليغريني بالالتصاق به، وأنا أرفضه غوايته، حيث كان يقول لي: "أنتن أفضل من المولّدات!".

مضى أسبوعاً وأنا أطهو وجبة لا غير أكلها طوال اليوم، أتخيل حبيب في القرية أثناء النهار وهو يذهب قبل الظهيرة لشراء القات ويحضر أعراس القرية. هكذا العيد عندهم يصير موسماً لتزاوجهم، وفي الليل أتخيله وهو ينام مع فاطمة. أنا أعرف أن قلبه معي، وجسده معها لكنها الغيرة، تلك التي أظهرتها زهر الغرام القديمة فيّ، وأخذتني نارها لخيال شيطاني، أن رجلاً يقفز ليلاً من فوق السور وأجد نفسي لا أرفض غوايته...وجدت أن تلك الفترة التي عشتها مع حبيب لم تكن كافية لأتغيّر، وأصبح فرداً في عالمهم.

أخذت أسلّي نفسي بترديد بعض الأغاني، وأحيانًا أفكر بما لم أفكر بمثله في حياتي السابقة: "لماذا خلق الله البشر لونين؟! ولماذا يحل للرجل أن يتزوج أربعة نساء؟! وهو لا يستطيع أن يلّبي رغبة امرأة واحدة

مثلي" كنت أهرب من تفكير غير سويٍ إلى حفظ القرآن، وساعة أخرى أقرأ المجلات التي كان يحضرها معها، ومرة أخرى أغنّي ومرة أرقص. عرفت أن الشياطين تخرج من قماقمها وقت الفراغ، وتأخذ الإنسان إلى عالمها.

أقبل العيد ولبست ثوبي الجديد، وانتعلت حذائي ورحت أمشي في ساحة منزلنا على الرمل أدندن بكلمات أتتني فجأة:

عائشْ بِذكرى الحبيبْ

وا طفي بقلبي اللهيبْ

حَولي خيالهْ يطوفْ

إذا دعيتهْ يجيبْ

أذوبُ من نغمتهْ

إذا دعا وا حبيبْ

كنت أجلس معظم أوقاتي تحت السقيفة دون خوف، أفكر به: "هل أشتاق لي؟ هل تغريه فاطمة مثلي في الفراش؟! هل تأخذه خارج حدود الكون مثلي؟، ترى ماذا لو ذكر اسمي أمامها دون شعور ؟! كما يذكر اسمي أثناء نومه، وأحياناً في ذروة التلاشي في الوجود أثناء اللقاء الحميمي.

ثالث أيام عيد الفطر كان الجو حاراً، غفوتُ وأنا مستلقية على السرير تحت السقيفة، أيقظتني قفزة رجل من فوق سور البيت، فبرزت

فيّ زهر الغرام القديمة، وراحت تشاهده خِلسة وهو يتجول في الساحة الرملية بهدوء، يظن أنه ليس هناك أحد في البيت، فالباب مغلق بالقفل من الخارج منذ فترة. شاهدني وأنا أتظاهر بالنوم. كانت فيّ زهر الغرام القديمة مسيطرة عليّ لم تخف منه. دخل المطبخ، ثم تسلل غرفة نومي وخرج دون أن يأخذ شيئاً. اقترب مني فشعرتُ بقشعريرة لذيذة تسري تحت سُرّتي، وراح هو ينظر إليّ بصمت. صحتْ زهر الغرام الجديدة وقمتُ بغتة وهتفتُ: "يا مُخنث يا ابن المُخنثة. اخرج، خلّي الناس يركبوك، يا طرطور، يا سارق". جحضت عيناه، تسمّرت رجلاه في مكانه لحظة، ثم جرى يتسلق سور المنزل كالقرد. ضحكت بمجون، لا أدري لماذا شتمته بهذه الشتيمة! هل كنت أنتظره أن يثب علي فاكهته؟. حقّاً كانت زهر الغرام القديمة تريد أن تُكبّل زهر الغرام الجديدة وتسلّمها للص!

هكذا كنت أجد نفسي أنني لا أزال أعيش بين عالمين منفصلين وهما بجوار بعضهما، ويمكن أن أعود لسلوك عالمي القديم لو هجرني حبيب في هذه الفترة.

تأخر حبيب في العودة فبدأ القلق يطرق قلبي، والخوف يبرز مخالبه نحوي. أبكي أحياناً، أتساءل: "هل عرفَ أهله بالأمر؟! هل أصابه مكروه؟، ماذا سأعمل لو فكّر أن يهجرني؟!" لم أكن أخشى من وجود جنين في بطني، لكنني خشيت على قصر طموحي. ترى هل أقمت

بناءه في الهواء؟! رأيت نفسي أعود إلى كوخ أبي وفي بطني جنين، والحي يستقبلني بالأفراح، وأنا أقول لمن يسألني عن حَملي: "إنه ابن أحد الأسياد". رأيت نفسي ألد طفلي ويكبر أمامي، وأغرس فيه العزة بالنفس التي شعرت بها أثناء قربي من حبيب، لن أدعه يتجرع كأس أيتها مذّلة، سأرسله إلى مدارسهم، وأعوّده على أن يكون نظيفاً، وأطلقه إلى عالم البشرية الحقّة. هكذا حدثتُ نفسي حتى لا يلتهمني الفراغ والمشبّع بالقلق. نحن لا نفكر كثيراً؛ فليس هناك ما نفكر به غير: المتعة، الرقص، الغناء أو التسوّل.

نفدت بعض متطلبات المطبخ التي كنت أراها من سِقط المتاع ؛ لأننا لم نعتاد على أي ادخار ولم نفكر فيه يوماً. يكفي قليل من طحين أو ملح، لا يهمنا السكر أو الشاي؛ فلم نعتاد عليه. مر الأسبوع الثالث وباب المنزل مغلق من الخارج، لا أحد يعرف أني محبوسة فيه إلا حبيب الدين، وسرتُ أتخيله وهو يدخل مع أبي لاسترجاعي إلى قريتنا وهو يقول لي: "هل صدّقتي كلامي الآن يا ابنتي، أعطانا ذلك المبلغ من أجل أن يلهو بك هو وحده. يا زهر الغرام بيننا وبينهم جدار صلب لا يستطيع أحد أن يخترقه"، كان أبي قد ردد هذا الكلام عدة مرات قبل أن أتزوج، لكن طلب مخلّصي للزواج مني جعلني أرى ذلك الجدار هشّا أمام الحب، إنه عطر الجنة، يكتسح كل حواجز العادات الغير إنسانية،

يسري عبر الشريان إلى خلايا الجسد ليكون جزاءً منها، وسنبلة مضيئة تنمو في القلب لا تفنى.

وجدت نفسي غير مقتنع بالعودة إلى قريتنا بعد أن ذقت حياة لم أعهدها في مجتمعي. راحت فيّ زهر الغرام القديمة تتحدث: "سأرفض العودة! وسأهرب لأصطاد رجلاً كما يصطادون هم فتياتنا، وأخبره بأنني تِهتُ ولا أعرف طريق العودة إلى قريتي، أو سأختلق عذراً وأغريه بالبقاء معه، أو سأذهب لأعيش مع بني جلدتنا في عُششهم الواهية على حافة المدينة". راودتني مثل هذه الأفكار في القرية أيضاً بالهروب مع حبيب إذا لم يوافق أبي على زواجي منه سراً، حيث الزواج المعلن كارثة له ولي، وسيموت قبل أن يرى النور! حتى أنني حينها قررت الفرار إذا لم يفِ بوعده سأهرب إلى مدينة عدن، وسأعمل هناك...حيث بني جلدتنا حصلوا على حقهم الإنساني والناس سواسية، وسأبقى أشكر حبيب على جذوته التي أوقدت فيّ شعلة العِزّة الكرامة.

عشرون يوماً لا أحادث أحداً فيها غير نفسي ولا أرى أحداً، وكاد حديثي مع نفسي يقودني إلى جنون من نوع آخر! لولا أنّي كنت أتسلى بالقراءة والرقص والغناء. وجدتُ الخلوة عذاباً! ولو حولك ما يسُرّك من طعام وشراب. قلتُ لنفسي: "لو عاد إليّ حبيب لن أدعه يتركني هكذا وحيدة، لابد أن يسمح لي بالتعرّف على الجيران! أو يأتي بامرأة منهم

لتعيش معي حين يكون في القرية". حلفت بأني لن أدعه ينام معي في الفراش أسبوعاً كاملاً، ولو اشتقتُ إلى ذلك.

عاد حبيب بعد خمسة وعشرين يوماً، وسرعان ما تحولت دموع الحزن إلى فرح في برهة! وأنا مصابة بزكام وصداع، فأضاء قلبي قبل أن يسري نوره في المنزل. وجدتُ أن فترة غيابه كأنها سنة كاملة! رميت بنفسي إلى حضنه عند الباب بعينين فقدت بريق الحب فيهما، كما قاله لي بعد ذلك. لم أشعر بشوقه لي كعهده السابق، حيث جلس بفتور فوق السرير تحت السقيفة! رحّبت به ورحت أُدلّك قدميه، وأسأله عن حاله وعن أهله، وهل شاهد أهلي؟! وماذا يقولون عن اختفائي؟! ثم أسرعت إلى الحمام أغتسل ولبست ثوب العيد الجديد، وانتعلتُ الحذاء ورحتُ أمشي أمامه كطفل يزهو بلعبته! فبددت ضحكته الظلام الثقيل الذي ساد داخلي. قال لي بدهشة: "ما شاء الله يا زهر الغرام، تمشين كالسيدات الأجنبيات! تعلمتِ بسرعة ما لم تتعلمه فاطمة، قذفت بحذائها ذو الكعب العالي، وقالت إنها ستكسر قدمها إذا مشت بها". ابتهجتُ لتفوقي عليها! ثم أخبرني أنه حاول تعليمها القراءة، فكانت بطيئة الفهم. رأيت فرحي يرقص أمامي! كتمتُ أنفاسه بقبلة. أيقنت حينها أنه لن يتركني ولن يعبث بي كما أخبرني أبي وشيطان الغواية عند غيابه، سيّما حين أذكر عبد الستار.

خرج حبيب للتسوق عصراً وعاد يحمل سمكة كبيرة، وبعد شوايتها أطعمته وهو يضحك، وشبقي يرمق ديكه النائم، فأوحيت له بذلك، فقال لي: "ما أحلى المرأة حين تدعو زوجها إلى الفراش وتنسى نفسها هناك! هذا ما لم أجده عند فاطمة. ازداد غروري، وغنجي يطفو على السطح. هكذا نحن نبالغ في سعادتنا حين تطغى علينا ولو للحظة! سألته: "مَنْ التي تمتعه أفضل؟!" ضحك وقال: "يا زهر الغرام لا مقارنة بينكما!"

حدثني عن لقائه بأمي في الوادي، وأنه أعطاها مالاً. قالتْ له: "أخبرنا الأهالي أن زهر الغرام تزوجت شاباً منّا يعمل في المدينة، وأحياناً أبوها ينسى فيقول: "هربت، لا ندري مع من!" وأن أمي تتردد على القرية والتقت بفاطمة بحضوره، كان خائفاً أن تخطئ بكلمة وتفضح زواجنا، وهي تقول لفاطمة: "سيْدي حبيب الدين أختارك، وفضّلك على كل بنات القرية. كنت أشوفكم يوم العرس شمسْ بجانب قمرْ، حتى بنتي زهر الغرام قالت إنك مليحة، تستاهلي[٩] حُضنه ما شاء الله! سيْدي حبيب الدين مثل القمر. الله يسعده بما معه...".

أردتُ حبيب أن يمكث في البيت لمدة أسبوعاً، لكنه في اليوم التالي ذهب يبحث عن صديقه راوح للبحث عن عمل. هكذا العمال يعودون مفلسين من القرى، فالقات يلتهم ما كسبوه من مال في المدينة! خاصة أثناء الأعياد. حمدت الله أنه وجد عملاً، وعدتُ لطريقتي السابقة عند

[٩] تستحقين

عودته أزيل تعبه بقُبلة أولاً. استغرب أن عرقه غير مالح! لست أدرى هل الحر يستنزف ملح الجسد، أو أن الحب يُغيّر الحواس؟! أجهّز له الحمام وأدلّكه، ثم يجلس للسمر ومضغ القات للبعض الوقت، وأنا بجانبه على السرير تحت السقيفة، أقطف له الأوراق وأمسحها. أحيانا أدسّ يدي تحت إزاره واداعب خصوصيته فيحملني الحب بين يديه إلى الفراش، ثم نعود إلى السرير لإكمال السمرة، ومازال القات في فمه.

من العادة أن نخرج يوم الخميس مساءً للنزهة، وفي ذات خميس أخذني إلى أحد دور السينما. قال لي: سأريك فتاة تشبهك! ظننت أن له صاحبة في المدينة. بلعت غيضي فليس ليّ حق أن أعترض. اقتربنا من سينما "الساحل" ودخل ليشتري تذكرتين ثم دخلنا صالة واسعة دون سقف. امتلأت السينما بالجمهور، وكثر صخبهم يطلبون عرض الفلم. بدأ عرض الفلم بصوت أرعبني، فقبض خوفي ساعد مُخلصي بشدةّ! حيث ظهر عرض الحائط أُناس سود يمشون يتحدثون لغة غريبة. فكرت أنهم من منبوذي معشر الجن! فقد تذكرت كلام أبي حين قال لنا يوماً: "الإمام أحمد، يملك جِن مسلمين تساعده، وتنقل له الأخبار، وقد راءها البعض تظهر على جدار ديوانه! وإلا لما استطاع أن يحكم البلاد! والهموه بأخذ أولاد المشائخ رهائن عنده ليرضخوا له!".

كان خوفي يرتجف وهو يشد بقبضته على ساعد حبيب، وهو يضحك. قال: هذا فلم هندي (سيتا أور جيتا). حين أطلق النار أحد

الممثلين في اتجاهنا أغمضت عينيّ! وحين كتبتْ جيتا بمسدسها "أنا أحبك" انبهرت جداً! وكذلك صفّق الجمهور وصفقتُ معه، كما يُصفّق في كل مرة يظهر فيها البطل ينقذ البطلة. قال حبيب الدين عنها أنها تشبهني! غنّت "جيتا" بصوت رخيم في حديقة أشبه بالجنة، لكن رقصها ليس أفضل من رقصي، هذا ما لا يعلمه حبيب، ثم غنّت في مسرح كبير. ذلك الحدث بقى في ذاكرتي وقوّى عزيمتي وأنا أقف أول مرة أغني على خشبة المسرح في مدينة الفن "تعز". كنت أستمع إلى الأغنية وجسدي يرقص على تلك الأنغام. بقيت زمناً أتمنى أن أغني مثل ذلك اللحن!

عدنا إلى المنزل وكنت أود أن أرقص لحبيب الدين ليرى رقصي؛ فقد رأيته مُعجباً برقص جيتاً، لكنني خفتُ! في تلك الليلة كنت أريد أن أخبره بأنني حامل، لكن خوفي معني أن أخبره! تركت الأمر يكشف عن نفسه، إلى أن لاحظ هو حجم بطني على غير العادة. قال لي: بطنك تكبِر، أظنك حامل! رحت أحدّق في وجهه لأرى تعبير وجهه جيداً؛ هل الخبر أحزنه أم أفرحه؟! لم أفهم شيئاً. أخبرته أن الحيض قد أنقطع عني منذ شهرين. قال: "كنتُ أريد الحمل أن يتأخر أكثر، فزواجنا لم يمر عليه سنة كاملة". قلت له: "أستطيع أن أسقط الجنين إذا أردت". حقًّا كنت أعرف طرائق عدة لهذا الأمر، عرفت هذا من نساء قريتنا، لكن

كلامه أسعدني حين قال بفتور: "الاجهاض حرام! هذه ارادة الله". انهمر حبي عليه بالقُبل: رأسه، خدوده، صدره الأمرد...

ازداد شعوري بالانتماء إلى مجتمعهم وأصبح واقعاً، وازددتُ سعياً لمعرفة سلوكهم، وكان حبيب هو مُعلّمي الأول. يحضر الجرائد والمجلات، اقرأها كاملة. حفظت الكثير من الشعر وبالذات الغزل. في فترة وجيزة رحت أتحدث في السياسة كمثقفة، كنتُ في وضع تحدٍ مع مجتمعهم، أود أن أكون أفضل من نسائهم. تلك القراءات أنستني الكثير من لهجة مجتمعنا.

لم أعد قادرة على كبح الفرح فيّ! ودفعني للغناء، وفي ذات مساء كنتُ في ساحة منزلنا، أخذتُ صحناً للنقر عليه كأنه الدف، وكان حبيب في الحمام، ورحتُ أعبّر بما يكنُّه قلبي لحبيبي حبيب الدين:

حبيبْ حبيبْ شاغمضْ عليكَ جفني

حتي تصيرْ فيّ وجُزء منّي

واذوّبكْ في قلبي المُعنّد

وانسى بقربكْ لوعتي وحُزني

كانت الكلمات تنهال على قلبي، كأنه وحي من سماء المحبة! فجأة خرج من الحمام، وأقبل نحوي وهو يأتزر بفوطة. طالت يد الغضب نحوي ورمى بالصحن بعيداً، وقال: "ماذا تفعلي؟! لقد قُلت لك مراراً، يجب أن تنسي ماضيك. إذا سألك أحد قولي لهم إنك من أصل حبشي، خُلقتِ هنا

في اليمن! لا أريدك أن تُغنّي مرة أخرى، أو تضربي على صحن أبداً. كيف هذا وأنا عازم على أن تتعرفي على نساء حي حالي!". تحول حزني إلى فرح فجأة، قلتُ: "حاضر يا سيْدي!" فصاح مرة أخرى بصوت أرعبني وهو يقبض على شعر رأسه بشدّة، وترك العنان لفوطته أن تسقط عند قدميه! فأسرع يتلفت نحو منازل الجيران ما إذا أحد شاهده وهو عريانًا! قال والغضب في عينه يرشقني بسهامه: "وهذه الكلمة لا تذكريها على لسانك، لن أسمح لك بالاختلاط مع نساء الحي إلّا بعد أن تتغيّري تماماً وتنسي ماضيك! تتحدثين مثل السيدات، معتزة بنفسك أمامهن، لا تثرثرين بكلام فاحش. الحياء سلوك مهم في مجتمعنا، لا تضحكي كثيراً معهن..." كان لوقع سياطه الخارجة من فمه لذة تجتاح جسدي!

ذات يوم عاد بعد غروب الشمس يحمل مُسجلة كبيرة جديدة، فقفزت فرحتي ترقص أمامي تُقبّله. سألته عن الثمن؟! رد قائلا: "ببلاش!" لم أفهم ما يعني! ثم أخبرني أنه أشتراها من أحد الأخدام، يعمل حمالاً في الميناء، باعها بخمسة وعشرين ريالاً، وقيمتها الحقيقية مائة وخمسون ريالاً، اشتراها قبل أسبوع وذهب يشتري بقيمتها قاتاً". بلعت ألمي حين قال لي: "هكذا الأخدام يستلمون رواتبهم من البلدية وينفقونه خلال أسبوع!" في تلك الليلة انتقمت منه في الفراش لذكرنا بسوء بالطريقة التي أحبها، حتى أنه لم يقوَ على الذهب للعمل صباحاً!

ذات يوم خرجنا بعد العصر واتجهنا نحو الشاطئ وكنتُ أنتعل حذائي ذو الكعب العالي. برزت فيّ زهر الغرام القديمة وأنا في شارع زائد متباهية بحذائي الأنيق. راحتْ تمشي بفخر ويدها تحضن ساعد حبيب، تشعر أنها سلطانة! أمّا هو فكان يتوخّى الحذر من مصادفة صديقاً أو قريباً، وشاله حول رقبته؛ ليغطي فمه في الوقت المطلوب!

وصلنا إلى الشاطئ وأثناء المشي كانت حذائي تغوص في الرمل، حين تعثرتُ رأيت الحب في عيني حبيب مما أثلج ذلك صدري. أظنه كان يخاف على حملي. مشيت دون حذاء، أتخيّل أن الرمل الحار يُقبّل قدميّ الناعم، لم يعد خشناً كسابق عهده. ثم مشينا نخوض المياه، والموج يتكسر عند أقدامنا كما يُكسّر حبيب عادات وتقاليد ظالمة ضد الإنسانية. أحسستُ أنني أمشي على حافة العالم! وأن الدنيا هي الجنة والأسياد يعيشون فيها، وبنو جلدتنا يكفيهم التمتع بالنظر إليها!

قابلتُ ثلاث نساء يمرحن بالماء إحداهن سمراء. استأذنته أن أبقى معهن فرحب بالفكرة وذهب هو يمضغ القات على الشاطئ. رحبتْ النسوة بي، وضعتُ حذائي أمامهن، ثم أمطت اللثام عن وجهي، وجلست أمرح معهن، أتحدث بسلوك راق. مدحت إحداهن عينيّ. قالت عنها إنهما مثل عينيّ البقرة! وامتدحتُ فيها بياضها الناصع، وعيونها الدائرية كأنها عيون مغولية! أضافت تقول أن لوني كالشكولاتة هههههه وشفتاي

كالنبات[١٠]. أما المرأة السمراء كانت تبلع ريقها! عرفتُ فيما بعد ماذا وراء ذلك السلوك. صدفة أقبلت امرأتان من بني جِلدتنا، تلبسان ثياباً غير نظيفة، في حضن كل منهما طفل رث الحال. أحدهما قالت كلاماً فاحشاً لرفيقتها... ضحكت النسوة من حولي، أما أنا وجدته كلاماً عادياً فقد سمعت مثله كثيراً في قريتنا، وقبل أن أغادر النسوة سألتني المرأة السمراء عن سكني! وهل يمكن أن نلتقي مرة أخرى؟. كانت نظرات إعجابها بي تكاد تفضحها، لكنني سعدتُ بذلك.

عدنا إلى منزلنا، وفي الطريق قال لي حبيب بأنني كنتُ أضحك بهدوء وهن يضحكن بصوت عالٍ، فعرفت أنه كان يراقب سلوكي. ونحن نمشي وسط المدينة راح يُعرّفني بشوارع وأماكن عدة، وكنتُ شاردة الذهن أفكر بتلك المرأة المعجبة بي، ولماذا أرادت أن تعرف سكني؟!

وجدَ حبيب أن النزهة تسعدني، كما اسعدتني المُسجّلة ورآني حورية تمشي بجانبه رغم خوفه من أحد يترصدناً، وفي المساء يجدني فراشة تطوف حوله تحترق في حبه. سألته أن يأخذني إلى السينما مرة أخرى، فذهبنا ذات خميس ليلاً لمشاهدة فلم اسمه (الزوج المُحلّل) بطولة الفنانة صباح. غنّت في الفلم ورحتُ أقلّد غناءها في نفسي، وقدماي تقرعان الأرض، أود ضبط الإيقاع، لكنني لم أجده مثل نغم الأغنية الهندي، التي تمنيت أن أغنّي مثلها يوماً! أعجبني الفلم فليس فيه شجار كفلم

[١٠] قطع سكر

سيتا أو جيتا الهندي، لكن الشجار حدث في السينما نفسها حين توقّف الفلم فجأة أثناء دخول رجل وامرأة غرفة واختليا معا، وراحا يخلعان ثيابهما! فصاح الجمهور وراح يصفّر. أحدهم أخذ يهتف: "الله يلعنكم، خلّونا نشوف[١١]!"، وسمعت أصوات الكراسي تتكسر، وساد الصالة هرج ومرج. شاهدت حبيب يكتم ضحكته بكفّه وسط هذه الضوضاء! وهو يختلس النظر إلى رجل بجانبه، كانت يده تهتز تحت فوطته! كتمتُ ضحكي أنا أيضاً ورحتُ أسعل، لكن الرجل لم يبالِ بمن حوله. عاد عرض الفلم فصفق الجمهور، كان الممثل قد لبس ثيابه وكذلك المرأة وغادرا خلوتهما، عندها صفّر الجمهور وصفّق مرة أخرى.

أثناء عودتنا إلى المنزل سألته: "لماذا لا يوجد فتيان في السينما؟!" أخبرني بما أفزعني: "الآباء يخافون على أبنائهم الذهاب إلى السينما دونهم!". كان الطقس رائعاً فأردتُ أن أمشي لكن حبيب استأجر سيارة أجرة؛ خوفاً مِن أن يقتادنا رجال الأمن للتحقيق معنا ما إذا أنا زوجته أم لا!.

في مساء اليوم التالي لم أستطع كبح زهر الغرام القديمة عن الغناء التي مازالت تقبع داخلي، فغنّتْ في المطبخ بصوت خافت، وأنا لا أفعل ذلك وقت وجود حبيب وراحتْ تقلّد صوت الفنانة صباح... تحاول مزجه بالنغم الهندي. سمع حبيب الدين، وقال بسخرية: "وا زهر الغرام، وا زهر

[١١] نشاهد

الغرام، الفنانة صباح في عالم غير عالمنا. المرأة هنا لو غنّت يلعنها الناس، غناء النساء هنا للخادمات فقط! بيد أن شعلة الغناء لم تنطفِ في قلبي، ظلت خافتة في قلبي وزيتها دمي. فتحتُ المُسجِّلة بصوت مرتفع، فقال: "لا، ترفعي صوتها مرة أخرى، أنتِ لست في قريتك..."

الفصل الرابع

في الشهر السادس من حملي هدأ الشبق عندي، وظننت أن حُبه سيتأثر، لكنه هو أيضاً سار بنفس مساري. عرفت أن الزوجة هي التي توقد جمر الشوق عند الزوج، وتدعوه لفراش الحب دون أن تشعرهُ بذلك، وأن الأنثى كالورد يعشق نفسه حين تتناوله الأيادي ويتنسمه الحب. كنت أنظر إلى بطني بفخر وفرح وهي تكبر، وكان هو في الفراش كفراشة معي.

ذات يوم خرج حبيب من البيت دون أن يغلق باب المنزل بالقفل بعد خروجه كالعادة، فغمرتني السعادة لذلك التغير الذي حدث له، كنت انتظره زمناً ليس لفك باب سجني في المنزل فحسب؛ بل لخروجه هو من سجن الشكّ الذي أدخل نفسه فيه! كيف ذاك؟! وهو يراني أذوب فيه وجداً. غنّيت دون شعور مني وأنا أنظّف ساحة منزلنا، ثم دخلت الغرفة وأغلقت النافذة، ورحت أرقص كما أشاء، ولولا خوفي على حملي لمَا توقفت قبل أن أشبع رغبتي. لست أدري لو عرف أنني أرقص سراً ماذا سيفعل؟! هو يحب أن يشاهد امرأة أخرى ترقص أمامه، لكن زوجته مستحيل أن تفعل ذلك!

ظننت أنه بدأ يثق بي، لكنني وجدت تلك الثقة اختباراً لي، فدودة الشك لازالت تنخر في عقله ولن تزول بسهولة. أحضر امرأة في الستين من عمرها اسمها (سُمية) تسكن قريباً منّا. رحبتُ بها ورحت أتحدث معها بكلماتي مقتضبة لأبدو أمامها متعلمة ومُعتزة في نفسي. قدمتُ لها الشاي وبرزت فيّ وزهر الغرام القديمة تشعر بالفخر، أن إحدى نسائهم أتت لتساعدها وهي في شهرها الثامن من الحمل! تتباهى بحملها، وزوجة لأحدهم. أخذتْ سُمية لتشاهد مطبخها وغرفة نومها. كبحتُ غرور وزهر الغرام القديمة، كانت ستفضحني من أي مجتمع أتيت!

كان يعود من عمله فجأة إلى المنزل، وفي أوقات مختلفة! معتذراً أنه نسى شيئاً في البيت، فأسرع لفتح الباب، ويدخل هو يبحث عمّا يدّعي هنا وهناك...ثم يأخذ شيئاً ويخرج، وكذلك سمية كانت تتردد عليّ كل يوم في أوقات مختلفة. سألتني عن أمي؟ فقلت لها إنها من اريتيريا، كانت لاجئة إنسانية مع أهلها في اليمن، وتزوجها أبي، ورحت أحدثها عن صراع اريتريا مع الحبشة من أجل الاستقلال... كانت لساني تتعثر وأنا أكذب، وأحس بثقل يدي خلال تناول الطعام معها من صحن واحد. لكنني اجتزت تلك الأفكار حين شاهدتُ يدي أنظف من يدها، ورحت أنا التي أعيبها في نفسي، لكن لم أقوَ على التغلب تماماً من شعوري بنقص الذات عندي في مرحلتي الأولى من العيش في مجتمعهم، فخوفي من سمية أن تعرف من أنا كان يذكّرني بأصلي، حتى ولو تراني أنظف منها

لن تدخل بيتي مرة أخرى. هم يرون أن نظافة الإنسان ليست في الشكل الخارجي فقط؛ بل في الذات أيضاً، ذلك الذي يرون أنه ينقصنا مهما بدون من نظافة وغنىً. هذا ما سمعته ثاني يوم من عودتنا إلى القرية التي جرعتني دموعي.

في الشهر التاسع من الحمل رحت أزهو بحملي أمام سمية. قالت لي أنني سألد بعد أسبوع، لكن في نفس اليوم ليلاً شعرتُ بألم في أسفل ظهري. رقدت حتى قرب الفجر ثم صحوت وأنا أحس بالألم أسفل بطني، وبللاً في سروالي، ظننت أنني تبولت تحتي، ثم صرختُ فجأة، فقام حبيب يلبس ثيابه وخرج مسرعاً وعاد بعد عشرين دقيقة برفقة سميّة، والطفل يبكي بين فخذيّ على الفرش. أخذته سمية بين يديها وهي تضحك وتقول: "ولد جميل، يا زهر الغرام. أنتِ امرأة قوية! ما شاء الله مثل الأحَجور[١٢] تلد في الطريق وتقوم تمشي". ضحكتُ فازداد ألمي، ليس لأنّي ولدت بما كنت أحلم به؛ بل لأنها أعادت بذاكرتي إلى زمن بعيد، حين ولدت أمي بأختي الكُبرى كرامة في الوادي، وهي تجلب الماء من البئر.

لم تسع غبطتي هذا العالم حين شاهدتُ الفرحة مشرقة في وجه حبيب. قلتُ في نفسي هذا هي ثمرة الحب، ترى كم سيكون ثمار لنا؟. ذلك اليوم سمّى حبيب ولده "نصر". قامت سمية بغسله ثم علمتني كيف

[١٢] طبقة مهمشة أرقى من الأخدام

أرضعه، لكنه لم يستطع أن يرضع فحلمة ثدي لم تبرز بعد. قلتُ لحبيب أن يشدهما بأصابعه للأعلى كي يبرزا، لكن لا فائدة من ذلك، ثم قلت: "مُص الحلمتين بقوة". كنتَ تريد هذا! افعلها الآن لأجل طفلنا، فضحك كثيراً وسعل بقوة وقال: "هذا حرام! حرام يا زهر الغرام، ستكونين أمي لو شربت من حليبك". أحضر حبيب الدين كأساً ودر حليبي بالضغط على حلمي ثدييّ، كما يدرِّون حليب أبقارهم، وعلّمني كيف أقوم بذلك؟ والقمتُ نصر الحليب بالملعقة وتوقف عن البكاء.

اعتنيت بولدي مُخلّصي الثاني من عالمنا المنبوذ، وحبيب الدين يعتني بي هو الآخر، كل يوم يشتري لي: دجاجة، فواكه، سُكر أحمر، تمر، عسل... ما لم أشهد هذا العطاء يُقدم لامرأة بعد ولادتها في قريتنا، وجارتي سمية تقوم بأعمال البيت. استنكرت عليها نظافتها في نفسي، لم تكن جيدة في غسل الأطباق!...

بعد أسبوع ذبح حبيب كبشاً وختن ولدي. كان يداعبه في المهد كثيراً. قال لي: "لون بشرته تقارب بشرتي". فرحه زادني فرحاً، ورأيت أن ولدي هو الآخر سيكمل مشوار أبيه معي. اهتممت بنظافة طفلي أفضل مما علمتني إيّاه سمية. رغم أن نساءهم يبقين للراحة أربعين يوماً بعد الولادة، ثم يغتسلن ويحتفلن وينمن مع أزواجهن بعد ذلك، إلا أنني بعد أسبوعين استعدت صحتي ونشاطي.

حسِبتُ أنني نجحتُ في الخروج من دائرة شك حبيب الدين بي لكنها خفّت لا غير؛ حيث ذات مساء وجد ثمرة زبيبة واحدة على فراش النوم، فالتفت غضبه إليّ وقال بجِدة: "أنا لم اشترِ زبيباً! من أين أتيتِ بهذه الزبيبة؟! حلفت له بعدم معرفتي في ذلك، وأخبرته أن سمية دخلت الغرفة. خرج من المنزل وهو يقول بحدة: "سنرى يا زهر الغرام!"

بقيت خائفة ومرتبكة، رحت أمشي في ساحة البيت ذهاباً وإياباً، أحدث نفسي: " ترى لو قالت سمية إنها لا تعرف عن ذلك! تُرى هل هذه الزبيبة اللعينة ستدمر سعادتي؟! المشوبة بالخوف والقلق. خُيّل إليّ وأنا في غمرة القلق أن أبي يقف أمامي فجاءة، يقول لي: " أترين الأسياد لن يثقوا بنا ولو أقمن جميع الصلوات وصمنا أكثر منهم!" توقفتُ عن المشي، وقلت: "أنا لم أخُنه، وليفعل ما يريد. سأقول له يمكن الرياح قذفت بها إلى الغرفة، أو أن الزبيبة كانت ملتصقة بك أنت أو بثياب سمية وسقطت في الغرفة. لماذا لا تفكر بهذا الأمر؟! أنا لم أعد أتحمّل الشك بي أكثر من هذا!" أقسمت أنني لن أنام بجانبه حتى يعتذر لي. عاد يضحك فكان ذلك الضحك برداً وسلاما على قلبي، وإذا بي أعتذر لهُ أنا؛ لِما تسببت له من قلق، وفي الليل كان اعتذاري له ممتعاً.

بدأ السماح لي لأدعو نساء حي الحالي لزيارة منزلنا، لكنه لم يسمح لي بعد بالخروج إلى أي مكان، فالريبة لازالت تسكنه من سلوكنا! رغم أنني أظهر له أنني نسيت عاداتنا وسلوكنا وأنني إنسانة أخرى. ماتت

زهر الغرام القديمة، أنا الآن زهر الغرام السيّدة، التي ممكن أن تضحي للحفاظ على شرفها وسمعتها. أحاول أن أقتلع تلك المعتقدات الصدئة التي زُرعت في مجتمعهم، مثل ذاك المثل المتداول (لا يغرك حُسن الأخدام، النجاسة في العظام) سمعته في القرية مراراً، وأظنني لم أستطع أن أقتلع جذوره من عقله بعد، لايزال الشك يدفعه ليأتي فجأة إلى البيت مدعياً البحث عن شيء ما. في إحدى المرات أمرني أن أخرج وحيدة إلى سوق في شارع زائد القريب من الحي، وقال أنه سيحضر لتناول طعام الغداء في البيت. ذهبت إلى السوق لأشتري السكر والرز وقابلتُ هناك رجلاً حاول مغازلتي. طغت فيّ زهر الغرام القديمة إلى السطح فشتمته وأخزيتهُ أمام المشاة، ثم خجلت مما قلته. عاد ذلك اليوم حبيب الدين سعيداً على غير العادة. عرفت ذلك الرجل أنه كان مدسوساً من قبل حبيب، فقد رأيته فيما بعد يتحدث معه في شاطئ البحر.

سافر حبيب إلى القرية مرة أخرى، ولم يغلق باب المنزل بالقفل من الخارج كما فعل في جولته الأولى، لكنه شدّد عليّ ألا أخرج من المنزل وإذا احتجت شيئاً أخبر جارتنا سُمية. أحكمتُ اغلاق الباب من الداخل لشعوري بالخوف على شرفي، ليس كالمرة السابقة حين غادر إلى القرية. كنت أراقب السور بين الحين والآخر، أفكر لو أن رجل تسلّقه سأملئ الدنيا صياحاً، وسأقاتله لو اقترب مني. زجرت فيّ زهر الغرام القديمة حين ظهرت أمامي تخبرني: "أنتِ الآن حرة، أفعلي ما تريدينه. اصطدت

رجلاً منهم وأوقعته في شباكك، يمكنك أن تعيشي عالمنا وعالمهم معاً، الآن هو يثق بك! لماذا لا يكون لديك عشيقاً كما هو لديه امرأة أخرى؟!. أنتِ جميلة. أخرجي اصطادي رجلاً " رأيتها تتجه نحو الباب لتفتحه لأخرج، وإذا بي أخذ حفنة من رمل ساحة المنزل وأقذف عرض الباب كأنني أرمي شيطان الغوايّة، فقد سمعت من سُميّة أن الحُجّاج يرمون الشيطان في منطقة مِنى. لا أدري هل يظهر لهم هناك أم ماذا!

اعتنيت أكثر بعش حبنا، ولدي يظل نظيفاً على مدار اليوم أفضل من أطفال الجيران. اجتهدت في القراءة وأعدت قراءة صحفاً ومجلات عدة، اعجبني أزياء سيدات في تلك الصحف، وتخيلتُ نفسي عارضة أزياء أمشي بكعبي العالي مثلهن. قلت لسمية عن رغبتي فاندهشت، وقالت: "ماذا تقولين عارضة أزياء؟! هذا غير ممكن! عاداتنا لا تسمح يا زهر الغرام، حتى الخادمات لا يقبلن بهذا العمل! احذري أن تخبري زوجك عن رغبتك هذه". وقفتُ أمامها دون حراك وقلبي ينبض بالخوف، يجتاحني الصقيع رغم حرارة الجو! خفت أن تكتشف أصلي، لكنني سارعت بالضحك وأخذت أداعب ولدي وأقول لها: "لا يا خالة سمية، كنتُ أمازحك، أنا أعرف أن هذا عمل مشين". ثم أخذتُ ولدي إلى الحمام ورحت أمسح دموع الخوف هناك.

خلال بقاء زوجي في القرية خفتُ من عبد الستار، فهو الذي يعرف سرّنا، ويمكن أن يهدم قصر أحلامي فوق رأسي. رأيت ابني ينادونه في

قريتهم بابن الخادمة، وتذكرت كلام والدي قبل زواجي وهو يقول: "يا زهر الغرام، مثل هذا الزواج لا يخفى على أحد، سيكيدون لنا، ويمكن أن يطردوننا مثل ما طردوا الأحجور[١٣]، بعد أن وقع شاب في عزلة الأعبوس بحب إحدى بناتهم. لا تصدقي أمك يا زهر الغرام. أنتِ خاااادمة يا ابنتي، وما أعطانا هذه الفلوس إلا ثمناً لسكوتنا!" راح يعد الفلوس ويضعها في جيبه ثم قال: "اتفقتُ مع هزّاع الخادم من قرية زِهِمق بأن تتزوجي ابنه مُقيبل الراعي، وسيعطيك خمسة أغنام وقرية عُقابة مهراً ورثها عن أمه. وراح يخبر أمي أن تخبر حبيب الدين بأن زهر الغرام خُطبت وانتهى الأمر، والمُسلم عند العرب[١٤] لا يخطب فوق خطبة أخيه المسلم.

تذكّرتُ كيف تخلصتُ من مُقيبل، فأخذني الضحك، فقد أتى بصحبة والده لخطبتي. انفردت به وقلت له: "هل ترضى أن تتزوج بامرأة تكرهك؟! ضحك وقال لي: "نساء الأسياد يتزوجن دون مشورتهن، فكيف بنسائنا ولن أتركك لهم!..." لكنني أعرف أنه لن يستطيع أن يحميني منهم، خاصة عبد الستار. غضبتُ حينها وقلت له: "أقسم بالخالق إنني سأقطع ذكَرك يوم زفافنا وسأهرب، أو سأقتل نفسي!" خاف وذهب يقول لوالده: "لا أريد هذي المَرَة مجنونة يا أبي تقول أنها ستقطع زُبي!"

---

[١٣] طبقة مهمشة أقل تهميشا من الأخدام

[١٤] كثير من المهمشين يطلقون على غير بني جنسهم في اليمن "بالعرب"

بعد مغادرة مُقيبل وأبيه أسرع أبي يضربني، وهو يصيح: "الإنسان لا يستطيع الخروج من جلده، لا تصدقي الأوهام، حتى وإن تزوجك حبيب الدين سيستغني عنك يوماً، أو سيجبرونه أهله على الطلاق وسيقولون إنه مسحور من قِبلنا!"

عاد حبيب بعد عشرين يوماً من السفر، وبددت سُحب الخوف من رأسي. أحضر قارورة سمن بلدي هدية لسمية. في اليوم التالي حين حضرت كانت نظراتي نحوها تستجديها؛ كي لا تخبره بإعجابي الذي ابديته بعارضات الأزياء، لكنها أخبرته بعد ذلك. أدركت أنها جاسوسة على سلوكي، لكنه لم يغضب مني! بل راح يشرح لي كيف عارضة الأزياء تعرض جسدها للخياط وتبرز مفاتنها للجمهور، وهذا ليس من عاداتنا. ثم راح يخبرني أن زوجته فاطمة ولدت ولداً وأسماه "علي"، وذبح ثوراً يوم السابع. قلت له: "لكنك ذبحت خروفاً لابننا نصر!" رد قائلاً بأن عادات القرية تختلف، وكان هناك ضيوف كثر وأنه عمل مولداً لله وأحمد ابن علوان، وأضحكني أن الحضور لم يقتنع بالقات الموزّع لهم، فكان صوتهم خافتاً أثناء قراءة المولد!.. هكذا هم أسيادنا لا يقرؤون الموالد إلا بتقديم اللحم والقات لهم!

أحسست أنه يحب ولده من ابنة عمه أكثر من ابني، ثم راح يحدثني عن زيارة أمي إلى داره وباركت لفاطمة وغنّت يوم السابع... قال: "كنت خائفاً أن يفهمها أحد غيري وهي تغني:

"جِزعتْ[١٥] أرض الله سَيبتْ[١٦] بلادي.. لمّا لقيتْ الّلي على مرادي"! أجزلت العطاء لأمك، ففرحت فاطمة، تظن أنني أكرمتها لأجلها، وراحت أمك تدعو لي: "ربنا يسعدك في غُربتك يا سيْدي، ربنا يُهنّيك بها يا سيْدي..." خفتُ من دعائها! وصرفتها عن الدار.

خفّ شبقي لفراش الحب، لم أدرِ هل وثقت بحبيب الدين أم حُبي لولدي سكن كياني! لكنني لم أقصّر بحق حبيب أبداً. أصبحت أخاف عليه أكثر، وأغير عليه من النساء، تلك الغيرة التي لم أكن أشعر بها من قبل، بل كنت أخاف أن يتركني. عرفت أنني أغير عليه أثناء مرور امرأة جميلة بجوارنا ونحن في الشاطئ، وكنتُ أنا أزهو بابني أرفعه عالياً أداعبه أمامها، رأيت حبيباً يرشقها بنظرات اعجاب.

ازدادت سُحب الخوف تُخيّم حولي خشيّة أن ينكشف أمر زواجنا، رغم أننا في السنة الثالثة منه. كان خوفي هذه المرة ليس عليّ بل على ولدي إذا تركني حبيب، كيف سيعيش بين عالمين منفصلين وهما يعيشان بجوار بعضهما!

في حملي الثاني كنت أتمنى أن يكون المولود ذكراً أبيض البشرة كأبيه، لكنني ولدت أنثى فبكيتُ على فرش الولادة حين رأيت حبيب غير مسروراً، لشبهها بأخي مرجان، تمنيت لو أنها ماتت، فأنا أعرف ماذا سيقولون عنها في المستقبل، فزواجنا لن يظل قيد الكتمان، وهذا ما

---

[١٥] عبرتُ

[١٦] غادرت

حدث فعلاً، عشتُ مواجهات شرسة مع أهله في القرية. أحببتُ أن أسميها "فازعة" فلم يوافق أبوها لأن هذه التسمية متداول في مجتمعنا فقط، وهم نادراً ما يُسمّون أولادهم بأسمائنا المتداولة، فأسماها "جليلة". لم يحبها كثيراً، لست أدري! هل لأنها أنثى! أم للونها الأسمر ولشبهها بأخي؟! لم أرضعها جيداً؛ فجف الحليب مني، وحملت بالابنة الثانية.

كنا نخرج نمشي في الساحل فأشعر بالحرية، وتبرز فيّ زهر الغرام القديمة أحياناً، تزهو بأطفالها وبنفسها. حين تتلاشى أمامي أشعر بالخوف من اكتشاف أمر زواجنا. هكذا كان الخوف الفرح يلازمانني معاً. أمّا هو غالباً كان يمشي مبتعداً عنّا قليلاً، يتركني ألعب مع أطفالي ثم يشير إليّ بالعودة. خوفه من اكتشاف أمرنا كان يشعرني بأصلي، فتقطر دمعة ملتهبة على قلبي. أتساءل كيف سأنسى أصلي وهناك من يذكرني به!

ذات يوم لا ينسى أقبل حبيب يركب سيارة "لاندروفر" يسوقها شخص آخر. أوقفها أمام البيت، لم تكن جديدة لكنها جيدة. انصرف الرجل ودخل هو يمسك بمفتاحها والسرور فيه يقول: "اشتريت لكم سيارة؛ فهب الأولاد والفرحة تحملهم على جناح السرعة! وتبعتهم أنا حافية القدمين. أخذ الأولاد يمررون كفوف الفرح عليها كأنها بقرة حلوب، كتلك التي حصلت عليها في القرية بعد أن عدتُ إلى جحيمها. أما أنا رأيتها طيارة! نظرتُ إليها وكأنّي في حلم كنت أريد أن أصيح: "بنت مَقرع

الخادم لديها سيارة. أين أنت يا أمي تشاهدين رقص فرحتي!". عندها جاءتني رغبة جامحة في الغناء، لكنني كنت خائفة من غضبه. كتمت أنفاسه بُقبلة وأنا لا أقبّل شفتيه أمام الأولاد بل في الخد، وكذلك هو يُقبّلني أمام الأولاد دون حرج، وأصبح هذا أمام الأولاد شيئاً مألوفاً. قلت له: "أريد أن أعبّر عن فرحي!! دعنِ أغني أرجوك يا حبيب. صمت ثم قال: "لكن بصوت هادئ"، والتفت ينظر إلى المنازل المجاورة بقلق. جلس ينصت كالمذهول! هذه الأغنية أُعجبَ بها الوزير... فيما بعد حين غنيتها أمامه في المسرح:

أراك في غيبتكْ من حولِ قلبي تطوفْ
وانتِ العيونْ يا حبيبْ والعينْ في بَكْ تشوفْ
اراكْ كفَّ الهوى يضربْ في قلبي الدفوفْ
خلّ حياتي وروذْ تُناجي شوق القطوفْ

....

طغت الدهشة وجوه أولادنا وهو أيضاً! غير مُصدّقين أنني أمتلك ذلك اصوت الرخيم! وكيف نبعت من قلبي تلك الكلمات؟! حينها برزت فيّ زهر الغرام القديمة أمامي تصفّق لي، ووسوست لي: " كيف تخفين صوتاً كهذا حباك الله إيّاه، وتحجبين جمالاً ترى الناس فيه عَظَمة الخالق". حقًّا، كان قلبي هو المُغرّد، كنتُ أريد أن أغني أمام الناس ليعرفوا فرحتي، كما كانت يوم أن خط قلبي بأنامله اسم حبيب في الدفتر

وتعلمت القراءة. كان هو يقرأ بعض صفحات الجرائد، أمّا أنا كنت اقرأها كاملة، وأصبحت أحدثه في السياسة وفي الشعر. أريد أن أتفوّق عليه هو أيضاً ويراني أفضل من زوجته فاطمة الأمية، أريد أن أكون أفضل من نسائهم جميعاً. ازدادت ثقتي بنفسي لِمَا كسبته من ثقافة، ونساء جيراني يحترمنني مما زادني هذا غروراً "وفَشرة"[١٧]. تلك الفِشرة التي تداهمنا لأقل سعادة تمرُّ بنا مرَّ السحاب.

كان حبيب يذهب بالسيارة صباحاً إلى الشاطئ ليتعلم السواقة، وفي إحدى المرات ذهبتُ معه. كنت أشاهده كيف يدفع الجير الأول بيده اليمنى، ويضغط برجله اليسرى على الكِلش، ثم يرفعها ببطء ويحركها للأمام مسافة بسيطة، ثم يدفع الجير الثاني! وهكذا إلى الثالث ثم يمشي بها بخفة فوق رمل الشاطئ. كنتُ أراقبه جيداً كيف يعود بالسيارة إلى الخلف. قلت له: "أستطيع أن أسوق مثلك يا حبيب" ضحك وقال: "ما فيش امرأة تقود سيارات في البلاد كلها! حتى ولو تعلمتِ لن تسوقي؛ الناس تسخر من المرأة التي تقود سيارة، وهذه السيارة لا تليق بالنساء!". قبّلته، وليرانا مَن كان حولنا. لماذا يرون التقبيل عيباً أمام الآخرين؟! نحن لا نرى ذلك عيبا! فراح خوفه يتلفت يمنة ويسرة، وأنا الح على طلبي، ووعدته بليلة من الليالي الملاح حتى الصباح.

[١٧] غرور

جلستُ أمام المِقود، وراح يشرح لي كيف أدفع الجيْر والبِرك وفي الوقت نفسه أضغط على الكِلش بقدمي، ثم أرفعه ببطء ثم أدفع البنزين.. تمرّنتُ خمسة دقائق على تحريك تلك الأشياء ثم قِدتُ السيارة مسافة بسيطة! ومشيت بالجير الأولى مسافة أطول ولم أنحرف بها، دفعت الجير الثاني فانحرفتُ تجاه البحر شمالاً، يميناً...حتى تمكنت يداي من المقود. اندهش هو فيما انجزته في يوم واحد! وراح فرحه يقبّلني، ولم يهتم بمن كان يشاهدنا! مندهشين: "يا للهول!! أيعلّم امرأة السواقة. والله إن هذه المرأة خادمة ما تستحي!"

في اليوم الثاني تعلّمت في الشاطئ أن أسوق بالجير الثالثة، وخلال يومين تعلّمت الكثير. قال لي: "يمكنك أن تسوقي في الشارع يا زهرتي، لكن الناس سيضحكون عليك، أمّا أصحاب الذقون سيلعنونك أنت وأهلك وعشيرتك..." وفي المرة الثالثة فجراً اصطحبنا الأولاد وقِدتُ السيارة بجوار الشاطئ، ومشيت بها مسافة في خط خارج المدينة وهو بجانبي، كان أولادي مندهشين والفرحة فيهم تصفق، أن أمهم تقود سيارة! تدعس تقاليد المجتمع بعجلات التطور. برزت فيّ زهر الغرام القديمة، وراحت ترى الأسياد من على برج عالي كما هُم يرون بني جلدتنا.

قبل أن يسافر حبيب إلى القرية بالسيارة، أشترى تلفزيون للمنزل فأدخل بهجة أخرى علينا. كنت حينها حامل في الشهر السابع، ولدت بابنتي الثانية وهو في القرية، وقمن نساء الجيران بمساعدتي أثناء

غيابه. فكرت أنه هجرني وعاودني الخوف والكوابيس الثقيلة تجثم عليّ ليلاً ونهاراً!

ذوَت زهر الغرام الجديدة وبرزت القديمة، تخيّلتها تحمل أطفالي لأعود بهم إلى قريتي، أو أسعى للعيش في "المَحْوى"[١٨] حيث يأوي البؤساء من بني جلدتنا المنبوذين في طرف المدينة على حافة الحياة. سيرحمونني المحسنون لأجل أطفالي، ويمكن أن أعطي إحدى بناتي لامرأة تشحت بها وتعطيني مما تكسبه، وإن وجدتُ زوجاً سأتزوجه كعادات بني جلدتنا. نعم، سأتعب كثيراً وسيأخذ زوجي كل ما أحصل عليه من التسوّل! لكن هذا أهوّن من العودة إلى كوخ أبي في القرية. هكذا كانت زهر الغرام القديمة تفكر وتضع خُططاً بديلة لحياتي!

طال غيابه في القرية، فكنت أخرج مع ابني لأشتري ما أحتاجه من السوق، أرى نفسي أمد يد المذلة برفقته، وما أحزنني أكثر هو المؤجر حين جاء يسأل عن الإيجار، أخبرته من خلف الباب دون أن أفتح، أن حبيب سوف يدفع له حين يعود. بقى جمر الشك يتقد في قلبي، أحياناً أفكر أنه تزوج بأخرى في المدينة! فلازلتُ أتذكر أعجابه بالمرأة التي راءها في الساحل، وكما هو متزوج بي سراً يمكن أن يكرر مع امرأة ثالثة. لِمَ لا ولبعض الرجل طباع التيوس.

[١٨] مكان خاص بسكن المهمشين

عاد بعد شهرين من القرية، وقت أن طرق الباب أحسست بتلك الطرقات تطرق قلبي، فقفزت الفرحة قبلي لتفتح الباب ثم أسرعتُ إلى الغرفة. لم أرحّب به كما كانت فرحتي سابقاً تنساق إلى حضنه وتقبّله. لِست أدري! هل عتابي بدأ عليه شديداً؟ أم اعتزازي بنفسي بدأ يكبر؟! وبتُّ أحس أنه ليس هناك فرقاً بيني وبين نسائهم، تفوّقت على الكثير منهن بالقراءة وأصبحت مثقفة. نعم، إن العلم نور ومجتمعي يعيش في ظلام دامس أعتاد عليه، يرى أنه يعيش دون قيود اجتماعية أو دينية، يراه قدراً يحيط بنا، وكما أن هناك سادة لابد أن يكون هناك عبيد. أنا الآن لست زهر الغرام المهمشة أنا زهر الغرام الأخرى، لا أقبل أيتها مهانة، وليَ الحق أن أعاتب زوجي على أيتها غلطته يفعلها ضدي. لماذا يتركني فريسة لأوهام والخوف؟! لابد أن يعتذر لي.

تبعني إلى الغرفة، أحسست أنه شعر بغلطته؛ بيد أن كبرياؤه لم يسمح لسيّد مثله أن يعتذر لامرأة مثلي. وقف في الغرفة صامتاً، حينها انفجر غيظي بكاءً مرير، ثم التفتُ إليه وعينايّ تفيض عتاباً يسيل على خدي. عاتبته كامرأة مثقفة لأظهر له أنني لست زهر الغرام القديمة، التي لا يحق لها أن تعاتب أحداً منهم. قلتُ له:

- عشتُ في مجتمع افقدتمونا فيه التفكير السوي؛ فلم نحسُّ بالقهر. نرى أن حياتنا المزرية تلك نصيبنا في الحياة. لا ترونا بشراً مثلكم، عززتم هذا الإحساس فينا وجرعتمونا إيّاه ونحن أدمنّا

عليه. لماذا لا تعاملوننا كما أوصاكم دينكم؟! لماذا لم تخرجونا من قوقعتنا؟! ولو بالعلاج كمجنون يهدر نفسه أو يدمر نفسه. لماذا لم تفعلوا كما فعل إخوانكم معنا في جنوب الوطن؟! الذين ترونهم لا يعملون بشريعة الدين وتدّعون أنتم أنكم حماتها، وتكفرونهم...

لست أدري من أين وكيف أتتني تلك الكلمات! حتى أنني لم أحس بالدموع التي كانت تسيل على خدي. مسحتها ونظرتُ إليه ودهشته تنظر إليّ ببلاهة مُعجب!! شعرتُ بالسعادة والزهو معاً حين اعتذر لي. برزت فيّ زهر الغرام القديمة، وراحت ترقص أمامي وتصفّق، تقول بحماس وهي تشد قبضتها: " كيف جعلتي سيّداً يعتذر لخادم؟! إنه لنصر لنا. هذا لم يحدث من قبل. انتقمي حتى ولو من زوجك. اعطيهم درساً في الواجب. ثم راحت تطلق زغردة، وإذ بي أرفع كفي أمام فمي لأخرص صوتي...!"

سردتُ كلاماً غير متوقع أن يسمعه حبيب من امرأة مثلي، أتت من مجتمع أمّي. أحسستُ أنني أنتقم لمجتمع يعاني من ذل الأسياد، بأن جعلتُ أحدهم يعتذر لنا، فلم أسمع يوماً أن سيداً أعتذر لأحدنا! وفي نفس الوقت لم أكن أشعر أنني أهين حبيب. أخفيت سعادتي وتابع هو يسعى لرضاي.

بعد أن تصالح الحب فيما بينهما ألقى نصر بنفسه في حضن أبيه، وأخبره ألا يتركنا نهباً للظنون والخوف مرة أخرى. ثم سمع بكاء ابنتي المولودة؛ فأسرع إليها لكن فرحته بدتْ زائفة، حين شاهدها سوداء وسمّاها فيما بعد "حُسن". جلس يحكي لي عن سبب تأخره في القرية...لم أقتنع بحججه لكنني أظهرت أنني مقتنعة، فما عسى أن أفعل. أحدث نفسي: "هل خفتَ حُبه؟! لي ويفضّل عني ابنة عمه. يا للفاجعة! تلك كارثة لي". حاولت أن أثير شبقه نحوي، أتشبث به كنحلة تمتص رحيق الزهرة؛ لتحوله شهداً، وها أنا أحول رحيقه إلى نسمات تمشي على رجليها.

كما تغيّرتُ أنا تغيّر هو أيضاً، ازدادت ثقته بي وأصبح يسمح لي بالخروج حين أشاء. تصادقت مع نساء الجيران، ولم يغضب حين شاهدني أتحدث مع رجل في الشارع.

الفصل الخامس

بلغ ابني الخامسة من العمر والتحق بالمدرسة، وقد بدأ يقرأ ويكتب الحروف الأبجدية، أخرج بصحبته حين أشاء. اصطحبته ذات يوم عصراً إلى حي بني جلدتنا المنبوذين في المَحوى على حافة المدينة، حيث لا يجاورهم أحد من الأسياد. استقبلني البؤس يمشي على قدمية، كانوا عدة أطفال سُمر شبه عُراة حفاة، يضحكون للدنيا التي نبذتهم في العراء. أجسادهم وسخة كملابسهم، يمدون أيدهم وذلة الاستجداء تنضح من عيونهم. أعطيتهم ما عندي من مال، فهرع آخرون وحلّقوا حولي ولم يبق معي ما أعطيهم.

شاهدتُ زهرة سمراء في العشرين من العمر كانت ترقب المشهد عن بعد، ثم أتت وهي تحمل طفلاً. زجرت البؤساء ليبتعدوا من حولي، ثم نظرتْ إليّ مستغربة! وقالت وهي ترحّب بي: "أمعيال[١٩] حقنا ما يعرفوا أمضيوف. جئت تشوفي[٢٠] حالنا؟. تعالي معي، تعالي". قادني شوق المعرفة لأتبعها، سمعتُ صخب أغاني تتداخل فيما بينها، كأن هناك تنافس على الضجيج في الحي، أو احتفال وهُم في وضع مزرٍ! مررت

[١٩] أم، توضع بدلاً عن ال في مقدمة الأسماء في اللهجة التهامية
[٢٠] ترين

بين الأكواخ التي تشكو بؤساً لا حدّ له. كنت أمشي وأنا أخشى أن تزل قدمي في مياه قذرة، تمر في قنوات ضيقة أمام أكواخهم من الصفيح أو الطوب، أغلبها دون أبواب. شاهدتُ داخل تلك الأكواخ الواهية أجهزة تلفزيون إلى جانبه راديو أو مُسجّلة. لم أشاهد أطفالاً كثر أو نساءً، بل بعض العجزة رغم كثرة أكواخ الحي! كان هناك رجال يمضغون القات في أكواخهم، وبعضهم يشاهدون مسلسلات تلفزيونية.

اقتادتني تلك الزهرة السمراء إلى كوخ لم يمضغه الزمن مقارنة بالآخرين، مبني من ألوح خشبية وصفيح ومعلبات فارغة دون نافذة، تسد بابه ستارة رثة. دخلتُ الكوخ منحنية، وجدته يتسع لأربعة أفراد فيه: جهاز تلفزيون، مسجلة، فرش وضيع، قنديل، إناء فيه ماء. هو هكذا كوخ ومطبخ، لكنها كانت مسرورة بأن لها بيت، حيث حدثتني بسرور: "أنا اسمي زهرة، هذا أمبيت حقنا بناه زوجي هذي أمسنة، ننام داخله متى ما نريد (ثم ضحكت). كنا قبل نسكن في أمعُشة حقي والدي مع أخوتي. ما كنا نجد راحتنا، نختلي في أمليل أحياناً بجوار أمعُشة (ثم ضحكت) وأحياناً نستلف عُشة جارتي سعادة وأنام فيها مع زوجي ساعة، ولمّا حدثت مُشكلة بين زوجها وزوجي قررنا نعمر بيتنا. زوجها شكّ أن زوجته سعادة تحت زوجي وخبطه على أمظهر بامعصا".

سألتها وهي تضحك بمجون، كيف تطبخ؟! قالت إنهم لا يطبخون فهم يستجدون طعامهم من بيوت الأسياد والسوق، ومساكنهم هذه للنوم

فقط. زوجها يعمل أحياناً حمالاً في الميناء، بعد ما زاد طلب العمل فيها أثناء تولي الرئيس إبراهيم الحمدي رئاسة اليمن، لكن زوجها يبذّر بالمال على القات كغيره من الناس. سألتها: "لماذا لا يذهب أطفال حيّكم إلى المدرسة وهي قريبة منهم؟!. ردت ببسمة ساخرة: "الأمهات طيلة النهار في أمسوق يُطَلِّبن الُلقمة، والطالب يريد عناية، طعام، نظافة، مصاريف مدرسة ومكان يُذاكر دروسه وهدوء، وكل هذا ما فيش عندنا حتى ابن شيخنا أنتر[٢١] درس إلى صف سادس ابتدائي وهرب من أمدرسة، الطلاب آذوه. نحن نأخذ أولادنا معنا يشحتوا أحسن". سألتها عن الحمّام! أشارت بيدها وقالت: "في زولي[٢٢] طرف أمْحي[٢٣]، الذي ما معه حمام يروح هناك". ثم قالت لي أنها ظنت أنني من الأخدام لكن بعد أن تنسمتْ عطري وشاهدت نظافتي وكذلك ابني، عرفت أنني من القبائل.

سمعتُ تلفزيوناً صوته مرتفع في كوخ مجاور. أحسّت زهرة بانزعاجي فضحكت وقالت: "هذا صوت أمتلفزيون حق جارنا مُسامر، كل يوم يشاهد فلم أنتر بن شداد. له سنة على هذا أمحال، وفي أمليل يتجمع أمحي أمام حقه أمعُشّه يشوفوا[٢٤] أمفلم. نحن ما معنا غير أنتر نفتخر به. آه، لو يخلق ربي مثله يخرجنا من أمفقر!

---

[٢١] عنتر
[٢٢] حمام
[٢٣] الحي
[٢٤] يشاهدون

أثناء خروجي من حي البؤس شاهدتُ علامات مطمورة لقبور عدة بجانب الحي، وفي طريق العودة أخبرني نصر بما شاهده في الحي أثناء جلوسي مع زهرة. قال: "رأيت امرأة في أحد الأكوخ تتبرز في صحن! ورأيت رجلاً أبيضاً يقف داخل الكوخ يرتدي ملابسه أمام امرأة مليحة! ورجلاً مصاباً بجرح كبير في قدمه. سألني: "لماذا لا يذهب إلى المستشفى؟ لماذا هؤلاء الناس فقراء جداً، يا أمي؟!..."

كانت زيارتي لحي بني جلدتنا في مدينة الحديدة فاصلة أخرى من حياتي. وكانت فيّ زهر الغرام الأخرى غاضبة مما يجري لبني جلدتنا أمام أنظار العالم المتخم بالمال!

بنى حبيب غرفة أخرى في فناء المنزل على نفقة المالك، وصادقتُ نساءً من الحي، بعضهن كُن يحضرن لزيارتي صباحاً وابني في المدرسة. فرحتي بصداقتي نساءهم جعلتني أقبل بأي سلوك، وأراه أمراً عادياً. إحداهن اسمها "نصيرة" ذات أنف شهواني حين أستقبلها تقبّلني في الخد أكثر من اللازم، أحياناً تحت الأذن وتداعبني بغزلٍ! وكن الأخريات يضحكن بمكر. لم أعرف سر هذا السلوك إلا فيما بعد. قالت إحداهن لي: "هذه طريقة سلامها". ذات يوم أتت نصيرة بمفردها وراحت تمرر كفّ هواها على خدودي، وصوتها مثير فأثارتني إثارةً ما لم أشعر به مع زوجي! يا للعجب كف حدث لي هذا! ذلك السلوك لا أعرفه، ولم

أسمع عنه في قريتنا. أوقعتني في الفخ، جعلتني أستسلم لها كما أستسلم لحبيب.

كان شبقي يبقي مشتعلاً بعد خروجها من منزلي إلى أن يصل حبيب، وأقوده ليطفئه، كما كنت أرى أمي تفعل مع أبي. كانت شيطانة الإغراء! كأنها مقوي جنسي بالنسبة لي، تلك الأقراص التي اشتريها مراراً بعد زواجي الثاني من بشير. أعادت لي نصيرة الشبق الذي كنت قد أفتقده، ورحتُ أجذب زوجي نحوي للالتصاق بي، مُدعيّة في نفسي أنني أنسيه فاطمة أيضاً، التي فعلت ما لم تفعله امرأة حين عرفت أنني ضُرّتها!

بدأ حبيب يعدّ نفسه ليكون مقاولاً، بعد ازدهار حركة البناء والتجارة في طول البلاد وعرضها. كان يعود من العمل في منتصف الليل، ولم يعد يهتم كثيراً في شؤن المنزل، واصبحتُ أنا المسؤولة عن الأبناء داخل البيت وخارجه. ذات يوم عاد نصر من المدرسة على غير العادة باكٍ ومثقلا بالقهر! قال لي أن هناك طالباً تحرّش به في حمام المدرسة! ندمت أنني لم أخذ بتحذير حبيب حين حدثني عن اللواط في المدينة، هذا الذي لم أسمع عنه في قريتنا، وأخبرني أنه يعرف صديقاً له اسمه "راوَح" يعيش معه وَرع[٢٥] في منزله بجانب زوجته، وهي تعرف ما يدور بينهما. حين ارادت أن تطرد ذلك الوَرْع من بيتها رفض راوح، مُدّعياً أنه

[٢٥] ولد وسيم مخنث

يقوم بمراجعة حسابات العمال معه ليلاً. عرفت الشرطة بميل راوح للغلمان، وقبل أن يلقوا القبض عليه انتقل إلى حي آخر.

ذهبتُ اليوم التالي اشتكي لإدارة المدرسة، وبرزت فيّ زهر الغرام القديمة غاضبة وأردتُ أن تبرهن صحة دعوتها أمام المدير والمدرسين... فبكى ولدي ورفض. أهديت باقة شكر للمدير حين فصلَ الطالب من المدرسة، لكن نصر أخبرني بعد ذلك أنه لايزال يطارده في الطريق. راقبته وقبضتُ عليه وضربته وشتمته بأقذع السباب!...مما أخجلني ذلك فيما بعد حين شاهدتُ الدهشة في وجوه المشاهدين مما قلته. حينها حدثتُ فيّ زهر الغرام القديمة وقلت لها:" متى ستفارقينني للأبد؟!"

لم يكن حبيب طموحاً ليبني بيتاً في المدينة، فكلما كسب مالاً اشترى حقولاً في القرية، التي صارت فيما بعد كغيرها من الحقول تشكو الإهمال، بعد انتقل أهالي القُرى للعيش في المدن. لم يدّخر للظروف الطارئة، واضطر أن يقترض مالاً من صديقه راوح حين ولدتُ بابنتي الثالثة "رحمة" في المستشفى. فرحَ برحمة لشبهها فيه، فكان يُدللها كثيراً كما يُدلل نصر وقد أصبح في الصف السادس الابتدائي، غالباً يأتي من الأوائل في المدرسة، أما البنات لم يسمح لهن بالذهاب إلى المدرسة، يرى ذلك عيباً. أصبح لديه أيضاً ولدان وبنتان من زوجته الأولى فاطمة. اكتفى بأربعة أولاد يفخر بهم، فقرر التوقف عن النسل وكان قراره سليماً.

تعلّمتُ من نسائهم سلوكاً ليس في مجتمعنا! منه الجيد ومنه السيء، وهو ميل المُرأة لمِثيلتها، بعد أن أوقعتني نصيرة في شباكها، وباتت حولي كالعنكبوت تقيدني بهواها. نادتني يوماً وهي في الحمام أن أدخل لأدعك ظهرها بالصابون وأدلّكها، وتكرر ذلك الفعل عدة مرات، وكانت فيّ زهر الغرام القديمة تشجعني على ذلك! وأظنني أطعت هواها بجانب إغراء نصيرة.

حضر حبيب يوماً بعد الظهيرة على غير العادة ونحن في الحمام معاً. سألتُ نفسي بذهول: "هل لازال يراقبني؟!" خفنا الاثنتان معاً، وكُلٌّ منا تفكّر فيما تحدث به نفسها. لبستُ على عجلة من أمري وذهبت لفتح الباب وأنا مرتبكة. أراد دخول الحمام فسبقته جرياً إلى بابه. عجز لساني عن الحركة! كأني خرساء. وقفتُ أمامه وأشرتُ له أن هناك أحد داخل الحمام. وقف شكّه منتصباً كالشيطان ينظر نحو باب الحمام، ثم فككت عروة الخوف حول لساني وقلت بهدوء: "صديقتي في الحماااام تغتسل" لكنه لم يصدقني وهو ينظر إلى قطرات الماء على صدري وشعري، وزاده ارتباكي شكاً! قال والغضب يقدح من عينيه: "سأتأكد بنفسي!" فتح الباب وأنا أنادي نصيرة لكي تخرج لكنها لم ترد. طرقتُ باب الحمام بقوة أنادي: "هيّا اخرجي!..." أحضر حبيب الدين عصا غليظة وأخذ غضبه يركل الباب بقوة حتى كسره. شاهدها في الحمام والخوف يكوّرها في

الزاوية! رأيتها نعامةً ترتجف، تغطي وجهها بكفيها! خرجتْ من الحمام تجري نحو باب المنزل دون حذاء.

تلك الليلة جلستُ معه تحت السقيفة، وعاتبته في نفسي على عدم تصديقي. برزت فيّ زهر الغرام القديمة تحدثني:" أترين لن يثق بك! فاصلك لن يُمحى من ذاكرته" راح يحدثني عن المثليات من النساء. قال: "كما يوجد لواط في المدينة، يوجد أيضا السحاق وأنت تعرفين ما جزاؤه في القرآن في سورة النساء". عجز لساني على النطق بكلمة، أحدث نفسي: "هل سيغفر لي أم لا؟!"

أتت نصيرة مرة أخرى، كاد غضبي أن يصفعها ورميت بحذائها نحوها التي تركتها في منزلنا. وقفت معتذرة تقول: "والله يا زهر الغرام أن الخوف أصابني بالشلل! لم أقدر حتى أن أفتح فمي، ظننت أن أبي عرف سلوكي وأتي مع زوجك". حاولت أن تغريني بهداياها لكن سحرها انجلى عني.

لم يعد حبيب يعود من العمل في أوقاته التي أعتاد عليها إلى المنزل، فننام قبل مجيئه. وفي إحدى الأيام تأخر ولم يعد إلا اليوم الثاني مساءً. كنت قلقة من غيابه المفاجئ، وسارت بي الظنون: "هل غرق في البحر؟ هل أصيب في العمل؟! هل ذهب مع صديقه راوح يمضغون القات ليلاً في بيته وأغراه بصاحبة الوَرْع[٢٦] ليجرّه معه إلى الدَّنس ونام

[٢٦] ولد وسيم

هناك، وذهب صباحاً إلى عمله! يا للعقاب الرباني! هذا عقاباً لي بمسايرة نصيرة برغباتها الشاذة". صدّقتُ ظنوني وبرزت فيّ زهر الغرام القديمة تهز ردفيها، تضحك وتقول لي: "لقد شبع منك، الآن هو في حضن امرأة أخرى. كنتِ سوى نزوة في حياته وصحا منها". حقًّا ابكتني هذه المرة فذرفت دموعاً حارة.

حضر اليوم التالي مساءً يبدو منهكاً وقد اختلط عندي الشك به والخوف عليه. فرحتُ برهة لقدومه. جلس على السرير كالح الوجه. سألته زهر الغرام القديمة بمكر الأنثى:

- هل كنت عند صاحبك راوح؟!

نظرت دهشته إليّ! مما زادت شكوكي فيه أنه أمسى عنده. ورد قائلاً:

- ما أدراك؟!

ضحكت معه بسخرية

- كيف وجدت الوِرْع؟

فرماني بنظرة خاطفة وقال:

- ماذا تقصدين؟!

- الوِرْع أفضل مني؟

صفعني فجأة بقوة وألقى بي على الأرض، وقال لي:

- أعوذ بالله! كيف تفكرين بهذا الأمر؟! هل طلبت يوماً منك ذلك؟

قمت بسرعة من الأرض مرتبكة، ألعن نفسي كيف سمحت لزهر الغرام القديمة أن تسيطر عليّ، وذهبتُ أعتذر له. رغم ألم الصفعة إلا أنني أحببته، وحقًّا كنت أريد أن أسعده باي طريقه حتى لا يفكر بفاطمة. كان غضبه شديداً عليّ. بقي فترة يجافني وحرّك الجفاء مشاعري وأخذتُ أخط مشاعري في صفحة قلبي، حتى حفظتها وقدمتُ اعتذاري بشكل مذهل، تلك الأغنية أدهشتُ بها الجمهور فيما بعد وأنا أغنيها على خشبة المسرح في تعز، حتى الوزير في تلك الليلة اتصل بي يُعبّر عن إعجابه بي...

لو كان عندي غلطْ با هجّركْ وا حبيبْ
وا عطيكْ قلبي هجرْ عسى فؤادكْ يطيبْ
واعزفْ بقُربِ الفوأدْ أوتارَ قلبي اللهيبْ
وا دُقْ باب الهوى حتى فؤادكْ يجيبْ

....

احتضنني الحب بقوة ودار بي في الجو ليطير بي في سمائه، ثم جلس يحدثني عمّا جرى له اليوم الماضي. ضحك من قصة أُتِّهم فيها من قِبَل الشرطة هو وصديقه رواح باللواط، قُبض عليهما في موقع العمل والورْع يعمل معهم، وقادتهم الشرطة إلى القسم، وناموا في السجن

ليلـة، ولعـدم وجـود دليـل غيـر الوشـاية أفرجـوا عنـه وعـن صـديقه راوح، واستبقوا الورْع معهم! خرج راوح يكيل السباب لهم، وقرر أن يهجر الوِرْع بسبب الغيرة عليه!

لـم يعـد يخشـى حبيـب علـى سـلوكي، وتـرك لـي حريـة التنقـل فـي المدينة، كما يتنقل هو بين المدينة والقرية خلال مواسم الزراعة والأعياد. أما أنا كنت أخشى من بقائه في القرية، أفكر: "ترى لو أكتشف أهله أمر زواجنـا، هـل سـيجبرونه علـى الطـلاق بعـد أن أنجبـت لـه ولـدا وثـلاث بنات؟!" ظننته يسعى ليضعهم تحت الأمر الواقع، لكنه لم يجرؤ وقد قال لـي ذات مرة مثل هذا الخبر. خـلال غيابـه تعلّم أولادي السباحة، كنـت أقف على الشاطئ وخوفي يراقبهم ويناديهم ليعودوا؛ إذا توغلوا فـي البحـر كثيراً.

ذات يـوم شـاهد نصـر رجـلاً متـوغلاً فـي البحـر واتجـه نحـوه، انـدفع خـوفي بجنـون يهفـت: "ارجـع يـا نصـر...!" لـم أعـد أرى منـه غيـر بقعـة سـوداء صـغيرة فـي البحـر، وخـرجن بنـاتي مـن البحـر ينظـرن بخيفـة إلـى أخيهن. لـم يسـتطع نصـر أن يصـل إلـى هدفـه فحـاول العـودة، وصـدري يحس بضيق انفاسه وهي تكابد العودة. شاهد ذلك الرجل موقفنا ونحن نشير لنصر، فرجع إليه يساعده وعادا معاً يسبحان ببطء إلى أن وصـلا الساحل. أمتزج خوفي وفرحـي بنجاتـه، وأخذت لهفتـي تطوقـه وتقبّلـه، ثـم اتجه اعجابي نحو الرجل ليشكره وهو يقف أمامي بطوله الفارع، أبيض،

مفتول العضلات، صدره كثيف الشعر، قال إنه دكتور روسي يعمل في المستشفى الجمهوري. برزت فيّ زهر الغرام القديمة وبقيت تنظر إلى عضلاته ومؤخرته وهو يبتعد عنّا، ثم أخذ عتابي يلوم أبني على مغامرته.

أثناء عودتنا إلى البيت قلت لولدي مراراً: "لولا ذلك الرجل الروسي لكنت غرقت أمامي..."، حتى أن ذلك الرجل علق ذكره في لساني، وارتسمت هيئته في ذهني وطيفه يزورني حتى في فراشي.. لعنت الشيطان الذي يود أن يغويني، وينال من إخلاصي لحبيب حتى ولو في الأحلام، أحياناً العنه بصوت مرتفع لأخرس وسوسته، لكن إبليس لا يمل من عُمله ومخلص له.

بعد شهر ذهبنا مرة أخرى الساحل. نزل نصر يسبح بعد أن وعدني بأنه لن يتوغل في البحر كثيراً وسيبقى يسبح بجوار شقيقاته. جلستُ على صخرة في الساحل اراقبهم، حينذاك برزت فيّ زهر الغرام القديمة تشاهد البقعة في البحر التي كان ولدي يصارع الموت فيها، تتخيّل الرجل الذي أنقذ ولدي يقبلُ نحوها بعضلاته واستقبلته! ثم حملها بيديه القويتين واستسلمتْ له، ثم عاد بها إلى البحر وغرقا معاً وفعل معها ما كانت تحب أن يفعله حبيب معها ذات يوم تحت الماء. توقفتُ عن التنفس إلى أن شعرت بارتخاء جسدي والبلل في سروالي. استنشقت الهواء كأنني غرقت فعلاً. لعنت زهر الغرام القديمة، لست أدري من ألعن

هي أم الشيطان الذي تصوّر بها! ووجد باباً ينفذ منه إلى جسدي. نزلت البحر أغتسل بثيابي، ففرح أولادي أنني نزلت أسبح معهم، ورحنا نتسابق في السباحة أنا وبناتي.

وجدت أن الحُب لا يخلو من أيتها شوائب، كما حياة المرء لا تخلو من تعاسة ما، كتلك التعاسة التي بدأت تتسلل إلى حياتي بشكل لم أتوقعه؛ حيث بدأت ألاحظ حبيب الدين متعباً ويشكو من صعوبة التبول. يقوم في الليل عدة مرات، وعند العودة من عمله أراه منهكاً! ولم يعد ينام بجانبي في الفراش كسابق عهده! ولو أشرت له برغبتي كما كنت أفعل. شككت في البداية أن لديه عشيقه أو زوجة أخرى أصغر مني سنّاً وأنه يدّعي التعب. نصحته بالذهاب إلى المستشفى وذهبتُ معه لكي أزيل شكوكي، وبعد الفحص تبين إصابته بمرض الكلى المزمن. أخبرني الطبيب أنه سيشفى وستعود له صحته، لكنه لم يقل الحقيقة. تناول حبيب الدين العلاج إلا أن حالته كانت تسوء أكثر. نصحه البعض بتناول بول الإبل وحليبها وأخذ يتجرعه بصعوبة، وهناك من نصحه بميسم في وسطة رأسه، والسكارى نصحوه بشرب البيرة، لكنه كان قد حرّم شربها بعد أن سكرتُ بها أنا ذات يوم.

ذات يوم أغميّ عليه! فاندفع خوفي نحوه يطوّقه، وخفّفت المصيبة على أولادي وأنا أحمله معهم إلى السيارة. قدتها رويداً، كنتُ أشاهد أثناء السواقة بعض المشاة تشير إليّ بأصابع التعجب، البعض يضحك

والبعض الآخر يسخر! توقفنا عند إشارة المرور وسمعت رجل يقول: "هذي المرأة ما تستحي، تسوق سيارة "شاقي[٢٧]"! وصلتُ المستشفى الجمهوري، فحصه الطبيب وأمر ادخاله وحدة العناية المركّزة فلم نجد سريراً فيها خالياً، فأدخله قسم الباطنية.

في اليوم الثالث رأيت الطبيب الروسي هناك، لم أتحدث معه حتى لا يغويني الشيطان. خلال بقائه في المستشفى كنت أقوم فجراً لأوصل له الأكل الذي أوصى بهِ الطبيب، وأقود السيارة إلى الشاطئ لأتقن السواقة. خلال فترة أسبوع لم أشاهد في المدينة غير امرأة واحدة تقود سيارة فوكس واجن! لم يسألني المرور عن رخصة القيادة، كان أحدهم يبتسم وهو ويشير لي بالمرور. شعرت أنه مسرور بامرأة تقود سيارة لاندروفر موديل ١٩٦٣م لا يقودها إلا الرجال.

خرج حبيب من المستشفى ومكث في البيت يستخدم الأدوية، لكنه لم يستفد، بل اشتد مرضه. لم يكن لديه أصدقاء غير راوح، فاشتاق إلى مسقط رأسه. صار الخوف جلبابي والحزن دموعي! لم أخبره بخوفي من القرية بل أخبرته بمصير أطفالي، كيف سيكمل ولدي نصر دراسته! فأخبرني بأن هناك في القرية مدرسة للمرحلة الثانوية أيضاً، والموت يمضغه رويداً، رويداً.

[٢٧] عامل

زاره صديقه المقاول راوح مراراً أثناء مرضه بصحبة شاب وسيم، أعور. يمشى خلفه ككبش يعجزُ عن حمل آلِيتَهُ (طُرفتهُ)، وفي أخر مرة زارنا وحيداً والحزن بادٍ عليه. جلس يتحدث مع حبيب، وبعد أن غادر البيت قلتُ لحبيب: "صديقك هذا يحبك، كانت دموعه تترجرج في عينيه!" فضحك، وهذه أول مرة يضحك منذ اصابته بالمرض، حتى أن دموعه سالت على خديه مما أسعدني سروره وكذلك أولادي، ثم قال: "اضحكتني رغم حزني وألمي، لم يكن راوح يبكي عليّ"، وهمس في أذني: " يبكي على حقُّه الوِرْع! مات قبل يومين، إثر حادث سيارة من دون رقم".

قبل عودتنا إلى القرية، تلك العودة لم تخطر لي يوماً، ذهبتُ إلى الطبيب، أخبرني بكل أسف أن حبيب الدين مصاب بفشل كلوي وبحاجة إلى زرع كُلى! ورحت أشكو له اهماله تناول علاجه بانتظام منذ معاناته بحرقة البول قبل عدة سنوات؛ لعدم ثقته في دواء الأطباء، ولم يدخر مالاً للهفته على شراء الحقول في القرية.

الجزء الثاني

الشرنقة

خرجتُ من الشرنقة فأثقلتْ أجنحتي العادات الصلبة

الفصل الأول

أزهرت السعادة أطفالي ونحن نستعد للسفر، أمّا أنا طغت التعاسة عليّ! أرى الأشباح تتلقفنا وقبر زوجي فاتحاً فمه. تحركنا بالسيارة فجراً يقودها حبيب إلى أن أوصلنا مدينة تعز منطقة الحوبان. بدأ هناك يشعر بالتعب؛ فحلّيتُ محلّه أسوق السيارة اقودها رويداً لم ألتفت تجاه الساخرين والذين كانوا يضحكون وهم يشيرون نحو! إلى أن وصلنا أسفل جبل الزُربي[٢٨] المنيف، قال حبيب بصوت واهٍ: "لن تستطيعي يا زهرتي أن تقودي في الطريق الصعود الوعر! قلت له: "دعني أجرّب".

لم أظهر خوفي ودعوتُ الله أن يساعدني. أخبرني أن أصعد بالسيارة على مَهلٍ بالجير الأول. كنت أنظر الطريق أمامي فأراها أمامي ضيقة ولا أنظر نحو المنحدرات السحيقة! أدعو الله في نفسي...ليساعدني، وأنا أصعد بالسيارة كأنني أصّعّد نحو السماء، وزوجي يرشدني بالمنحنيات الخطرة بتوتر، كان يبدو ذلك على وجهه، أظنه كان خائفا أكثر مني، لكنني لم أتعثر رغم أنّي لم أتمرن عليها.

[٢٨] جبل في الأعروق

في منتصف الجبل وأنا أردد خفية: "يا الله..." واجهتنا سيارة في الاتجاه المعاكس. نفخت في الهواء ضجراً، وسمعت ضحك السائق وكذلك الركاب، وهم يحدقون بدهشة بلهاء فيّ! فغر البعض فمهُ! خِلتُ الذباب سيدخل أفواههم، غير مصدقين أن امرأة تقود سيارة، والرجل المُخنث بجانبها يسمح لها ولا يشعر بالخزي! هكذا سمعت أحدهم يقول. وقفتُ حتى تجاوزونا، ثم اندفعتُ أصعد الجبل ببطء وأنا مستمرة بالدعاء. وصلتُ قمة الجبل قرب منطقة "حيفان" حمدت الله وتوقفنا ساعة هناك؛ لتنخفض حرارة السيارة وقد كانت مرتفعة. ازددت جرأة وفخراً وأنا أنظر إلى الطريق التي اجتزتها. أضحكني حبيب حين همس لي: "أظن أنني سأعاني من البواسير. كنت أتوتر بشدة وأنت تصعدين الجبل!

بدأت بالانحدار رويداً في "جبال الأعروق"، نزلت ببطء حتى صار الأمر عادياً بالنسبة لي. برزت فيّ زهر الغرام القديمة وأدارتْ المُسجلة وسمعنا أغنية أبو بكر سالم "يا مسافر" وأولادنا يصفّقون طرباً. وصلنا "وادي شوكة" ثم مررنا أمام بئر الأعبوس في ضفة الوادي كن النساء حولها يغرفن الماء، وضعن كفوفهن على رؤوسهن، واه واه واه! مكلف تسوق..." وصلنا سوق الصافح وسقت رويداً أمام الباعة والمتسوقين يحدّقون نحوي ببلاهة(نساء آخر الزمان!. قربت الساعة). وودت أن أصيح: "ها هي زهر الغرام، ابنة الخادم مَقْرَع تقود سيارة، وأنظف من

نسائكم واقرأ وأكتب". أسرعت بالسيارة أمامهم في الوادي ثم انعطفت عند منعطف رملي خطر فكادت أن تنقلب! رحت العن فيّ زهر الغرام القديمة، كانت ستقتلنا بفشرته[٢٩]! تصببتُ عرقاً ولم أعد أدري هل البلل الذي تحتي عرق أم بول! وبخار الخوف يتصاعد من جسدي. أردت أن أدفعها للأمام فغاص الإطار الخلفي في الرمل أكثر. نزلنا نضع أحجاراً مسطحة صغيرة تحت الإطارات وكان حبيب يضحك من غروري رغم معاناته. أخيراً انتشلتها من بين الرمال وقدتُها ببطء في الوادي. سمعني حبيب وأنا أقول بصوت خافت:" الله يلعنك، كنت ستقتلوننا!" سألني حبيب: "مَن تلعنين؟!" فقلت: "العن الشيطان". كبحت غرور زهر الغرام القديمة، لكنني كنت استفيد من ظهورها أحياناً.

وصلنا قرية (الدُقم) عصراً وعيون الدهشة تشاهد امرأة وهي تقود سيارة حبيب الدين سالم! هرع بعض الأولاد عبر الحقول، وآخرون يقفزون من حقل إلى حقل وتجمع العديد من أهل القرية تحت دار حبيب الدين حيث توقفنا، وهم يتساءلون: "مَن تلك المرأة؟!..." أحاطتنا عيون الفضول مستنكرة!: "امرأة تقود سيارة! تتشبه بالرجال، صدقت يا رسول الله..." أمّا هو كان في صمت محزن وهم يرحبون به. قلت لهم: "حبيب الدين مريض لن يحدثكم، ساعدوه على صعود الطريق إلى الدار". حمل البعض الحقائب والهدايا وهم يتهامسون فيما بينهم، وعيونهم ترشقني

[٢٩] غرورها

بالأسئلة، "من أنتِ؟"؛ حيث تغيبت عنهم خمسة عشرة سنة. أوصلوه إلى باب دارهم واستلقى على ظهره. عندئذ أزداد وجيب قلبي والخوف يكاد يقفز من صدري، لينجو بنفسه من أهله، أترقب متى ستبدأ بيننا الحرب العِرقية!

بدأت الشرارة الأولى بطرْقِ الباب مِن قِبل ولدي نصر، كأنها تدق طبول الحرب. سمعتُ صوت زوجته فاطمة فازداد وجيب قلبي أكثر! تخيّلت أطفالي يفرون من أمامها، لكن ذاك الخيال زادني عزماً وثباتاً كنمرة مستعدة للدفاع عن صغارها، واستدعيت فيّ زهر الغرام القديمة التي لا تستحي ولا تخاف لتقف معي.

فتحت فاطمة الباب ولاحظت حبيب ممتداً على ظهره بجوار الباب، اخبرها البعض أنه مريض. رأيت الخوف في عينها وهي تنادي والدته: "واا عمّه!..." ثم ألتفتْ نحوي وأخذت تنظر إليّ بتعجب! ثم سألتني: "مَوْ[٣٠] جاء بك يا زهر الغرام مع أطفالك؟! انطلقت القذيفة الأولى من فم حبيب حين قال بصوت منهك: "أدخلي يا زهر الغرام أنت وأطفالي". التفتت عيون الدهشة نحوي وقد اتسعت أكثر من اللازم! ووضع البعض كفه على فمه ليخرسوا صوت الدهشة، أمّا فاطمة وضعت كفّيها على جانبي رأسها، ثم صاح جنونها: "مَو تقول، أطفالك؟! الخادمة مرتك[٣١]" ثم نكّست رأسها تنظر في الأرض. ظننتها أصيبت بالخرس! نزلتْ والدة

[٣٠] ماذا
[٣١] زوجتك

حبيب الدين من الدور الثاني تمشي بتمهل، وحبيب يفترش الأرض على مؤخرته. أخبرها بالحقيقة، والحاضرون غير مصدقين بأنّي زوجته!

جلست أمه، ظننتها أصيبت بدوار، ووضعت كفّها على خدها دون أن تنبس بأي كلمة. أما فاطمة لازالت لم تستوعب ذاك الموقف، تقلّب كفيها ثم اتسعت عيناها وانفرجت شفتاها وأخذ جنونها يصيح، ويلطم خديها وأولادها حولها يهدئونها. وقفتْ أمامي ومنعتني أنا وأطفالي من دخول الدار، ووقفا ولداهاعلي وثابت بجانب أمهم، وهي تصيح وتبكي أمام نساء القرية. خاف أطفالي وتشبثوا بثيابي بقوة، ناشدني ابني العودة. حينذاك أقسم حبيب الدين وقال لفاطمة: "حرام وثلاث طلاق، إن لم تسمحي لزهر الغرام بالدخول هي وأولادها سوف أخرجكِ أنتِ من الدار"، فكان قسَمهُ زيتاً صُبّ على نار قلبها. راحت تنوح كامرأة ثكلى، سقط عنها رداء الرأس وتسربل شعرها على كتفيها وهي تصيح بصوت باكي:

- ستطلقني على شأن خادمة يا حبيب الدييييين. تفضّل عليّ الخادمة! خمسة عشر سنة وأني موش[٣٢] عارف يا حبيب الدين (جلستْ على مؤخرتها تلطم ركبتيها والدموع يسيل على خديها) ليتك مُت ولا رجعت تهيننني بخادمة. ماذا سيقول الناس على أولادي، أبوكم تزوج خادمة، إخوانكم أمهم خادمة!... والله لن

[٣٢] ليس

أبقى في هذا الداااار، أسقيتني مع خادمه بكأس واحد، يا حبيب الدييييين!

ضحك الرجال وخجلت النساء مما قالته فاطمة مؤخراً. ابتسم بعضهم بخبث وهو يتحسس تحت السُرة والبعض الآخر يتأفف. أحدهم قال: "لا حولا ولا قوة إلا بالله، ابن الحسب والنسب دنّس نفسه بخادمة!" اشتعل غضب فاطمة أكثر وذهبت لجمع ثيابها لتهجر الدار ليلاً، والدموع على خديها وتمسح أنفها. نصحنها نساء الجيران أن تؤجل الفرار إلى بيت أبيها في الصباح. ظهرت فيّ زهر الغرام القديمة تهمس ليّ: " وأخير هزمتيها وانتصرتِ عليها، قاتليهم من أجل بني جلدتك"

أخذنا زوجي إلى غرفة منفردة في الدار وعيون أطفالي مترعة بالدمع والخوف يلازمهم، أما أنا توقعت مثل هذا وشعرتُ بالسعادة أن فاطمة ستهجر الدار. سألني نصر: "صحيح يا أمي أنتِ خادمة؟! وإلا هذه المرأة تكذب، زعِلت لمّا عرفتْ أن أبي متزوج عليها واحدة ثانية" لم أرد على سؤاله، لكنه الح؛ فقلت له بحدّة: "كنتُ خادمة فيما مضى، أمّا الآن أنا سيّدة مثل نساءهم. هل رأيتني يوماً مثل اللواتي رأيتهن يتسولن في المدينة؟! هل رأيتني غير نظيفة مثلهن؟! أنا سيدة رغم أنفهم، لا ينقصني شيء عنهم بل مُتعلّمه أفضل من الكثير منهم".

خفّفت الصدمة على أولادي إلى أن ناموا دون عشاء رغم معاناة الجوع. نام حبيب بغرفة والدته وهي غاضبة منه، ولم تتحدث معه.

قمت باكراً وصعدتُ إلى مطبخهم في سطح الدار، ورأيتُ أمه قد أعدت لي: صحون، أكواب، إنا للماء، وأدوات أخرى خاصة بالمطبخ...وأعدّتْ لي مكاناً خاص للطبخ، وقالت لي بجفاء: "ستأكلين وحدك أنتِ وأطفالك". رأيت فاطمة قد عدّت حقائبها وأظنها لم تنم، وبجانبها اثنتان من بناتها الصغار. حملتْ حقيبة على رأسها والأخرى بيدها كأنها لن تعود. سمعتها تقول: "ما عاد لقي هذا الوسخ إلا خادمة يهيننني بها! كان شيتزوج قبيلية. ما أحد عمل مثله هذا القذر! علّمته سلوك وكان يشتي[٣٣] مني أعمل له مثلها". كتمتُ ضحكتي وأنا مسرورة بمغادرتها.

كنت أعدّ طعام الإفطار في سطح الدار حين سمعتُ مُقبل ناجي يدندن من سطح داره: "ما يغُرّك حُسن الأخدام، النجاسة في العظام..." وردمان سعيد يقول: "والله إنها سحرته! لكن سيعود أخوه "تاج الدين" وسيجبره على طلاقها". أخافني ردمان بكلامه ورحت أحدّث نفسي : "كم سيصمد حبيب أمام أهله؟". أثناء تناول وجب الفطور رفضت أمه تناول الطعام معنا. ذهب حبيب يقول لها: "يا أمي والله أن طبخها أفضل من طبخ فاطمة"، لكنها رفضت بشدة وطلبتْ منه أن يتركها لشأنها، وذهبت تطبخ لنفسها ولأولاد فاطمة علي وثابت.

[٣٣] يريد

قبل الظهر ذهبتُ مع بناتي لأحضر الماء من سقايّة[٣٤] جِدّهم، قابلتُ عند بابها ثلاث نساء. سمعتُ إحداهن تضحك ثم قالت: "جاءت الخادمة حق فاطمة" ثم نظرن نحونا والصمت يلجم غضبي، أمّا زهر الغرام القديمة كانت تقول لي: "ارفعي عليهن الحذاء رُدي عليهن!" لكنني كنت أكبح جماحها فلو سمحتُ لها لهدّمت ما بينته. غرفتُ الماء وخوفي يحذّرني من السقوط. حملت التنك[٣٥] على رأسي وكذلك بناتي وعدتُ وأنا أحس بنظرات النسوة ترشقني كرصاص تخترق جسدي من الخلف. ذهبتُ ذلك اليوم أربع مرات لإحضار الماء، كنست البيت مرتين، وحاولت أن أقدم الماء والعلف للبقرة لكن أمه رفضت، وحين ذهبتُ لأغسل صحون المطبخ التي يخصها رفضت ومنعتني أن أمس أي وعاء واحد، لكنها لم تشتمني. شاهدتْ خلال ثلاثة أيام نظافتي وطبخي الجيد، لكنها ترى أن النجاسة في ذاتي أيضاً، كما يقولون إنها في عظام الخادم!

مساء اليوم الثالث وصل تاج الدين وقد أزداد حبيب الدين مرضاً. دفعني الخوف لأتخفّى وأغلقت الغرفة على أطفالي؛ حتى لا يسمعون ما يجرح القلب. تخيّلت أطفالي يتامى وشعرت أنّي أصبحت درعاً لأولادي يتلقى عنهم الطعنات. لم أشعر بالخوف من تاج الدين، الذي يرى نفسه شيخ القرية ويؤمّهم في الصلاة. تسلّلتُ من الغرفة لأسمع ماذا سيقول

---

[٣٤] خزان مياه أرضي

[٣٥] وعاء كبير من الصفيح

لأخيه، فسمعت زوجي يقول بصوت واهي: "أهلاً بتاج الدين"، فرد الأخير عليه بجفاء:

- سمعتُ أنك مريض وقد شفع لك مرضك عندي من العقاب، لكن ما عملتهُ لم أسمع به طول حياتي. عملك هذا لا يعمله إلا مسحوراً، سنعالجك من السحر وستعرف أنك أجرمت بحق أسرتك والقرية، سنعاقبك حين تشفى. لم تفكر إلا في رغبتك، تناسيت أهلك ومصير أولادك مستقبلاً.

كان تهديده أشد من أي عقاب وتخيلت نفسي عائدة إلى بيت أهلي دون أولادي. قبل أن يغادر الغرفة سأله عن وثيقة عقد زواجه بي فأخبره حبيب إنه تزوجني على سُنة الله ورسوله، وورقة العقد موجودة.

خرج تاج الدين، فدخلتُ أشاهد حبيب وقد أزداد خوفي عليه، كانت الدموع تقطر من عينيه. أخبرته ألا يتحمّل كثيراً من أجلي، إذا أراد أن أعود إلى بيت أهلي سأعود حالاً، وعليه أن يعتني بأطفالنا. رد بكلام أبكاني فيه، حيث قال: أنني أشعر بدنو أجلي، ولن يرعى أطفالك غيرك، فكوني أنتِ الأب والأم لهم" قلت له: "سأحارب القرية كلها من أجل أولادي، لكن أرجوك لا تقل إنك ستموت، لابد أن تقاوم المرض، ستشفى بإذن الله ونعود إلى الحديدة، فلا مكان لنا هنا".

أخفيت وثيقة العقد، وحين سألني حبيب عنها أخبرته عمّا فكرت فيه، فأشاد بتصرفي، وقال لي: "الحمد لله سأموت وأنا مطمئن عليك وعلى

أولادنا". كنت أتحاشى مقابلة أخيه في الدار، واتجنب نظراته التي لا أستطع أن اتحملها، لكنني حاولت أن أتحدث معه ذات مرة فقال لي: "أنا لا أتحدث مع أخدام، تملئهم النجاسة حتى العظام. لا أدري كيف أخي دنّس نفسه! سنفك السحر عنه الذي عملته أمك له، وستعودين إلى قريتكم. لا نريد خادمة تُربّي أولادنا". انهمرت سهام كلماته على قلبي، ورحت أذرف الكمد خفية، أحدث نفسي: "لقد كنتَ على حق يا أبي".

ذات مساء سمعت تاج الدين يُحدّث أخاه عن عودة فاطمة، واصراره على نزوحي مع أولادي إلى دار جدهم المهجور، وعلى حبيب أن يبقى بجوارهم للعناية به. قلت لنفسي: "الحمد لله أنني سأعيش في دار مستقل دون ازدراء من أحد". رأى حبيب أن هذا حلاً ممتازاً، وفي الصباح نقلت بعض الأثاث الزهيد وأدوات المطبخ وطحينا وما أحضرته من المدينة...إلى دارهم القديم. وجدته مكوّن من طابقين، نوافذه ضيقة من خشب متآكل. نظّفته جيداً من الحشرات والعناكب ومرّرت شُعلة تحت الخشب، وسقط ثعبان أصفر اللون فصرخ الأولاد وهربوا هو وأنسل داخل ثقب. عملت على سد ثقوب أرضية الدار الترابية حيث عطن البقر؛ لعلّي أكون قد سددت جحر الثعبان، لكنه بقى مصدر خوف لنا لفترة.

وأنا أسد الثقوب الأرضية وجدت صندوقا حديدياً صغيراً صدئاً مدفونا، تراكم عليه روث البقر وبراز جراء كلاب. قلت لنفسي" إنها كلبة دخلت الدار وهي خالية وولدت في عطن البقرة". في البدء ظننت أنني

وجدت كنزاً. أخرجته والبهجة تضئ ظلمة الغرفة. أحدث نفسي: لن أخبر أولادي به حتى لا تعرف فاطمة وأخوها الذي طردني من بيتهم الجديد.. ما أن قبضت على القفل حتى أنخلع من مكانة، وأنا أتخيل المال الذي سأجده في الصندوق. أُصبت بالخيبة حين شاهدتُ أعداد من صُحيفة الثورة. أخرجتها فوجدت تحتها حُفنة من الرصاص، ومسدس، وصور أذهلتني حقاً. صورة لحبيب وهو ببذلة عسكرية، وعدة صور أخرى بجانبه عسكريون آخرون. وحُزمة أوراق نقدية صغيرة فئة ربُع ريال وحزمة فئة عشرة ريال..

أغلقت الصندوق وأعدته مكانة. لم أعد أفكر بالخيبة أنني لم أجد كنزا كما توقعت؛ بل مندهشة لما وجدته من سر مدفون. أسأل نفسي: مَن يكون حبيب الدين الذي عشت معه أربعة عشر عاما، ورفض فيما مضى أن يحدثني عن الثورة وعن ماضيه وأخفاه عني. كنت أقرأ حزنا في عينية طول الفترة السابقة، لكنني كنت أعيد ذاك الحزن لخوفه من اكتشاف أمر زواجنا. وبقيت أنتهز الفرصة ليحدثني عن ماضيه هذه المرة.

أرهقني المطبخ لما فيه من سُخام متراكم لسنين عدة وعجزت عن تنظيفه. نظفت المطحنة وجدتها أكبر من مطحنة أمي. أعدت الحياة للدار وتمنيتُ لو أنظّف قلوب أهل القرية كما نظفتُ داري. صعدت سطح الدار وبرزت فيّ زهر الغرام القديمة وراحت ترقص أمامي، وكثيراً

ما كانت تجذبني لأعبر عن فرحي بالرقص، ثم توجهتْ نحو قريتنا وهتفتْ: "لقد حقّقتُ أكثر ما تمنّيتُ يا أمي! تزوجت رجلاً عظيما، ليس فلاحاً ولا عامل بناء، وسكنت قريتهم. هزمت فاطمة!..."

نمت أول يوم مع أطفالي ملء جفوني تملئني السعادة، لكنها تلاشت في الصباح حين ذهبتُ إلى أم حبيب الدين لأسألها حطباً. كاد الفضول فيّ يسألها " من هو حبيب الدين" بيد أنها قالت بغضب:

- لا تناديني يا عمّة، لقد سحرتي ابني يا بُدَه[٣٦] وأرجعتِهِ معلولاً.

بدأت أواجه المجتمع الذي كنت أخشى مواجهته، يرانا غرباء عليهم، حذّرني أبي منه كثيراً، أتجنب همزات النسوة ونظرات الكره نحوي، لكن ما لم أقدر أن أتجنبه هو شقيقتي حبيب، سميرة وحليمة أتيا لزيارة أخيهما. قابلتهما عند السقاية وقامتا بشتمي واهانتي، ثم هجم حقدهما عليّ وضربتاني والنسوة يضحكن وهما تسحباني من شعري! كانت أخته حليمة قاسية، أخذت حجراً صغيراً وأرادت أن تضربني بها عانتي! وهي تقول: "هذا الدنس دنّس أخي، هو السبب في مرضه". هربتُ من أمامهما نحو داري. دخلت وأولادي يبكون، واسرعت ابنتي حُسن تغلق الباب بسرعة.

عرفت فيما بعد من صديقتي الوحيدة "ثلج" أن تاج الدين هو الذي شجعهما على ضربي. رقدت تلك الليلة وأنا ألوم زهر الغرام القديمة:

---

[٣٦] غولة تسحر الرجال

"لماذا لم تشجعينِ للدفاع عن نفسك؟!" إذا بها تهمس لي: "اصبري وسترين النتيجة، لقد كسبتِ الجولة!"

في المساء أتى حبيب يتعكّز على عصا، يتملكه الغضب. قال لي إنه سيمكث معي في الدار ولن يتركني وحيدة؛ ففرح أطفالي وامطروه بالقُبل.

في اليوم التالي أقبل أخوه مع فقيه القرية "سعيد"، وخلفه قطيع من خرفان بوجوه بشرية، يود من حبيب أن يُطلقني. قال الفقيه سعيد له وأنا أسترق السمع:

- ماذا جرى لعقلك يا حبيب الدين؟ كيف تفعل هذا؟! مَن يتزوج خادمة يا ابني! ألمْ تفكر في أولادك من بعدك وماذا سيقولون عنهم، سيظل العار يلاحقهم بعد مماتك، لن توافق امرأة منّا أن تتزوج ابنك، وكذا بناتك لن يرضى بهن إلا أخدام. لقد أجرمت في حق أولادك ويجب عليك أن تصلح جزءً من أخطائك بطلاقها".

كشّر غضب تاج الدين نحو حبيب وصاح: "والله، لولا مرضك لكنت أدّبتك بيدي، أنت أمّك لم تُربيك زمان، يا وسخ، يا دنَس..." قال حبيب

له: لقد تجرعتُ الظلم من إخوة الكفاح ولا ضير أن اتجرعه منك!.. ثم خرج وهو يتوعّد. أخبرتُ حبيب أن نعيده إلى المدينة للعلاج لكنه رفض، وهدفي هو الهروب من القرية.

في المساء جاء الحاج عبد الرؤوف إلى دارنا ، ذلك الرجل الطيب، أعرفه منذ صغري حين كنت ارافق أمي حين نذهب إلى قرية "الدُقم" للتسول منها حيث أمي لديها صكّاً بها، حصلت عليه مهراً من أبي. نحن نرى حسناتهم حقاً لنا، لا نعتبرها شحاذة منهم وفقاً لقوانين أسسناها منذ عقود عدة؛ حيث نتقاسم قراهم فيما بيننا بصكوك شرعية يكتبونها شيوخنا، نتوارثها للتسول منها فلا يحق لاحد لِمن لا يمتلك صكاً بها أن يشحذ منها، أو يحضر عرساً أو ولادة للضرب على الدف في تلك القُرى، ونبيع أيضاً تلك الصكوك كأن قرى أسيادنا ملكا لنا! هكذا نبحث عن السعادة ولو هي وهماً. إذا اشترى أحدنا شيئاً يظهره على الآخرين وإذا اشترى راديو أو مسجلة يُسمع صوتها القرية كلها، وإذا لبس ثياباً جديدة يزور كل مساكن القرية... تأخذنا السعادة في رحابها من أبسط الأشياء، ولو حتى إشادة بكلمة طيبة من أحدهم.

غضب الحاج عبد الرؤوف مما جرى لي، ويوم أن زار حبيب وأخبره أنه يحترم رغبته، ولن يستطيع أحد أن يجبره عن التخلي عني، ثم وضع بجواره قليلاً من المال، وقبل ذهابه قال لي: "إذا آذاك أحد من أهل القرية أخبريني، سأوقفه عند حدِّه". فرحت وشكرت الله أنه أرسل من

يحميني من أهل القرية، وتعززت مقدرتي على المواجهة، حتى حبيب شجعني للدفاع عن نفسي وشجع ابني.

ذات مساء وأنا بجانب حبيب أنظر إلى بطنه المنتفخ، قلتُ له: لقد عرفتُ مَن أنت أيّها البطل المغوار.. التفت نحوي بعينين مثقلة بالدهشة وقال: ماذا تقولين؟!

- عرفتُ ما في الصندوق المدفون بالسَّفل(عطن البقر)

ترقرقت عيناه بالدمع، ظننته بسبب ألمه، وإذا به يقول:

- لماذا فتحتي جرحاً أندمل منذ زمن. حاولت بكِ أن أنسى وجه الثورة المشوّه. ليس مجتمعك هُمّش فقط حتى الابطال الذين دافعوا عن الثورة همّشوا وقتلوا.

اعتذرت منه وقبّلت خده المالح بالدموع، وأقسمت ألا أحدّثه بهذا الأمر مرة أخرى فقال لي: لقد أخفيته عنك زمناً، أمّا الآن وأنا راحل عن الدنيا، لابد وأن أحدّثك لتحدثي أولادي عن حياة أبيهم ويدركوا ماضي الوطن؛ ليروا المستقبل بعين الماض.

طلب مني أن أتركه وحيدا؛ فغادرته. في اليوم التالي جلستُ إلى جواره أمسح على رأسه، وهو مستلق على ضهره في سطح الدار، والشمس تنحدر نحو الغروب، كما هو ينحدر نحو الغروب أيضاً. قال لي بصوت واهٍ: سيرونك أهل القرية وأنتِ تمسحين

على رأسي!.. قلت له والألم يقرضني من الداخل: فليراني العالم كله والسماء والشياطين، فلم يعد يهمني كل هؤلاء.

رغم آلامه راح يحدثني عن ماضيه وماضي بلادنا القريب، وما أظن مرضه إلا بسببه. حدثني عن انضمامه إلى القوات المسلحة في اليوم التالي من ثورة ٢٦ سبتمبر ... شعرت أنه لن يستطيع أن يواصل الحديث؛ فطلبت منه أن يتوقف رغم اشتياقي لمعرفة الكثير عمّا جرى بعد الثورة، كما كنت أشتاق لفراشه قبل أن يمرض؛ اكتشفت أن المعرفة لذة أخرى يشتاق لها العقل، كما كان جسدي يشتاق لحبيب وأنا معه في الفراش.

أتت أمي لزيارتي وكذلك أخوتي إلا أبي لم يحضر. فرحتْ أمي بداري، رأيته قصراً وباركت لي. في البداية شعرتُ بالسعادة بأهلي لكن بسرعان ما تماهت تلك الفرحة، وتمنيت لو لم يزرني أحد منهم وذهبت أنا إليهم.

عرّفني حبيب بممتلكاته من الحقول، بعد أن قسّمها جزءً لي ولأولادي، والجزء الثاني لفاطمة وأولادها حسب الشرع، وأخبرني بأن أهتم بما يخُصنا. حينها قلقتُ من الاعتناء بالأرض فهذا العمل لم يسبق لي أن قمت به من قبل. وحين بدأ موسم الزراعة داهمني القلق على الأرض وأنا أشاهد بعض جدران الحقول مهدمة. حاولت مع ابني إعادة بناء جدار أحد الحقول لكننا لم نستطع.

في اليوم الثالث من زيارة أمي قابلنا الحاج عبد الرؤوف في الطريق وعرف وجهتنا، أخذ يعلّم ابني كيف يعيد بناء الجُدر. وددتُ أن أقبّل يده لوقوفه معنا، لكنني شكرته بنظرة، فهو الوحيد الذي يراني إنسانة مثلهم. عدنا إلى حبيب والسعادة تغسل أدران التعب منا، اخبرناه أننا أعدنا بناء جدار أحد حقول "الشَعب الأعلى" وكانت السعادة تحلق بي وأنا أرى ابني رجلاً يمكن أن أعتمد عليه، قوياً أطول من أبيه يماثلني في الطول. وزعت العمل بين بناتي في الدار: طحن الحبوب، تنظف الدار، الطبخ، العناية بالحقول وجلب الماء...أما جمع الحطب جلبناه أنا وبناتي بعد أن قطّعه الحطاب مُقبل عبده من أملاك زوجي. لم يحضر أحد من نساء القرية لمعاونتنا كما يتعاون في مثل هذه الأعمال.

في المرحلة الأولى من العناية بالحقول أشتد ساعدي كالرجال، أشعر أنّي أسس أسرة فريدة، تقف بين مجتمعين حيث النظرة الدونية ستظل تلاحقهم. هكذا بدأت داخلي حرب أخرى لكي يتفوق ابني عليهم، ورحت أشجّعه على الاجتهاد في الدراسة ليكون هو الأفضل بينهم؛ وليشعر بعزة النفس حتى لا يحس بالنظرة الدونية التي يحس بها أبناء جلدتنا. في بداية الدراسة ذهبتُ إلى المدرسة معه والتحق بصف أول ثانوي، وأثناء العودة رآنا عبد الستار وتعمّد أن يمشي في طريقي. حاول أن يتحدث معي فرفضت أن أسمعه، ثم أتى لزيارة زوجي يعرض عليه خدماته، وأخبره إنه كان مسافراً وذكّره بما قال له فيما مضى، بأنه سيواجه

الصعاب حين يُكتشف أمر زواجه بي! وقبل أن يغادر شكره حبيب على كتمان السر طوال هذه الفترة، وأخبره أنه ليس في حاجة إليه الآن؛ حتى لا يتكرر حضوره إلى الدار.

تحمّلت نبذ القرية لكن ولدي لم يستطع، كان يشكو لي سوء معاملة الأولاد في المدرسة، حتى شقيقاه علي وثابت كان يضايقانه ويدعونه: "يا ابن الخادمة!"؛ فذهبت إلى المدرسة أشكوهم. وقف المدير في صفّي وعاقب المخطئ منهم بحق ابني، لكن تلك الزيارات إلى المدرسة لم أعد أكررها بعد أن أشاع تاج الدين بأنّي أقابل المُدرسين والمدير دون حياء، ويمكن أن أؤثّر على سلوك نساء القرية. قال عني: "أن الطبعَ غلبَ التطبعَ... " كاد الشيطان أن ينجح في طردي من القرية لولا المدير وأحد المدرسين شهدا بنزاهتي، وكذلك الحاج عبد الرؤوف هو أول من شهد بذلك. هذا الرجل المُحسن أتهمه بعض أهل القرية بأنه نسيَ الأصول والأعراف وأفسد حِجّه بمعالمته معي.

ذات مرة ونحن في غرفة النوم قبل الظهيرة ابتسم حبيب لي وقد أزداد وجهه اصفراراً، وأرادني أن أقترب منه والتصق به كما كنت أفعل سابقا وقال: أريد أن أتنسمكِ.. ضحكت في غنج وقلت: كنت في عطن البقرة ماذا ستتنسم فيّ! وأنت مريض.. لكنه ألحّ على طلبه وأوقد شعلة الشبقة التي أحاول أن أطفئها. شعرت بحرارة جسده المرتفعة وقد ازدادت بطنه انتفاخاً. حاول أن

يفعل شيئا معي لكنه خنجره البشري لم يطاوعه وظل في سبات عميق. غضب وأمرني أن أصحيّه، حزنت لغضبه وفعلت معه أكثر ما كنت أفعله معه في شبابي، لكن خنجره خذله كما خذل شبقي أنا أيضاً. لو لم يثيرني كان أفضل. راح يشتم عضوه وهو يهزه بقوة، ويقول: ها أنت تفشل كما فشلتْ الثورة.. ضحكت من أعماق قلبي. سمعتني ابنتي وقالت: يا أمي صوتك تسمعه القرية.. لعنت زهر الغرام القديمة التي باغتتني، وراحت تضحك كما تشاء، وفي الوقت نفسه فرحتُ أن بنتي نصحتني. قلت لحبيب: ما دخل الثورة بأيرك النائم ؟! ضحك وقال: بعد حركة ٥ نوفمبر ١٩٦٨م لم يبق من الثورة إلا اسمها "جمهورية بتاج ملكي" بسبب التدخلات الخارجية التي غذّت الأطماع الداخلية وأفشلت الثورة.

ولكي أخفّف عنه مرضه وحزنه كذبت فقلت له: أنا لم أعد أرغب في الفراش يا حبيبي، بل أرغب أن تخبرني عن بلادنا.. استلقى على ظهره وأنا بجانبه أمسح على صدره وراح يحدثني عن حركة ٥ نوفمبر في صنعاء وعن الصراعات التي تزامنت مع صراعات الجنوب، وكأن المُخطط لتلك الأحداث الدامية شخص واحد يدير الصراعات جنوباً وشمالاً الوطن معاً.

وفي مساء نفس اليوم نعض أيره وساعدته وفعلها معي. استغليتُ سروراً وقمت من جواره وأحضرت صُحيفة الثورة، وصوره وهو ببذلته العسكرية مع أصحابه. سألته عن صورة جماعية بجانبه العديد من العسكرين. أخذ يشير بسبابته ويقول: ذلك الذي بجانبي عبد الرقيب عبد الوهاب، وذاك عبد الوهاب الوحش وذاك محمد صالح فرحان...

وراح يحدثني بأسٍ عنهم وعن مقتلهم من قبل الطرف الثوري الآخر الذي انفرد بالثورة، تدعمهم القوى الخارجي التي أرادت افشال ثورتي شمال الوطن وجنوبه. كنت أمرر كفي بحنان على رأسه؛ لأهدأ من غضبه وهو يحدثني عن أصدقائه الذين دافعوا عن صنعاء أثناء حصار السبعين يوما، وعن دوره هو معهم لفّك الحصار. ثم حدثني عن صراعات الجنوب بين الجبهة القومية وجبهة التحرير...

ذات يوم كان حبيب مستلقٍ على ظهره في سطح الدار، وقد جنحت الشمس نحو المغيب. دفعتني زهر الغرام القديمة لأحضر صُحيفة الثورة. جلست اقرأها بجوار حبيب وكنت أرشق العابرين في الطريق؛ لأعرف هل يشاهدونني وأنا أقرأ. قرأت عدداً فيه عن الإمام أحمد الملّقب بالبدر وعن الرئيس عبد الله السلال. فاجأنا

عبد الستار الغازي وهو يمر في الطريق ونادى حبيب. أمّا أنا ظللت أقرأ.

دخل الدار وصعد السطح، ورحتُ أنا أعد القهوة وأحضرتها لهما. وجدتهما يضحكان، سألني الغازي: هل صحيح يا زهر الغرام تتحدثين في السياسة؟! أنا غير مُصدق ما قاله زوجك؟.. برزت زهر الغرام القديمة وهو تفتح فتحتي أنفها كمنخري الحصان، وأرادت أن تظهر أن الأخدام إذا درسوا وتعلّموا سيبدعون كالآخرين، وأرادت اعطاء درسا للغازي في هذا الأمر. كان يسمعني وهو فاغرا فمه نحوي، وأنا أحدثه عما جرى من صراع في جنوب الوطن بين الجبة القومية وجبهة التحرير، رفقاء السلاح ضد الاستعمار. ثم قلت له:

لم أكن أعرف أنك عضوا في جبهة التحرير، وأنك عدت إلى قريتك خوفا من بطش الجبهة القومية في عدن.. نظر إلى حبيب وقال له: لماذا أخبرتها عني؟!.. لكن حبيب ابتسم وصمت. سألتُ الغازي:

- لماذا حدث قتال بين الجبهة القومية وجبهة التحرير في عدن؟!
- جبهة التحرير كانت رؤيتها أفضل لإدارة حكم الجنوب، لكن بريطانيا فضّلت التفاوض مع الجبهة القومية. لو

أشـركونا فـي مـؤتمر جنيـف ١٣ ينـاير ١٩٦٦م حـول الاسـتقلال لكـان جنـوب الـيمن حصـل علـى امتيـازات أكثـر، لكـن الجبهـة القوميـة رضـوا بالفُتـات. هـؤلاء الخونـة عـززوا سـلطتهم فـي ٢/نـوفمبر/ ١٩٦٧م ويـوم اعـلان انسـحاب بريطانيـا مـن عـدن درات معـارك بيننـا وهزمنـا. ثـم راح يشتمهم كسائر بني جلدتنا. وبعد أن هدأ غضبه قلت له:

- كـان الأحـرار فـي الجنـوب يتقـاتلون لأجـل مصـالحهم ولـيس لمصـلحة الشـعب، وكـذلك تقاتـل الثـوار فـي الشـمال حتـى فـي الجانب الملكي اختلفوا فيما بينهم.

بـرزت فـيّ زهـرة الغـرام القديمـة، ورأت نفسـها الملكـة أروى، حـدثني ابنـي عنهـا ذات مـرة، وراحـت تقـول: لـو سـمحت الظـروف لـي لحكمـتُ الـبلاد أفضـل مـن مجتمـع الأسـياد، يلهثـون خلـف مصالحهم، ويدّعون أنهم يسعون لمصلحة الوطن.

وقـف الغـازي فجـاءة، خلتـه سينصـرف وقـد توسـعت عينـاه دهشـة، ثـم أنحنـى نحـو حبيـب وقـال: مـو تقـول مرتـك يـا حبيـب الـدين، تريـد تعيـد دولـة بنـي نجـاح؟! العـرق دسّـاس. أقولـك الفشـرة (الغـرور) مكانهـا فيهـا. ثـم رافـع سـبابته واقسـم: والله مـا يحكمونـا الأخدام لو تقوم القيامة!.

ضحك حبيب وسعل بشدة وتفل دماً مما أخافني، وعلى إثر ذلك نظر إليّ عبد الستار بخوف وقال: كفّى عن الحديث.. وعند الخروج أخبرني بالا أترك حبيب وحيداً

اشتد مرض زوجي وتورما قدماه أكثر منذ قبل. فتوسّلت لأخيه لكي يعمل شيئاً وتحملت نظراته الجارحة، فأحضر رجلاً وكوى رأسه بالنار، وأصر على أخذه إلى الدار والده لكي يقوم أهله برعايته. حين خرج حبيب من داري أيقنت أنه لن يعود؛ فتلك الغيبوبة التي كانت تداهمه مراراً تخبرني إنها النهاية لحياة مُخلّصي من عالم المنبوذين، وسأواجه الحرب العرقية وحدي...

الفصل الثاني

انطفأ سراجي الذي أضاء درب حياتي، بعد أن أوقدَ فيّ شعلة الكرامة التي يفتقدها بنو جلدتنا. وجدتُ في مسيرة حياتي أن الذل حين يطفو على السطح تغوص الكرامة، وتحسو تراب المذلة. توقعتُ وفاته؛ فلم أبكي كثيراً ولم تنهر قواي، بل اشتدت عزيمتي لتحمّل مسؤولية تربية أولادي وحدي دون سلاح أو أي معين غير ارادتي، وأولادي هم أشبالي الذين يمدونني بعزيمة لمواجهة ظلم مجتمعهم الذي يرانا بقعة سوداء في حياتهم.

عشت مع حبيب الدين خمسة عشر سنة، تذكرت فيها سعادتي معه التي لم أكن أحلم بها. وجدته ملاكاً نزل من السماء ليعطي درساً في المساوة بين البشر والأخذ بيد المنبوذين، تلك المساوة التي حاولت الأديان أن تفرضها، لكن العقول المُتحجرة أبت ذلك. وجدتُ أن الحب وحده لا سواه يستطيع أن يساوي بين أبناء البشر. لم أعرف ذاتي الحقيقية التي فطرني الخالق عليها إلا بعد أن ذهبتْ عني عقدة النقص التي عرفتها أخيراً، تلك العُقدة الي تجعل معظمنا يعيشون حياة التذلل للغير، يقبلون بها ويرون ذلك قدرهم لا مفر منها، ومن النادر أن ينفذ

أحدنا من خلال ذلك الجدار الصلب ويعيش عيشة الأسياد، لكنه يظل خائفاً أن يُكتشف أمره حتى وهو يخفي أصله.

مات مخلّصي بعد أن أخرجني من ظلمات المذلّة، ولم يتعلّم من درسه سوى عبد الستار الذي يراه الآخرون فاسقاً، لكنه لم يكن شجاعاً أمام مجتمعه الظالم، وخسر مَن تعلّق قلبه بها في مجتمعنا.

كان أول من زارني من أهل القرية بعد وفاة حبيب ثلاث نساء، الأولى اسمها "ثبات"، يبدو عليها الغباء، لكنها جميلة والثانية اسمها "ثلج"، طويلة وهادئة، ليست جميلة تبدو طيبة أصغر مني بالعمر ببضع سنوات، والثالثة شريفة تبدو شريرة، ظننتها أتت لتشمت بي. بقيتُ أرمقهن وهن يشاهدن نظافة داري، بالذات المطبخ. لم أقدّم لهن القهوة أو الماء؛ فتناول الطعام في بيت أحد مننا مستحيل! ولو أن داره أنظف من ديارهم.

في اليوم الثالث أخبرتني ثلج، أن فاطمة لم تبكي على حبيب الدين، وأسرّتني بمكيدة يحيكها تاج الدين ضدي. حاول أقناع أهل القرية أثناء عزاء أخيه بوجهة نظره، وأخبرهم أنه من غير المعقول أن خادمة تُعلّم أولاد أخوه سلوك قبائل يعتزون بأنفسهم، وعليّ أن أسلّم أولادي لعمهم تاج الدين يُربيهم، وذكّرهم بحكاية الرضيع سعد الذي وجدته الخادمة "شهود" في طريق سوق الثلاثاء وربّته، فكان سلوكه سلوك الأخدام.

أتى تاج الدين إلى داري وقطيعه خلفه، وأخبرني بأن أرحل عن القرية إلى بيت أبي، وأترك أولاد أخيه. أزعجني ثغاؤهم وكرهتُ نظرات بعضهم الوقحة نحوي، كأنها تريدني أن أبقى لغرض في أنفسهم. حاول البعض اقناعي بألا أخاف على أولادي لطالما سيرعاهم عمّهم تاج الدين.

فكّرت بالحاج عبد الرؤوف؛ إذا به يقبلُ. نظر إليّ وعيناي تحدثه عمّا فيّ من كُربة. وقف أمامهم وأتكأ على عصاه وأدلى برأيه أمام داري قائلاً: "يا أهل قرية الدُّقم، الخيرة ستكون لأولادها مع مَن يريدون أن يعيشوا، مع أمهم أو مع عمّهم!" هتف ردمان سعيد: "لا، الأولاد لا يعرفون مصلحتهم يا حاج، إذا هي تحبهم فلترحل هي عنهم. هتف عبد الستار وقال:

- أنا مع رأي الحاج.

هتف مُقبل الحطاب، وهو يهز فأسه:

- لا نريد خادمة تعيش في قريتنا يا عبد الستار. أنت تريدها تعيش هنا، نحن نعرفك!

ضحك الآخرون وحك البعض عانتهُ. فشعرتُ بالخجل لِما يرمي إليه الحطاب. تقدمت وأنا أزفر الضجر وقلت: "سأرحل عن القرية وأترك أولادي لكم يا سادة، إذا هم ارادوا ذلك".

صمت الجميع وراحوا ينظرون لأولادي وتقدم تاج الدين أمام ابني يقول له:

- لقد أصبحت رجلاً يا نصر وقادر على رعاية شقيقاتك وستعيشون بيننا، لن نسمح لأحدٍ أن يدعوك بابن الخادمة. أنت ابن أخي، وكذلك أخواتك سيتزوجن منّا لو غادرت أمك تعيش بين أهلها، فكّر بمصلحة نفسك وخواتك (ابتسم له ومسح على رأسه) ثم سأله: ها، قُل ما هو اختيارك؟. سنمحي العار الذي ألحقه أبوك بأهله، فأبوكم لم يفكر في العاقبة.

أرتفع ثغاء القطيع: نعم، صحيح... سمعتُ وجيب قلبي كالدف، أحسست أنه سيسحر ابني بكلامه. كان ابني يرشقني بنظراته بين الحين والآخر، عرفتُ ما يدور في ذهنه "أن يعيش معي ويوصم بعار ابن الخادمة مدى حياته، أو أن يعيش سيداً وهو بعيداً عني". لكن ابني نصر نصرني على أهل القرية، وقال: "سأعيش مع أمي حيث تعيش هي". امطرته بالقُبل وشكرتُ الحاج عبد الرؤوف وهممت بتقبيل يديه، لكنني أدركت أنه لن يقبل أن خادمة تمسّ يده.

عاد تاج الدين هو وأهل القرية يجرون أذيال الخيبة، ورحتُ أفكر بأرض أولادي لأجعلها أفضل أرض في القرية، وازداد فرحي ذلك اليوم فقد أعطاني عبد الرؤوف بقرة، وقال لي: "دعيها شراكة بيننا!" إذ بالفرحة تصيح داخلي: "عندي بقرة في الداااار!" وبقينا أنا وبناتي نمرر كفوف الفرحة على فقرات ظهرها البارزة وبطنها، كما مررنا أيادي الفرحة على السيارة يوم أن اشتراها حبيب. لم ننم تلك الليلة حتى الفجر، وفي

الصباح لاحظتُ فيها القليل من الحليب، لم أعرف كيف أدرّه، فأخبرت ابنتي جليلة وقد بلغت الرابعة عشر من العمر أن تسرع إلى صديقتي ثلج.

حضرت ثلج عصراً وهي تحمل معها دُبية[٣٧] وجعنان[٣٨] ، وعلمتني كيف أمهد حلب البقرة، بتمرير كف الحنان على ظهرها أولاً ثم على ضرعها عدة مرات. حلبتها هي وأنا أرقب طريقتها بعناية، أخبرتني أن الحليب لابد أن يلبث نصف نهار في الدُبية، ثم أقوم برجّه لفصل الزبدة. خلدنا إلى النوم تلك الليلة ونحن سعداء بالبقرة كأننا امتلكنا كنزاً، كلما كانت تخور ننزل لنبقى قليلاً أمامها نقدم لها الماء والحشائش. كنت أود أن أغني وأرقص مثل أمي في الأعراس، لكنني كبت رغبتي. هكذا هي لحظات السعادة تمسح جراحات الزمن فينا.

حضرت ثلج صباحاً ودعتني لأشاهد كيف يتحضّر الحليب للرج، وقامت هي برجّه حتى فصلت الزبدة كتلة واحدة! فجأة قبّلت خدها ولم أقبّل يدها لشعوري أن تقبيل اليد فيها إهانة لي. شاهدتها خلسة وهي تمسح أثر القُبلة عدة مرات، وحين خرجت من البيت كانت تحكُّ خدها كأنها أُصيبت بالجرب!

في اليوم الرابع حلمتُ حلماً أحزنني. قمت في الصباح أبكي رغم فرحي بالبقرة؛ حيث حلمت أن حبيب الدين جاء إليّ بقطيع من الأغنام

---

[٣٧] وعاء كبير من القرع الجاف لخض اللبن

[٣٨] وعاء من القرع صغير لدر الحليب فيه

ثم مشى بعيداً. رأيت نفسي أجري خلفه أناديه بصوت مرتفع أن يعود، لكنه لم يسمعني. كنت أقول له: "قالوا لي إنهم قبروك، لكنهم كذبوا، أين ذهبت، لماذا تركتنا؟!" استفدت من ذلك الحلم وحولته فيما بعد إلى حقيقة. هكذا يمكن تحويل الأحلام إلى حقيقة في يوم ما.

بعد أسبوع رحت أسخّن الزبدة التي جمّعتها، وحضّرت السمن البلدي لكنها لم تكن ذو رائحة طيبة. غمرتني السعادة بما انجزته، وفي المرة التالي أجدت ذلك وجعلتُ رائحتها زكية بفعل رائحة الحُلبة والكِبا[٣٩] الذي أحضرته ثلج. قلت لنفسي: "هذه القارورة لسيْدي الحاج عبد الرؤوف؛ فالبقرة مِلكهُ ولا بد أن يأخذ نصيبه" وأنستني الفرحة أنهم لا يتناولون شيئاً من أيدينا، فكيف بطبخنا! فتح القارورة وتنسّمها وقال: "ما أطيبها، لكن لن أخذها. دعيها لأولادك هم أحق بها مني"، وكذلك عندما أعطيت القارورة لصديقتي ثلج لم تقبلها أيضاً مني رغم معرفتها بنظافتي. هكذا بدأ اعتزازي بنفسي ينمو شيئاً فشيئاً.

تلك الفرحة أفسدها جشع تاج الدين في السبوع التالي، فقد أخذ سيارة زوجي المرحوم لنفسه، مدّعياً أنها من نصيب أمه في الميراث، قلت في نفسي: "فلتأخذه السيارة إلى الجحيم ليريحني منه". سَمِنت البقرة وصارت تدر حليباً أكثر مما سبق ولم نعد نشرب إلا حليباً. أحياناً يبقي لدينا حقين وندلقه من سطح الدار، فلن يقبله أحد من أهل القرية. علّمتني ثلج

[٣٩] عود بعد حرقه يصدر نكهة طيبة

كيف أسخن كمية الحقين الفائض عن الحاجة عنّا، وأطبخه جُبّابة[٤٠] نتغذى منه مع مختلف أنواع الخبز مثل: شوأف مقرعي، شوأف حامض، صُلَع... وعلمتني كيف أطبخ الكُبان في التنور أمّا اللحوح[٤١] لم أستطع أن أقوم به.

أحبّت ثلج أولادي لاسيما نصر، تقوم بتدليله، تقرصه في الخد، كما كانت تفعله نصيرة معي، ولو عرفتُ حينها ماذا وراء دلالها لما سمحت لها بدخول الدار.

بدأت أجنحة البهجة تنبتُ فيّ مرة أخرى، التي كانت قد تكسّرت بعد موت حبيب الدين، كان هو أجنحتي التي أطير بها، والآن أولادي الذين أُحلّق بهم في هذا العالم. لكن كوابيس النهار مازالت تطاردني، تود كسر أجنحتي لأهوي فوق الشوك فبعد أن فشلو بسلب أولادي مني! أتى تاج الدين إلى داري ليخبرني أنني لم أكن زوجة شرعية لأخيه، ويجب أن أعيد الأرض التي تحت يدي، وبدأت معركة أخرى بيننا.

في صباح اليوم التالي حضر عسكري من قِبل الشيخ "عظروط"، لم أخف منه وتخِيّلت نفسي عُنيترة بنت عنتر، لكن بسلاح الكلمة لا غير. اصطحبت ابني معي وأخفينا وثيقة عقد زواجي. وفي الطريق برزت زهر الغرام القديمة توسوس بحل مشين!... قلت لها: "لا تقتربي مني. لقد تعلمتُ كيف أدافع عن نفسي" ورحت ألعنها بصوت مسموع.

---

[٤٠] جُبن طري

[٤١] خبز رقيق جدا

- سألني ولدي: مَن تلعنين يا أمي؟!
- الشيطان يا ولدي، يحفظك الله منه.
- وهل الشيطان حول كل إنسان؟!
- بل داخله يا ولدي.

وصلت إلى ديوان الشيخ قبل الظهيرة. تحدثت معهم كمثقفة ما لم يعهدوه من بني جلدتنا، لكن ثقافتي لم تشفع لي أصلي. قال الشيخ: "يا بنت الخادم مَقرع، إذا لديك عقد شرعي يبين أنك زوجة حبيب الدين بن سالم عبده غانم فدعوة أخيه تاج الدين باطلة، ولن نضطر لاستدعاء شهود على صحة كلامك". فرحتُ بخبره وأظهرت العقد وراح أحد الحاضرين في الديوان يقرأ العقد ثم قال: "إنه عقد شرعي صحيح وموثّق من قِبل محكمة الحديدة يا شيخ.

شاهدت وجه تاج الدين يتلون كالحرباء، وما أغاضه أكثر هو تحذيره من قِبل الشيخ عظروط من مضايقتي. عدت منتصرة وفخورة بنفسي أنّي هزمت أحد الأسياد، لم أستطع كبح رغبة رقص زهر الغرام القديمة فيّ وراحت ترقص أمامي، تصيح: " هزمت أحد الأسيااد!" وخُيّل إليّ بأن الجبال تردد صوتها! في اليوم التالي حدثتني ثلج بما أثلج صدري أكثر: "إن نساء القرية يضحكن على تاج الدين بأن الخادمة هزمته!" قبضت على معصمها ورحت اراقصها ولم، تستطع أن تجاريني في الرقص.

بدأ موسم الزراعه وراح أهل القرية يحرثون حقولهم، وأنا لم يكن لديّ مالاً كافٍ أقدّمه للفلاح مع ثور للحراثة!. فأرسل القدر إليّ ثلج لتخبرني أنه يمكن لنصر أن يروّض البقرة التي تحت يدي للحرث. أخذتُ البقرة إلى حقل من حقولنا، وكان نصر قد أحضر محراثاً من بيت جدته نعمة، وأخبرته أن يرسل أخته جليلة لتعطينا بذوراً و قمحاً لطعامنا، فقد بدأت تنظر إلى أولاد ابنها بعين العطف.

ذهبتُ لتجربة جديدة في حياتي، لكن البقرة لم تجر المحراث، رغم السياط التي تزجرها، ظلت واقفة مكانها فقلت لنصر: "دعني أمسك بالمحراث وأنتِ أمشِ بجانبها لتقُودها في خط سير مستقيم، رحت أمسح أولا بحنان على ظهرها، فمشت دون سياط!

بقيت ثلاثة أيام نروض البقرة، وفي الوقت نفسه أتعلم الحرث. في اليوم الرابع مرَّ شَرَف سعيد وهو يضحك فضحكتُ أمامه. أخذ يعلمنا طريقة الحرث الجيدة. قال: "هذا عمل الرجال يا ابنة مَقرع. أنت أول امرأة تحرث في القرية!"

كُنت مع بناتي نجمع الحشاش من الجبل، ونعتني بالحقول وبالبقرة ونطحن الحبوب ونطهو الطعام. يا للهول! كيف امرأة واحدة تستطيع أن تقوم بكل هذا العمل في الدار وخارجه! المرة تعمل في القرية أكثر من الرجل، وفوق هذا حقوقهن منقوصة! يعملن أثناء الزراعة كخلية نحل نشطة ليس الذكور بجانبهم في شيء.

تعلّمتُ الحرث دون مساعدة ابني أثناء انشغاله في مذاكرة دروسه، وابنتي جليلة ترمي البذار بعدي. تكرّر مرور شَرَف سعيد بجوار داري يعرض خدماته، لكنني حين عرفت مراده مني لم أعد أتحدث معه، وما ألمني أكثر أن ثلج أخبرتني بما يدور في القرية أن شَرَف سعيد يزورني ليلاً. عندئذ عرفتُ سبب جفا الحاج عبد الرؤوف، فقد كان يعطيني مما يشتريه من بقوليات حين يعود من سوق الثلاثاء الأسبوعي وأراه غاضباً مني. قابلته وقرأت عليه الآية (يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبينوا). نظر إليّ وسألني بتعجب: "هل تحفظين القرآن يا بنت مَقرع؟!" رديت بالإيجاب وأنني أكتب واقرأ، لكنني وجدته غير راض عني.

ذات ليلة سمعتُ حصى يتساقط على سطح داري ونافذة نومي، لم أعيره أي اهتمام. استمر مدة أسبوع ينهال بجوار نافذة غرفة نومي في أوقات متأخرة من الليل. شككت بتاج الدين أنه يريد أن يشوه سمعتي؛ ليطردني من القرية، وفي ذات ليلة في وقت متأخر من الليل سمعت نقرات على الباب. كان أحدهم يهمس أن أفتح. تكرر فعله الوسخ مرة أخرى، وكان قد جمّعت بولي لمدة يومين ملء قارورة. سكبته في صحن وفتحت الباب لعاشق الليل، ففتح فمه كالأبله ودلقت البول على صدره ووجه فجأة، وفاحت رائحة البول التي لم أتوقعها. قلت له: "هذا ما تستحقه". لم يُخف هذا الأمر على القرية. بعد حمام البول لعاشق الليل لمستُ أن الحاج عبد الرؤوف راض عني، فقد أتي يطلب مني طلباً.

قال: "ما رأيك أن تعلّمي نساء القرية اللواتي يردن أن يتعلمن القراءة والكتابة". رحّبت بفكرته كثيراً، رأيت نفسي أعلّم نساءهم وبناتهم، هذا ما لم يكُن يتخيّله أحد أن خادماً يدرّس أولاد الأسياد! وكذلك بناتي فرحن وقد تعلّمن على يدي القراءة والكتابة. في تلك الفترة لم تكن البنات يذهبن إلى المدرسة، توقّعتُ أن تحضر بعض الفتيات، لكنني تألمت حين عرفت من صديقتي ثلج أنهن لن يأخذن العلم على يد خادمة!

اعتنيت بأرضي أنا وأولادي، وأشاد بي الحاج عبد الرؤوف وشجعني ومدّني بمال خلسه، حتى أن أمي مددتني ببعض مما تستجديه منهم، هي تعرف أنّي خرجتُ عن عادات مجتمعنا ولن أخرج أستجدي لأطفالي مثلهم. زادت فرحتي حين بدأ بعض نساء القرية يأتين لزيارتي في الدار، وهذا الفضل يعود لثلج بعد أن أخبرتهن عن نظافتي وعفّتي، بالإضافة أنني لم أغرِ رجال القرية كما كنّ يتوقّعن، فقد كان حمام البول ذاك حديث القرية لفترة طويلة! أصبحتُ من خلال ثلج أعرف ما يدور في القرية، حتى أنها أخبرتني عمّا يتحدثن به عنها: "كيف تقبل أن تجلس في بيت خادمة، ينادينها بصديقة الخادمة.. والحمد لله أنهن لم يعرفن السبب الحقيقي.

شعرتُ بسعادة غامرة حين قبِلتْ ثلج مكافأتي ثمن قارورة سَمْن! لست أدري هل أعطيتها مكافأة لمساعدتها لي، أم لشعوري أنني أحسن لأحد منهم كما هم يحسنون إلينا؟! صداقتي معها ورأفت الحاج عبد

الرؤوف أنستني نبذ القرية، ذلك النبذ الذي لم أكن أراه نبذاً حين كنتُ في كوخ أبي، ولم أكن أغضب حين ينادونني يا "خادمة". نرى أن هناك أسياداً وعبيداً وفقراء وأغنياء ولكُلٍّ نصيبه في هذه الحياة.

ذات يوم بعد الظهيرة كانت ثلج في دارنا، سألتُها أن تخبرني بقصة شهود الخادمة التي سمعتها من قبل. جلستْ بجانب نصر ملاصقة لفخذه وبناتي من حولها. لم أدرك أن هناك دخان الشبق يتصاعد بينهما نتيجة تلامسهما. راحت هي تحكي:

- الخادمة شهود، وجدت رضيعْ أبيضْ مثل القمر في الصباح الباكر بجوار طريق سوق الثلاثاء، ربّيته حتى أصبح شاباً وزوّجته ابنتها. خلّف منها ولدْ أبيض وبنت، ثم سافر الحبشة ولم يعد. اسمت الولد (مسعود) كَبر وسافر إلى السعودية للعمل وحين عاد تزوج أحد بنات قرية الدُّقم اسمها زعفرات ولما عرف والد زعفران أن جدته شهود الخادمة، طلب من مسعود أن يُطلّق ابنته بالقوة لكن هي ورفضتْ وقالت: لن يرضى الأسياد أن يتزوجها بعد أن لَعقِ سعيد من إنائها!

بعد أن سردت ثلج حكاية زعفران، قدمتُ لها كوب قهوة وخبزاً به القليل من السكر. تذوّقت منه قليلاً وقالت: "إنه لذيذ وعرفه مليح!" ثم أكلت قطعة كبيرة وشربت القهوة. أحسستُ بسعادة غامرة أن أول إنسان

منهم يأكل طعام من يدي! برزت فيّ زهر الغرام القديمة تصفّق بدهشة " مستحيل! كيف أكلتْ من طعامك؟!"

كانت ثلج تحضر أحياناً تساعدنا في اعادة ما تهدم من جدران حقولنا. كنا نتناول وجبة إضافية في الحقول، فتأخذ ثلج كِسرة خبز وخوفها يتلفتُ يمنة ويسرة، ثم تذهب لتناولها بعيدا عنا. حين يكون هناك فلاحون بالقرب منا تبقى جائعة حتى تعود عند الظهيرة إلى دارها. ذات مرة وهي معنا في الحقل سمعتُ الحطاب مقبل عبده وهو يحصد في حقله مع أسرته بالقرب منّا يدندن:

" شلّوك[٤٢] يا قلبي تُقسّم أقسام، على المليح جالس بين الأخدام". راحت هي تقول لي: "لو أن لي أخ لمَا سمح لي بمساعدتك، أما أخواتي أنتِ تعرفينهن فقد تزوجن، وبقيتُ وأنا مع أمي نعيش على الصدقات".

تعبنا كثيراً لكننا أنجزنا مهمتنا وأعدنا ما تهدم من الحقول، ولم نعطِ فرصة للغير أن يشمت فينا بالذات فاطمة وأولادها، التي ترى ظهوري كارثة في حياتها، لم تفكر يوماً أن ميراث حبيب الدين سيذهب لغير أولادها. كان موسم الحصاد فرحاً آخراً لم أعرفه من قبل، كنت أتمتم عند الحصاد لأشد من عزيمتي: " يوم سعدك يا بتول[٤٣]، الحقول ملآن سبول..." ونصر يدندن بصوت مثلهم:" وا صباح اللّي مشقُرَه[٤٤] فُلّي،

---

[٤٢] أخذوك
[٤٣] فلاح
[٤٤] باقة زهور توضع في الخد

واصباح اللّي فَتّة[٤٥] وا نْدَلّي[٤٦]" وشقيقاته يرددن بعده والعرق يقطر من جباههن. في تلك الليلة حلمتُ بحبيب الدين وهو يضحك!

حصلتُ على خمسة براميل من حبوب الدُّخن، واشتريت ماعز ولدت بضأنين بعد ثلاثة أشهر. سعدتُ كثيرا وزادت سعادتي أن نصر حصل على المرتبة الأولى في أول ثانوي، كما فرحتُ بعد ذلك حين حصل على الشهادة الجامعة شريعة وقانون. عرفت أنه لم يكن يخبرني بما يجده من مضايقات الطلاب في المدرسة، فمازالوا ينادونه (يا ابن الخادمة). في ذات مرة عاد باكياً، قال لي: يا أمي قولي لأخيكِ مرجان ألا يأتي إلى المدرسة وقت الدراسة، فالطلاب ينادوني حين يأتي ويقولون:

- خالك الخادمْ أتى، يُطلِّبْ حق الغداءْ، معهْ الطّبْلَة والمِزمارْ، مثل الغُرّابْ فوق الدارْ.

ثم أضاف باكيا:

- رميتهم بالأحجار دون فائدة، أنا كرهت القرية يا أمي. بالذات زميلي في الفصل محمد ردمان سعيد

أخبرته بأن الأولاد يغيرون منه؛ لتفوّقه عليهم. هكذا أقنعته بوجهة نظري، وأنهم سينسون بعد فترة وليس لديه غير القلم لينتصر عليهم، كما انتصر عنترة بن شداد على أسياده بالسيف، ولكل زمن معركة يلق به.

---

[٤٥] ثريد

[٤٦] أعطتني

بعد الحصاد شعرتُ بالزهو وأنا أحسن لبني جنسنا من محصولنا كالأسياد، فلولا هذه الحسَنة لما بقيَ بني جلدتنا على قيد الحياة. كان أخي مرجان من ضمن الذين أعطيتهم، لم يقتنع وأراد فلوساً أيضاً، فلم أعطه لغرض في نفسي. طلبتُ منه ألا يمر إلى المدرسة أثناء الدراسة، فهدّدني أنه سيمر متى ما يشاء وسيرقص هناك أيضاً رقص النساء ويعمل ما يشاء...فالقبائل لا تلوم الأخدام على سوء سلوكهم.

أتى أخي مرة أخرى إلى داري طرباً ورقص أمام الباب، وقال أن هناك من اصحابه يريد أن يتزوجني، عمره أصغر مني بعشر سنوات وأن أبي وافق على طلبه، ولم يتبقَ إلا موافقتي والح في طلبه، وعلى عكس ما دخل وهو يغني، خرج من الدار وهو يشتمني ويلعنني بصوت عالٍ. صعدت سطح الدار لأرجوه أن يصمت وهو يردد:

- ستبقي خادمة يا زهر الغرام طوال عمرك، ولو نظّفتِ نفسك بصابون الدنيا كله، وتغتسلي كُل يوم بالعطرْ. أنتِ قحبتهم حتى الحُجّاج يأتوا عندك. بناتك لن يتزوجهن الأسياد ولن يتركوهن بسلام...

حاولت أن أسد أذني بكفيّ! وأهل القرية يستمعون ويضحكون. كنت قد نسيت تلك السفاهة. برزت فيّ زهر الغرام القديمة تهدئ من غضبي، تقول لي: "هذا كلام عادي! سمعتيه كثيراً في قريتنا. لماذا تبكي؟!" نزلت من سطح الدار وأنا أقول لها: " أنا الآن امرأة أخرى. لماذا

تلاحقينني؟!". تذكرت نفسي وأنا أشتم الولد الذي تحرش بابني في الحديدة بأقذع السباب ولمتُ نفسي. لو قيل لي مثل هذا الكلام قبل أن أتزوج أحدهم لمَا غضبتُ، أمّا الآن أنا أشعر بالحياء. تغيّرت فعلاً والفضل يعود لمُخلّصلي المرحوم.

كلام أخي جعلني أكره القرية كما كرهها ابني، لم أعد أستطيع مواجهة الحاج عبد الرؤوف حين أقابله. قابلته صُدفة واعتذرت له عمّا قاله أخي مرجان عنه، فقال بما أحزنني أكثر: "نحن لا نغضب من سفاهة الأخدام، لا يخجلون"، ثم أستدرك كلامه وقال: "أمّا أنتِ تعلّمت الحياء وسلوكنا، والدليل أنك تستحي مما قاله أخوك". شكرته ثم أخبرته عن مصير بناتي وقد أصبحن شابات، فنصحني ألا أخاف عليهن ما دام أنني أحسنتُ تربيتهن، أما زواجهن مكتوب بيد الخالق، هو يتكفل بعبادة!

رأيتُ أن بقاءهن في القرية بين عالمين حياة دون معنى لوجودهن، لن يرضى أن يتزوجهن أحد منهم كما قال أخي، ولن يقبلن أن يتزوجن من بني جلدتنا، حتى أنا أجد نفسي أنني لن أقبل، وليس أمامي حلّ لمستقبل أولادي إلا بمغادرة القرية إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد، وبارك فكرتي هذه حبيب الدين حين زارني في المنا

الفصل الثالث

مات أبي في السابع عشر من يناير ١٩٨٦م بعد تفجّر الوضع العسكر بين الرئيس علي ناصر محمد وشركاء في السلطة في عدن. كنا نشاهد ليلا بروق القذائف وهي تلمع في السماء. يتقاتلون من أجل السلطة ويقولون من أجل الشعب! ويكتبوا القتلى شهداء من كلا الطرفين! إنهم مضحكون!.

حضرت قبل دفن والدي. قبّلت رأسه رغم أنّي لم أشعر يوماً بحنانه. تنازع أعمامي على الدفن، أحدهم قال: "ندفنه في غرفته"، والثاني قال: "نقبره في مقبرة الأسياد في جنح الليل!". جلست مع أمي، راحت تخبرني أن كلام أخي مرجان صحيح، ليس من المعقول أن يبقين بناتي دون زواج، وأسرّتني أن هناك منّا يريد مصاهرتي، لكنها لم تخبرني حينها بالسر الذي هزّ كياني فيما بعد. أظنها كانت تريد أن تدفنه معها تحت التراب.

دفُن أبي في حُفرة بجوار الحي وعدتُ إلى داري. خلال عودتي كنت أفكر فيما قاله أبي من قبل عمّا سأجده في مجتمع الأسياد. قلت لنفسي:

"صدقت يا أبي، لكن لا حلاوة من غير نار". انتهى حزني على وفاة والدي اليوم الثالث؛ فقد افرحتني صديقتي ثلج بأن تاج الدين أثناء عليّ أمام فاطمة وأهله. حيث قال: "الخادمة أفضل منكن ربّت عشرين رأساً من الغنم، لديها بقرتان، أرضها خصبه تهتم بها، وابنها يأتي من الاوائل في المدرسة!"

شجعني كلام تاج الدين على زيارة نساء القرية، فبدأت أزور ديارهن، وأكل ما يقدمنه لي في صحن خاص، حتى ولو أنا أشعر بالشبع لا أرفض، أدرك أنهن سيغسلن ذلك الصحن عدة مرات بعد مغادرتي، ويترددن بالشرب في الكأس التي شربتُ بها.

أخذت علاقتي تتحسن مع نساء القرية، أحضر ولادتهن والأعراس. أول عرس حضرته دون بناتي هو عرس ابن سالم علي، وتفاجأت بحضور أمي وأختي فازعة وابنتها. شعرت بالحرج وددتُ أن ينسى أهل القرية أصلي. هكذا اعتقدتُ لو انعزلت عن أهلي سينسون، لكن هيهات واحلامي ونظرات التعالي ترشقني وزهر الغرام القديمة تُذكّرني من أنا! حاولت الخروج لكن نساء أهل العريس ألححن على جلوسي. سمعت أمي تغني بعد عشرين عاماً، ذكرتني بيوم عرس حبيب على فاطمة، لكن لم يعد صوتها شجي كسابق عهدها. إحداهن قالت لي: "هيّا يا زهر الغرام، قومي غنّي مع أمك مثل زمان" وراحت تضحك وضحك البعض

الآخر وهن يتهامسن. ألححن عليّ لأقوم أرقص مع أختي وابنتها، لكنني قاومت رغبة زهر الغرام القديمة فيّ على الرقص وعدت إلى داري".

قبل منتصف الليل، اقبلت أمي وأختي وابنتها إلى داري للنوم عندي. رحّبت بهن وأنا خائفة أن يتعودن على زيارتي. في الصبح شاهدن نظافة بيتي وأخبرتني أختي فازعة، أنني أستعلي عليهم، وأنني نسيت أصلي ومهما نسيته لن ينساه الغير، وأنّ الخادمة تظل خادمة حتى بعد مماتها، وأولادها يظلون أولاد خادمة، ثم أردفت قائلة: "الله يرحم أبونا مَقرع لمّا رفض يزوجك حبيب الدين، كان يعرف ماذا سيجرى لك ولأولادك. رفعتِ رأسك أنظري ماذا جرى لك!" قلتُ لها: "يا أختي لمّا عنتر رفع رأسه هزم أسياده".

ابتسمتْ لي الدنيا ابتسامة زائفة، لكنها لم تدم طويلاً عضّيت أناملي بعدها ندماً، لعدم أخذي بتحذيرات أهلي. لا أدري لماذا أغفلت هذا الأمر! ندمت وبكيت وتبين لي ظلم أهل القرية أكثر. ذات يوم كانت ابنتي رحمة بعد الظهيرة ترعى الأغنام، هطل مطر غزير فجأة، فدخلتْ صَبْل[٤٧] الرعيان هناك، وتبعها طاهر ابن مُقبل علي. عادت بأغنامنا وهي تبكي، ضربتها بشدة كدت أقتلها، هربتْ خارج الدار فلحقتها أجرها من شعرها. دسستُ فمها في الماء الطافح في الحقل كنتُ سأقتلها دون شعور. أقول لها: "لماذا لم تصيحي! لماذا لم تهربي؟!... كانت فيّ زهر

[٤٧] كوخ للمأوى من المطر

الغرام القديمة تحاول أن تمنعني ضرب رحمة، وتخبرني أن ما حصل لا يستحق كل هذا الغضب!

سمعتني بعض نساء القرية، وقلت لهن ما حصل لرحمة، وحين حضرن كشفتُ عن عورتها ليتأكدن. رمقتُ وجوههن وهن يخفين بهجتهن حين رأينها لم تعد عذراء. ذهبتُ إلى دار الحاج عبد الرؤوف أبكي، وشكوت له ما جرى لرحمة. أخبرته بأنه على طاهر أن يتزوجها ولو من دون مهر، في الأخير رحمة هي ابنة أحدكم. علمت القرية وصارت حكاية رحمة على كل لسان تتندر بها الألسن، أما طاهر بدا فحلاً بين شباب القرية ويزهو بنفسه. مكث ابني نصر أسبوعاً في البيت لا يذهب إلى المدرسة، أما أنا أُلحِقَ بي عاراً على ما أنا عليه، وما زاد قهري أن ثلج كانت تنقل لي أخباراً بما لا تسرُّ: "أن ابنتي كانت موافقة وهي التي مكّنته من نفسها، وأنها كانت تواعده هناك!". ضربت رحمة مرة أخرى، وكنتُ أود لو أنها ماتت. أحدث نفسي: "أريد بناتي أن يضاهين سلوك الأسياد، يهتمون لشرفهم ويخافون على سمعتهم". لم يجد لي الحاج عبد الرؤوف حلاً، أردتُ أن يجبر طاهر ليتزوج رحمة حتى ولو شهراً لكن لا فائدة! أمّا عمّها تاج الدين، سخر مني وقال: "ما فيش قبيلي يتزوج ابنة خادمة". وراح يلوم أخاه المرحوم حبيب الدين، ويقول إنه جلب لهم العار حيّاً وميتاً.

رفض طاهر أن يتزوج رحمة، وقال الكثير منهم: "أن ما حدث هو برضائها، وأن الفرع يعود لأصله، وأن الطبع غلب التطبع". ضربت رأسي بيدي: "يا إلهي ماذا يقول هؤلاء، هي بنت سيد منهم!" علم أهلي بقصة رحمة فأتى أخي مرجان يخبرني، كأن شيء لم يحصل فيما بيننا من قبل، وقال: " وجدتُ حلاً لمشكلة رحمة. هناك شخص منّا وافق أن يتزوجها"، لكنني رفضت. أخبرت أعمامي أن يساعدوني فذهبوا إلى شيخنا "مجبور" في قرية زِهمق، وهو بدوره ذهب إلى شيخهم الشيخ عظروط لحل المشكلة. خرجوا بحُكم فيه هدر لحقوق ابنتي، وهو إعطائها مبلغ من المال يدفعه والد طاهر مقابل المهر دون زواج!

حبستُ رحمة في البيت، وجعلت جليلة وحُسن تسرحان بالأغنام في المرعى. كرهت حكمهم وظلمهم وحلفت إن لم يتزوجها طاهر سأنتقم بنفسي. ذهبتُ صباحاً إلى أعمامي وأخذت معي تيساً وذهب ابني واشترى لهم قاتاً. قابلتُ أولاد أخي مرجان وهم يلعبون في الحي ففرحوا بي. أعطيتهم قليلاً من بودرة السُكر، ورحتُ أطرق باب كوخ أبي، فتح أخي الباب بعد ثلاث دقائق تقريباً. استقبلني وجبينه يقطر عرقاً ثم خرجت بعده قنديل زوجة جاره المرحوم مُعيط (مات إثر الحمى) ترحب بي.

تناول أعمامي اللحم بشراهة ثم راحوا يمضغون القات، وفي منتصف التخزينة[٤٨] راح كُلٌّ منهم يُقلّب كفيه، ويتمتم في نفسه. قال عمي هزّاع: "نقطع زُبّه[٤٩] ونعطيه للكلاب". فرد عليه عمي مُكابر: "لا يا أخي، نروح[٥٠] إلى عند شيخهم عظروط في الليل ونجبره يصدر حُكماً على طاهر ليتزوج رحمة بالقوة، وإذا رفض الشيخ سنُعظرِطه[٥١] نُحن ونربطه من شنبه إلى الشجرة حتى يوافق". أما أخي قال لي: "لقد حذرتك يا زهر الغرام ولم تسمعي كلامي، وسيحصل لبناتك الأخريات كما حصل لرحمة. زوّجيهن من عشيرتنا أفضل".

أصر كُلٌّ من أعمامي على رأيه، وراح كُلٌّ يشتم الآخر. أعرف حتى ولو ضربوا طاهر أمام الناس، سيظلون يسخرون منه سنيناً، لكن هذا لن يعيد حق ابنتي المغتصبة. سألت ابني عن القات الذي اشتراه، أفادني بأنه اشترى قات "جدّة"[٥٢] تأكدتُ أن أعمامي قشّشوا[٥٣] ولن أخرج بائي حلٍّ منهم. سمع الجيران شجارهم فخرجوا من أكواخهم وكان أعمامي كُلٌّ منهما مُصرٌّ على رأيه. هذه طباع مجتمعي بعد مضغ القات بكثرة يفقدون صوابهم أحيانا، لكنني لم أندم على التيس فهم من النادر أن

---

[٤٨] منتصف وقت تناول القات
[٤٩] ذكره
[٥٠] نذهب
[٥١] نضربه
[٥٢] يسبب الهلوسة للبعض
[٥٣] فقدوا القدر على التفكير السوي

يشبعوا من اللحم إلا أيام الأعياد، حين يمرون على القرى ليضربوا الطبول فيعطونهم رؤوس الذبائح والكروش وبعض اللحم.

عدتُ إلى داري خائبة وأسرع نصر ليضرب أخته، وحلف أنه سيغسل عاره. يصيح: "كيف أواجه الطلاب في المدرسة يا أمي؟! بالذات محمد ردمان يكفي أنهم يذكرونني بخالي وبكِ، والآن برحمة. لا أستطيع العيش في هذه القرية". بكيت وقلت له: "ستتركني وحدي؟" ثم اخبرته بسرٍّ فهدأ.

أتى الشيخ مجبور إلى داري ليقنعني بقبول الحكم. عرفتُ أن له مصلحة في ذلك؛ فهو سيطلب مني مالاً هو والشيخ عظروط إذا قبلتُ التعويض منهم؛ وهكذا هم شيوخ القبائل. رمقت نظراته وهي تلحسني من رأسي حتى أخمص قدمي. في تلك الليلة زارني حبيب في المنام بوجه غاضب يشتم ويلعن، ثم رأيته يمشي في الطريق ونحن خلفه لا أدري إلى أين! قلتُ له بفرح: "الحمد لله أنك عدت لتأخذنا معك" ثم أسرع ولم نستطع اللحاق به. صحوت من حلمي ودموعي على خدي، أحدث نفسي بصوت مسموع: "لماذا فضلّت أن تموت في القرية!..."

في اليوم الثالث أرسل الشيخ مجبور زوجته الثانية مرجانة لتخطبني له. جلست تحدثني بكلام فاحش دون حياء... أثارتني، أظنها كانت تستدعي زهر الغرام القديمة فيّ، وأكدت لي أنه سينتقم لرحمة إذا وافقتُ على الزواج منه. لم أخبرها برفضي، وقلتُ لها: "سأفكر في الأمر". لكن

تلك الزيارة سببت لي مشكلة؛ حيث جاءت ثلج اليوم التالي أخبرتني أن الخادمة مرجانة تقول إنها أتت تخطبك لزوجها الشيخ مجبور وأنك وافقتي! صمتُ دون رد، ففكرتْ أنني موافقة على الزواج.

في اليوم الرابع من زيارة الشيخ مجبور لي عاد ابني من المدرسة باكياً. قال: "لن أذهب إلى المدرسة، الطلاب يسخرون مني. يقولون إذا تزوجتْ أمك شيخ الأخدام ستصبح أنتَ شيخاً، وراحوا يدعونني: "يا شيخ، يا شيخ. متى سنهرب من القرية؟". همستُ في إذنه حتى لا تسمع شقيقاته، ضحك مباشرة وقال: "دعيه ينتقم لنا وبعد ذلك أرفضيه".

بعد أسبوع أتى أخي مرجان يعاتبني، كيف رفضتُ صديقه وقبلتُ بالشيخ مجبور وهو متزوج ثلاثة نساء، وصديقه أصغر مني بكثير! وعلى استعداد لأنْ يضرب طاهر في السوق ويهين شرفه. عاد أخي وقد أقنعته أنّي لن أتزوج أحداً بعد حبيب، ولم أعد أتذمر من تردد أخي مرجان علينا، وأسعدني أن فتى منّا طلب رحمة للزواج. وافقتُ على ذلك لكن ابني رفض بشدة. حضر أخي برفقة صاحبه إلى دارنا، حين شاهدته رحمة بكت، قالت إنها تفضّل أن تعيش حياتها عزباء ولا تتزوجه. قلت لها: "يا ابنتي يمكن أن تغيّريهِ وتفعلي ما فعله أبوك معي" لكنها رفضت بشدة.

لم أجد وسيلة أخرى غير الاستنجاد بالأولياء، لينصفوني من أهل القرية. رغم أننا لا نفعل فعلهم هذا، لا نرى للأولياء قدرة خارقة وهم فوق

الثرى فكيف وهم تحته. لكنني ذهبتُ إلى ضريح الولي الملّقب بـ" الوجيه" حيث هم يتقربون إليه بالسمن والبيض والذبائح، يدعون عند ضريحه ويتبركون به ويؤدون له الموالد، يقيمون له تجمعاً سنوياً مهيباً، وبني عشيرتنا يسيرون معهم في المقدمة، يضربون طبولهم والقبائل يرقصون خلفهم رقصة الحرب.

ذهبت إلى ضريح الولي فجراً حتى لا يشاهدني أحداً، وعلى بعد خطوات من الضريح، وقفتُ ولم تعد قدماي تتحركان إلى الأمام! بقيت بعيداً عن الباب وضعت قارورة السمن هناك، ودعوت باكية أن ينتقم لي مِن طاهر الذي جلب لأبنتي ولي العار. أثناء العودة قابلت بعض نساء القرية يحملن السمن والبيض والشمع للولي، وعرفن أنني كنت عند ضريحه. أشيع في القرية أني دنّست ضريح ولي الله. حلفت لهم بأنّي لم أدخل ضريحه بل بقيت بعيداً عنه. قالوا: "قسَم الخادم لا يُقبل" لكن الحاج عبد الرؤوف صدّقني وزجرهم ليكفوا عني.

كانت فاطمة سعيدة لِما جرى لأبنتي رحمة، واتهام القرية لي بدخول قبر الولي، وراحت تلوث سمعتي وسمعت بناتي، وتحث القرية على طردي مع أولادي، ليس لأنني كنتُ ضُرتها فحسب؛ بل لأن ميراث حبيب الدين كان سيؤول لأولادها كاملاً. أغضبني أكثر هما علي وثابت لم يقفَا بجانب أختهم رحمة، أما حقد أمهم حوّلته لمصلحتي ذات يوم،

ذكرتها وأنا أغني على خشبة المسرح، لأدفع نفسي نحو النجاح، وددتُ حينذاك لو تكون فاطمة أمامي وكذلك أهل القرية.

حبستُ رحمة في الدار، وأغلق عليها الباب بالقفل حين تكون فيه وحيدة، لست أدري هل خوفاً منها أو عليها!، حينذاك تذكرت حبيب وبكيت على فقدانه، وسامحته على شكّه بي في بداية حياتي معي. أخفيت رحمة عن الأنظار، وفي نفس الوقت اختفى طاهر من القرية! اجتمعت القرية في ديوان تاج الدين، فخفت أن يستغل الحضور ضدي. أتهمني أهل طاهر أنني مع أهلي وراء اختفاء ولدهم، وقرروا اجبار أخي وأعمامي للحضور إلى شيخهم عظروط بالقوة، ورحت أتخيل المعركة لو رفض أهلي الانصياع، لكن عبد الستار شهد أنه رأى طاهر وهو يغادر القرية واطفاء الفتنة. حقّاً كنت حين أرى طاهر الدنس أود أن أكسر رأسه بحجرة وأخفيه تحت التراب؛ لأنّي لم أجد الإنصاف من أحد. هكذا هم الكثير من الأسياد يأخذون بثأرهم فيما بينهم؛ لغياب العدالة في البلاد!

لم أعد أطيق نظرات الأهالي، أكانت تشمت بنا أو ترثي حالنا! بعت أغنامي والبقرتين والعجل الصغير، وأعطيت الحاج عبد الرؤوف نصيبه. بقيت أنتظر امتحان الثانوية العامة فوق جمر العار، أما نصر هدأت ثورته للانتقام من طاهر ولم أعرف السبب! حدثتُ نفسي أنها نهاية الأحزان في القرية لكنه ظلت تلاحقني؛ حيث أتت ثلج ذات صباح

قبل سفرنا من القرية ببضعة أيام تخبرني أنها حامل في بداية شهرها الثالث، وأن لها علاقة مع ابني نصر. يا للهول من فاجعة إلى أخرى! أمسكت برأسي وأنا أشعر أن الأرض تميد بي، سيعملون بالعُرف لإجبار ولدي على الزواج من امرأة بعمر أمه. أخبرتها وغيظي يكاد يخنقها أنني سأجد حلاً للمشكلة؛ فهدأتْ. قلت: سنسقط الجنين ولن يعلم أحداً بهذا الأمر. رفضتْ في البداية، وقالت إنها ستقبل أنها تتزوج ابني. كتمتُ غضبي وقلت لها: "سيلحق بك العار مرتين (فغر فمها وأنصتتْ جيدًا) سيقولون إنك اهدرتي شرفك لابن الخادمة، وأنك زانية، حبلتِ من زنى، وستنبذك القرية مثلي طول عمرك، سينادون ابنك مستقبلاً بابن الزناء، وسيكرهكِ. ها أنتِ ترين ما يعاني أولادي رغم أن أباهم منكم. هذا إذا لم يطبقوا عليك حدّ الزنى بعد أن تضعي حملك، وسيقلون إنك أغريتِ ابني وهو في سن اولادك وسيقع اللوم عليك كاملاً". رأيتها مستسلمة لما قلته، ثم حضرتني ثورة غضب وفجأة ضربتها بيديّ الاثنتين معاً أسفل ظهرها بقوة، ثم على بطنها وأنا أحدث نفسي: "كيف يتزوج ابني قحبة!..." أظنها سمعتني. عيناها الخائفتان كانتا تنظران إلى غضب عينيّ المتأجج. حقًّا صرتُ شيطانة أمامها! جعلتها تقفز من فوق السرير إلى الأرض عدة مرات؛ حتى سال الدم منها. قبل أن تغادر قالت لي بخوف ودهشة: "أظنك كنتِ ستقتلينني يا صاحبتي لو لم أسقط الجنين. كنت أرى قبري أسفل الدار كما قتلوا!... سألتها مَن هو؟! أخذت تهز سبابتها

أمامي وتقول وهي مرتبكة: "لا أدري، لا أدري!..." وخرجت من الدار قبل غروب الشمس تمشي ببطاء وقد ائتزرت بحفّاضة جيدة. فرحتُ قد يكون المقتول هو طاهر الدنس.

عرفت لماذا أصيب ابني بالوهن، ليس بسبب مجهوده في القراءة ليلاً كما كان يقول لي. قلت له إنني عالجت الأمر مع ثلج، فرح برهة ثم همس لي بغضب: "انتقمت لأختي رحّمةْ. لم أجد طريقة أخرى تشفي غليلي ولو عرفوا سأقول أنني انتقمت لأختي، أنتم لم تنصفوها، وقفتم صفاً واحداً ضدنا". أخبرني كيف كان يختليان معاً، كانت تأتيه أحياناً إلى صّبْل الرعيان، وأحياناً أسفل الدار في عِطن البقرة حيث الظلمة... ادِّعاؤه الانتقام من أهل القرية عن طريق ثلج، ذكّرني بطريقة انتقامي من ضُرتي فاطمة عن طريق حبيب لأنسيه إيّاها! ضحكت وأنا في غياهب الحزن!

قبل هروبنا من القرية ببضعة أيام دخل نصر مبتهجاً يخبرني سرّاً، ولأول مرة أراه البهجة في عينيه بعد موت أبيه. قال: "لم أعد وحيداً يا أمي! اليوم عرفت أن لديّ إخوة". وضعت كفّيَ الفرحة على كتفيه، وهززته استعجلته ليخبرني عن هذا التغير المفاجئ من قبلهما، فأخبرني بسر خطير: " إن علي وثابت يعرفان سر اختفاء طاهر، وأخبراه أن يبقى السر طي الكتمان". سألت نفسي: "بدهشة ترى هل أرادت ثلج أن تقول لي ذلك ولم تجرؤ؟! ولماذا شهد عبد الستار بأنه رأى طاهر يغادر

القرية؟! هل أشترك مع علي وثابت؟! وأنتقم لصديقه المرحوم وله علاقة سرّية مع ثلج؛ فالطيور على أشكالها تقع". بشهادته تلك أنقذ أهلي، كانوا سيجبرونهم على الاعتراف بالقوة تحت التعذيب بشيء لم يفعلوه، وقد سمعتُ أن الشيخ عظروط يربط خِصيّة مخالفيه ليطيعوه. سبحانك ربي! عبد الستار الفاسق أنقذ أهلي، حافظ على سر زواجنا أربعة عشر سنة، الوحيد الذي كان يقف في صفّي مع الحاج عبد الرؤوف ضد كراهية أهل القرية لي! فعل ما لا يفعله الأتقياء منهم. كيف هذا يا ربي؟!

قابلت علي وثابت وشكرتهم بابتسامة، أردتُ أقبّل رأسيهما لكنني أعرف أنهما لن يقبلا. حدثت نفسي: "لا يهم مَن الذي أنتقم لرحمة أكانا شقيقاه، أهلي، أو الشيخ مجبور أو عبد الستار!... يكفي أنهما أثلج صدر ابني وشدّا من عزمه، وأحس بمعنى الأخوة التي لم يكن يعرفها من قبل. بدأت الافراح تفرش ورودها أمامي، كما كانت الأحزان تفرش شوكها.

حقّق نصر نسبة كبيرة في الثانوية العامة، باركا له أخاه وأتيا إلى دارنا يباركان لي أيضاً. عمّت البهجة داخل الدار وابتهجت حين ناداني ثابت يا خالة. سألتهما: "هل تدري أمكما أنكما هنا؟"، رد ثابت بضجر: "لقد مللنا من كُرهها لكم ولم نعد نتحمل نصائحها الخاطئة. درسنا في المدرسة يا خالة إن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بينهم إلا بالتقوى، وكنا نعرف أنك تصلّي وطعامك وبيتك نظيف وأحبك أبي كثيراً، ولولا وجود هذه الصفات فيك لمَا أستمر مرتبط بك، حتى آخر أيامه

عاش معك أنت". بكى علي حين ذكر أباه وابكاني معه، ثم ضحكنا معا واختلطت الدموع بالضحك. قلت له: "عاش أبوكم معي سعيداً، ولم أمانع يوماً من سفره إلى القرية وكان يقضي أيام الأعياد معكم، لم أنافس أمكم كما تنافس الضُّرة ضُرتها، وهذا ما لا تقدّره هي. أبوكم رجل عظيم عمل ما لم يستطع عمله الغير، رأيته رجلاً حُراً من أرث الماضي الخاطئ وظُلم العادات. أخذني أبوكم يرقةً وجعلني فراشة، لكن القدر أعادني إلى الشرنقة".

جاء التقارب بين ابني وبين إخوته متأخراً بعد أن خططتُ للهروب برفقة أولادي من القرية، كما هربت أول مرة مع أبيهم، حيث سيحظين بناتي في المدينة بأزواج لا يعرفون أصلهن، وكذلك ابني سيعيش في مجتمع آخر وسيعمل ويدرس في الجامعة. أخبرت الحاج عبد الرؤوف بقراري وطلبت منه مساعدتنا سراً، شكوت له خوفي على أولادي، فلا مستقبل لهم في القرية سيضيعون بين هامش المجتمعين. وعدني بالمساعدة وأدخل السرور إلى قلبي ومدّني بعزم الرحيل.

ذهب ابني يزور اخوته في دار أبيهم فلم يجدهم، وعاد حزيناً ولم يخبرني سبب حزنه لكنني ألححت عليه فأخبرني، بأن خالته فاطمة قالت له: "لا تدخل بيتنا يا ابن الخادمة ولا تقرب من أولادي!". كما فعل محمد ردمان، حرّض عليّ الآخرين ينادونني بابن الخادمة بعد حصولي على المركز الثاني في الفصل.

أخبرته أن خالته ضُرة تضر وحاقد عليّ من زمان، تراني أنني خطفت زوجها منها وأنها عاشت مغدورة أربع عشرة سنة، لم تعلم بزواجي من أبيك وذكّرته بيوم وصولنا إلى القرية، فضحك وراح ذكّرني هو بموقفها وهي تشد شعرها، ما لم تعمل مثله حين مات والده. سألني: "هل ممكن يا أمي أنّ الزوجة تفضّل أن يموت زوجها على أن يتزوج عليها خادمة؟! لازلت أذكر وهي تقول "لو كنت مُت يا حبيب الدييييين ولا تزوجت عليّ خادمة!" وهي تلطم خديها." قلت له: "نعم وإذا أراد سيدٌ إهانة سيدٍ آخر يُسلّط عليه خادماً يضربه"، فأضحكتُ ابني ومسحت عنه الحزن.

الجزء الثالث

الفراشة

رقصتْ ليّ الزهور وصارت بتلاتها أجنحة لي، أحلّق بها في السماء

الفصل الأول

لبسنا العباءات أنا وبناتي، وخرجنا قبل شروق الشمس وفي الطريق، شاهدتنا بعض النساء ولم يعرفننا؛ كنا ملثمات وكذلك نصر وضع الشال حول فمه. إحداهن كانت دندنت بصوت لم يعجبني:

ماشتيش أني قاتكْ منِ الجعاشن.. لا يأكلهْ خادمْ ولا دواشنْ[٥٤].

توقفت قليلاً أشاهد طريق هروبي الأول من القرية مع حبيب الدين قبل ثمانية عشرة عاماً. خرجنا خفية في جنح الليل يدفعنا الحب والخوف معاً للمضي إلى طريق العربات، مشينا ليلاً على طول الوادي وواجهنا أمامنا ثلاثة رجال يسوقون حميرهم وهي محملة بالبضائع. أطفأ حبيب الكشاف وتوارينا خلف إحدى صخور الوادي بحذر ومروا بالقرب منا. أحدهم كان يقول: "يا عبده صالح، أنا رأيت ضوءً متجها تجاهنا كيف اختفى؟! وقفوا أمام الصخرة التي نحن خلفها. قال أحدهم:

- أنا أشم عرف خادمة!
- مو عرّفك بعرفهن يا صالح؟!
- يا مُكرد أقول لك لمّا يعرقينْ يكون عرفهن شمات

[٥٤] طبقة مهمش منزلتها أرفع منزلة من الأخدام

- ممكن يكونوا من رجال الجبهة الوطنية ما يتغسلوش إلا بالشهر مرة. لا تخف منهم، أنت تعرف أنهم لا يؤذون أحداً إلا المشايخ. نحن حمّارة[٥٥] مو[٥٦] معنا.

زاد العرق يتصبب مني، خوفا أن يدور الرجل الفاسق حول الصخرة ويرانا، لكن الرجل الآخر قال له:

- والله ما تشم إلا عرف الجن خرجوا من الضاحة. أكيد قد نمت مع خادمة يا وسخ. هيّا أمشِ بسرعة لنصل السوق قبل الشروق، كيف لو واجهنا طاهش[٥٧]!".

حمدت الله أنهم ابتعدوا. مشيت بخفة في الوادي أمام الحب وهو يضيء الطريق بالكشاف ثم صعدنا طريق الجبل، وحنانه يحدثني ما لم أسمع مثله من قبل. آنذاك شعرتُ أنّي فراشة خرجتْ من شرنقتها أطير إلى عالم السعادة، حتى أنّي لم أحس بالأم حين تعثرتُ وأصيبت أصبع قدمي اليُمنى وأنا حافية القدمين. شاهد حبيب الدين دماً فوق الصخور التي أمشي عليها، وهو يمشي خلفي، فأوقفني ونظر إلى قدمي. توقفنا وقطع قطعة صغيرة من شاله لربط أصبعي المصابة. أحسستُ بحنان يديه يسري في جسدي كله وهو يربط جرحي، وودتُ لو أني أعانقه وليفعل بي ما يشاء على قارعة الطريق! لازلتُ أذكر قوله: "سأحملك

---

[٥٥] مالكي الحمير
[٥٦] ماذا
[٥٧] أسد

على ظهري إذا لم تستطيعي المشي!" لم أستطع التعبير له عن حُبّي سوى قبلة فاجأته بها على خده المُتعرّق.

وصلنا طريق العربات صباحاً، شاهدت ولادة جديدة لي وفجراً آخر. أوقفني حبيب بعيداً عنه وذهب لكي يتأكد من عدم وجود أناس يعرفونه. انتظر السائق ساعة حتى يحضر مسافرون آخرون، ووقف حبيب بعيد عني، يتلفت يمنة ويسرة. ركبنا السيارة وسمعته ينفخ في الهواء، أما أنا شعرت أنني أركب بساط الحب، وقلبي يدندن:

"جِزعتْ[٥٨] أرض الله سَيّبتْ[٥٩] بلادي.. لما لقيتْ اللّي على مرادي"

أخرجني ولدي نصر من ذكرياتي التي أجدها سلوتي عن أحزاني. قال: "لِمَ توقفتِ يا أمي؟!" مسحتُ طرفي المرتع بالذكرى وأنا أشاهد فجراً آخراً كما شاهدته يوم هروبي مع حبيب من القرية.

التفت إلى الخلف ونحن نبتعد عن دارنا، خُيّل اليّ أن حبيب يقف فوق سطح الدار يودّعنا! فازداد الحزن يسيل على خدي! انحدرنا من جبل قرية الدّقم ووصلنا الوادي وقابلنا عبد الرؤوف، كان ينتظرنا في الوادي بجانب سيارة يسوقها رجل لا يعرفنا. ساق السيارة على طول الوادي وهو يتحدث مع عبد الرؤوف. وعند صعود جبل "الأغابرة" تعثر السائق في السواقة، ووقفت السيارة في أحد المنعطفات الخطرة أمام قرية "المركوز". برزت فيّ زهر الغرام القديمة بغرورها تقول له: "لماذا لا

---

[٥٨] عبرتُ

[٥٩] غادرت

تصعد بالجير الأول! وأنت تضغط على الكِيلش قليلاً، أو عادك تتعلم السواقة؟!". تفاجأ السائق وقال: "والله إنك تعرفي السواقة! خَينا[٦٠] أنت الخادمة زهر الغرام!" قلت بسرعة: "لا، لا أنا مُش زهر الغرام" ولطمتُ فمي، أحدث نفسي: "متى سأتخلص منها للأبد؟!" أجدها تسكن في قعر ذاكرتي. أسعدني الحاج عبد الرؤوف ونحن في الطريق! حيث قال أنه سيجد عملاً لنصر عند أحد التجار.

وصلنا طرف مدينة تعز، ومشينا في نفس الشارع الذي مررتُ فيه من قبل، ومازال المطعم الذي تناولنا فيه افطارنا أنا وحبيب قبل ثمانية عشرة عاماً يستقبل زواره. عادت بي الذاكرة وأنا برفقته أغسل يدي بالماء والصابون عدة مرات، وتأكد من غسل يدي قبل أن نأكل. جلست على الكرسي فشعرت أنّي أجلس على عرش السلطان، ذاك العرش الذي وصفته أمي وهي تحكي لنا حكاية بنْت السلطان التي أحبّت راعي الأغنام. تناولتُ إفطاراً لم أتناول مثله في حياتي. أكلت بشراهة ولم يعتب على طريقتي في تناول الأكل، لكنه زجرني بكلام مشوبا بالحب حين مسحتُ فمي بخلف يدي وهو يلتفت حوله علّ أحدهم يشاهدنا. خرجنا من المطعم واشترى لي رقيص (حذاء) وتوجهنا إلى الحديدة بسيارة أجرة برفقة مسافرين. أثناء الطريق كان العرق يتصبب مني كلما اقتربنا من المدينة أكثر. أخجلتني بسمته وهو يمسح أنفه؛ فقد كان لي شهراً منذ أن

[٦٠] احتمال

اغتسلت آخرة مرة. تلك الذكريات كانت تمسح عني جراحات الحاضر وتبلسمها.

عبرنا شوارع عدة في مدينة تعز إلى أن أوصلنا الحاج عبد الرؤوف إلى منزلٍ صغير يقع جهة عُصيفرة.: غرفة واحدة، صالة صغيرة، حمام، مطبخ.. يسكن ذاك الحي بعض مولّدي الحبشة، قريب من حي بني جلدتنا، يشمخ بجواره فندق "الرحمة" خمسة نجوم. فرشنا المنزل مما جلبناه من القرية من فرش، لم تكفينا البطانيات لكن الجو كان دافئاً. أول ليلة رقدتُ نوما عميقاً بجوار بناتي في الغرفة دون عشاء، واتخذ نصر مكاناً له في الصالة.

أشرق صباح جديد في حياتنا، يحمل مستقبلاً جديداً بعيداً عن نكد وذل القرية. جاء الحاج عبد الرؤوف واصطحب نصراً معه، وعرّفه ببعض التجار ليعمل حمّالاً مع الحمّالين. عاد أول مرة من عمله وثوبه متسخاً، أحسستُ بتعبه كما أحس بفرحه وآلامه أيضاً، لكن المال الذي حصل عليه أنساه التعب. بسطه على أرضية الغرفة مبتهجا بمنظره، وبقى يشاهده، وعده عدة مرات. قال لي بفرح: "لو أكسب كل يوم مثل ما كسبته اليوم لمدة خمس سنوات سيكفي لشراء أرضية وبناء غرفة كبيرة وحمام". قلتُ له: "يا نصري أريدك أن تحلم ببناء مستقبلك في الدراسة وهو الذي جعلني أترك القرية من أجله. ستعمل حمّالاً بعد دوام الدراسة

وأثناء العُطل فقط، وسأبحث لي عن عمل، فقد جعلتني الفلاحة أكثر قُدرة على تحمل أعباء الحياة".

كان نصر يعود كل ليلة من العمل منهوكاً ورائحته غير طيبة، لكن فرحي به كان يشمّه عطراً. أعدُّ له الحمام وأسرع لتقديم وجبة العشاء قبل أن ينام. كانت سعاتي لا حدود لها! أصبح ابني رجلاً أعيش تحت ظِله، قادراً على مواجهة الصعوبات بدلاً عن أبيه الذي ترك لي ثلاث بنات وولد، وما أصعب تنشئة الأبناء تنشئةً صالحة في غياب الأب. عرفتُ هذا بعد أن تركتُ عشيرتي التي لا تهتم بالتربية الجيدة، يرون المولود مصدر عيش لهم، يكسبون المال من ورائه في الصغر بالذات في المدن. تحملهم أمهاتهم ويسرحن بهم في الطرقات لكسب قوت اليوم، وحين يكونوا قادرين على المشي تتلقفهم الشوارع.

شاهدتُ بؤس بني جلدتنا وشعرتُ بعاطفة نحوهم. تمنيتُ لو أن الدولة تنظر إليهم بعين المسؤولية والدين تجاههم، لكنها لا تراهم جزءً من المجتمع!. كان نصر يحدثنا عن عمله وعن صداقته مع حمّالي السوق...وعن التجّار، قائلاً: قائد علي، اسم متجره "العملاق"، يقال عليه أنه مُهرَّب والناس تشيد بقدرته، والتاجر شريف عبده أبو كرش يستورد البضاعة من الصين يبيع للصوماليين والإرتيريين، يقال عليه مغرم بالجنس الأسمر، وأما المقش تجارته متنوعة ومقلّدة في الصين، والبرنس يتاجر بالمواد الغذائية، يورّد المُعلّبات قريبة الانتهاء!...

ذات يوم وجدت سائلاً مُخاطياً في مرحاض الحمام بعد خروج نصر منه، فأخذت نصراً إلى الحمام وضحكت معه. قلت له: "في القرية كنت تنتقم لأختك رحمة من صديقتي ثلج، وهنا في الحمام ممن تنتقم، فخجل وأحمرّ وجهه، فهو لم يتوقع أن أكشفه، ثم قلت له: "الحِمالة تحتاج إلى قوة، فلا تستنزف قوتك في الحمام!". بقى بضعة أيام يشعر بالخزي مني! أما أنا فلم أخجل، لست أدري! هل لازلت أعيش بعض سلوك بني جنسنا؟! أم هو الخوف على ولدي؟!

خفتُ عليه من المجهول كما خفتُ على أبيه من قبل، وخفتُ على شقيقاته أكثر. لم أسمح لهن بصحبة نساء الجيران، ذلك الخوف جعلني أعذر زوجي المرحوم على عدم السماح لي بصحبة جيراننا في الحي بداية عهدنا معاً، إلا بعد أن اجتزت كل اختباراته. حذرتهن ألا يخبرن أحداً عن أصلنا حتى لا يسعوا لجرهن إلى الرذيلة، وحذرتهن من المثليات وكيف يسحرن الأخريات. لم تفهم رحمة؛ فقلت لها ما كانت تعمله نصيرة معي. ضحكتْ وقالت: "هذا يعمله الرجال يا أمي، مُش معقول تعمله النساء!". التفتنا جميعاً نحوها فجأة، فاحمرّ وجهها خجلاً، فلديها تجربة مع طاهر. رحت أفكر: "ترى هل سلّمت نفسها له وادّعت أنه اغتصبها؛ ليجبروه على الزواج منها؟! هي تعرف أنه لا يقبل أحدهم أن يزوّج ابنته لرجل ربّته خادمة ولو هو ابن سيدٍ منهم، فكيف لو كانت أمه كذلك!" أصبحتُ خائفة من سلوك رحمة، وتوقعت أن تقع فريسة

سهلة لرجل يغويها، فأنا لا أثق باستقامة الحي الذي نقطن فيه، يقع بالقرب من حي الرحمة الذي يقطنه بنو جلدتنا والفندق، وجيراننا الكثير من مولَّدي الحبشة (أم حبشية وأب يمني) أخبرت الجيران أنني مولّدة؛ لكي نعيش في كرامة.

الفصل الثاني

أخبرني نصر عن رغبته في الالتحاق بكلية التجارة، وحدثته عن أمنيتي فالتحق بكلية الشريعة والقانون، حدثني في بداية الدراسة أنه يتوارى حين يشاهد أحداً من أبناء قرية الدُّقم في الكلية سيّما محمد ردمان، فأخبرته أن التفوق في الدراسة هي الوسيلة الوحيدة لإسكاتهم، وعليه أن يعتز بعلمه وبنفسة وألا يخشى أحداً وهذا ما حدث له. حيث ذات مرة قال لي:

–دعاني أحد الحمّالين يا "ابن الخادمة!..." وقد قال لي سابقاً أنني قوي مثل الحمالين الأخدام. عرفتُ قصده وسكت عنه ابن الزنوة. حينها غضبتُ وشتمته قائلا: "أنت ابن قحبة، لماذا تذكر أمي هي أشرف من نسائكم؟! وقف اخدام حي الرحمة بجانبي، ووقف الحمّالون القبائل الآخرون مع صاحبهم. كاد أن يحدث عراك بيننا. فرحت أنني وجدت من يقف إلى جانبي، عكس ما كنت عليه في القرية وفرحتُ كذلك بصداقتي مع الأخدام، هم يحترمونني ويستغربون كيف سيّدٌ من علية القوم تزوج منهم؟! وأخبروني أنهم سيساندونني وسيقفون معي في أي وقت. هم أقوياء يحملون الأشياء الثقيلة، أفضل من الحمالين الآخرين

وبأقل تكلفة. صادقت اثنين منهم: رُقيع ومُشاكس هما نظيفان. يصليان معنا، لكن رجال القبائل لا يتناولون الطعام معهم ولا تشرب!

لم يكن يكفينا ما يكسبه نصر من مال، كانت دراسته تأخذ منه الوقت الأكبر؛ فقررت أن أبحث عن عمل. وجدتْ لي صديقتي مريم إحدى المولّدات المسيحيات عملاً في أحد بيوت الأثرياء.

بعد أسبوع بدأ صاحب البيت يراودني رغم جمال زوجته، لكنها قصيرة وسمينة. كانت كثيراً ما تخلع ثيابها أمامي، فأبقى خلسة أشاهد بشرتها الناعمة البيضاء. أحببتُ أن أمرر كفي وأمسح على جسدها. لعنت الشيطان مراراً الذي يريد أن يغويني كما أغوى نصيرة! عرفت فيما بعد لماذا كان صاحب الدار كريماً معي! يأمر زوجته لتعطيني من مستلزمات المطبخ، لكنها لا تطيعه، بل هي التي كانت تملي عليه أوامرها!... قارنتُ رجولته بحبيب، وتذكّرت حين لطمني ذات مرة، وذهبتُ لأقبّل يديه حتى لا يغضب مني أكثر، وكانت تلك ليلة ممتعة لي أكثر من غيرها في الفراش، ذلك شيء عجيب لم أفهمه! في اليوم الثالث فكرتُ أن أثير غضبه ليعاقبني لكنني، لعنت الشيطان وخفتُ من ادماني على الضرب قبل فراش الحب.

أظن صاحب البيت على العكس مما كان عليه حبيب؛ لهذا وجدته ينتقم منها بخيانته لها، كما عمل ابني حين راح ينتقم من المجتمع بواسطة صديقتي ثلج. يا له من انتقام! أظنه كان يكذب على نفسه بهذا

الانتقام الممتع. قمت بعملي بمهارة وأنا أقاوم اغراء صاحب البيت، الذي أيقض شهوتي النائمة، وما أصعب كبتها عند المرأة! أمام من يراودها في نفسها، هذا ما لم يعرفه الرجال. كانت زهر الغرام القديمة أحياناً تبرز فيّ كشيطانة الغواية تغريني لأنام مع الرجل!

ذات يوم اقتادتني زهر الغرام القديمة إلى الحمام لأقوم بتنظيفه، تركتْ الباب مفتوحاً وراحت تدندن...وكان صاحب البيت بالقرب من الحمام. داخل خلفي فجأة وأغلق الباب من الداخل. ضحك كالأبله، فجأة عادت زهر الغرام الجديدة فيّ وتلاشت القديمة، وجعلت صاحب البيت يعوي مثل الذئب، وقد انعطف للأمام ويده أسفل بطنة...

لم أعد أعمل شغّالة في المنازل. كنت في تحدٍ مع نفسي لأنافي سلوك نساء بني جلدتنا. سألتني مريم عن سبب تركي العمل في ذلك المنزل، أخبرتها عن السبب فضحكتْ ووصفتني بالغبية! مكثت في البيت دون عمل، نكتفي ما يحصل عليه نصر من عرَق جبينه.

ذات يوم عاد من عمله مصاباً بالحمى، فخفت أن يكون قد زار حي الرحمة، ورحت أخفف الحمى عنه وهو يحدثني عن صديقه مُشاكس بأمرٍ حيره! قال: "يا أمي، اليوم عرفت أن هناك طبقة من البشر أدنى من الأخدم في بلادنا! يقال عليهم (مَجاربة)[٦١]، يسكنون في محافظة حجّة. أخبرني عنهم مُشاكس وهو سعيد أنه ليس مجربي. يأكلون الميتة

[٦١] طبقة أدنى من الأخدام

ويحقدون كثيراً على غيرهم. اندهشتُ! وفي نفس الوقت فرحتُ أن هناك طبقة أدنى منّا. قلت له: "أنا أعرف يا ولدي أن هناك أحجور يسكنون منطقة: الراهدة، أبين، لحج، أخبرني أبي عنهم، وهم طبقة يرونهم أرقى منّا، ثم ضحك وقال: مايزال يوجد عبيد يباعون ويشترون بالصكوك وأولادهم عبيد لسيدهم! عند أسر ثرية في إحدى محافظة البلاد المجاورة للحدود مع جيراننا. ضحكتُ مع مشاكس وقلت له:

- يا سلام يا صاحبي أنتم أربع طبقات: "عبيد، أحجور، أخدام، مجاربة".

ضحك ساخراً مني والطعام في فمه، وطار رذاذه إلى وجهي وقال:

- وأنتم عند قبائل شمال ست طبقات: الهاشميون، القبائل، البيّع[٦٢]، الصَنَع[٦٣]، المزاينة[٦٤]، والدواشن[٦٥] وطبقتك أنت السابعة، لا أنك خادم ولا قبيلي. الهاشميون لا يصاهرون القبائل، وهم بدورهم لا يصاهرون الطبقات الأدنى منهم كالمزاينة.
- لماذا لا تتزوج من القبائل الذين لا يعرفون عن أصلك؟! أنت تبدو نظيفاً وسلوكك جيد، لا فرق بينك وبين الصوماليين والأحباش".

---

[٦٢] أصحاب الدكاكين الصغيرة والحِرف اليدوية

[٦٣] الحرفيين

[٦٤] طبقة الحلاقين والجزارين ومزارعي الخضروات وبيعها. هؤلاء انتقلوا من مناطقهم إلى مناطق أخرى نتيجة لما قاموا به من عمل قبيح كالقتل... يستجيرون بالقبيلة التي يحلون بها ويقبلون بالأعمال الدونية التي لا تقبل بها القبيلة وخلفوا أجيالا يعملون عمل أباءهم

[٦٥] طبقة تمدح وتهجو الغير أكثر من اللازم ولا يخجلون

- أنا لا أريد أن أكرر تجربة الخادم سرور، تعّلم وأخذ الشهادة الثانوية في قرية شَمَر وعمل في دكان تاجر وتزوّج ابنته وأنجب منها ولدين وبنت حين افتضح أمره أجبروه على طلاق زوجته بالقوة".

كان نصر يحدثني وهو يرتجف من الحمى، يريد أن أغطيه ببطانية، لكنني لم أفعل حيث نصحونني في المستشفى أن المصاب بالحمى لا يغطى إلا بغطاء خفيف، وحذرته من زيارة حي الرحمة. مرض ابني جعلني أبحث سريعاً عن عمل آخر، فوجدت عملاً بواسطة صديقتي مريم في مستشفى الصحة حيث تعمل هي. عملتُ عاملة نظافة في قسم الولادة، وهناك عشت تجربة فريدة في حياتي؛ حيث تعرفتُ على سامح طبيب النساء، هو رجل أبيض ووسيم، أزرق العينين، أظنه من سلالة تركية أو فارسية كما نحن من سلالة حبشية. سمعتُ الممرضات يتحدثن عنه، ومحاولة العازبات إغرائه بالزواج منهن. أخبرنني أن لديه عيادته الخاصة، يقوم بإسقاط الأجنة الغير مرغوب فيهم، له زبائن كُثر من ذوي الجاه والقِطط السمان.

كنت أكره تصرفه حين يمر بجانبي وأنا في وضع منحنى للأمام أمسح الأرضيات، يظنني مولّدة حبشية. ابتسم له ولا أنهره. شاهدتُ الأخريات يفرحن بمداعبته معهن. أخبرتني صديقتي مريم أن بعض الرجال كالتيوس حين يرون ما يغريهم وبعضهم كالديوك، وبعضهم

كالنحل لا يعودون لنفس الزهرة مرة أخرى. تلك الإثارات جعلتني أفكر في الزواج أكثر بعد أن كنت قد نبذته. بدأت أقف أمام المرأة ورأيت نِعمة المدينة على وجهي عادة مرة أخرى، كما كنتُ عليها في مدينة الحُديدة.

ذات يوم قمتُ اغتسل صباحاً وأنا العن شيطان سامح الذي زارني في الحلم. عشتُ في صراع مع نفسي ووفائي لزوجي المرحوم والتربية التي عشتها في الصغر. ذهبتُ إلى مريم في مطبخ المستشفى الذي تعمل فيه وأخبرتها عن رغبتي في الزواج، وعن الطبيب سامح الذي يوقظ الشهوة فيّ، ولم أعد قادرة على مقاومة رغبة جسدي. ضحكت وقالت: "سامح يفُضّل المولّدات هههه، وهو جيد في الفراش هههه، لن تنسيه أبداً. وراحت تتغزل فيه، لكنني قلت لها: "أريد زوجاً يا مريم لا عشيقاً". ابتسمت وأُعجبتْ بي وقالت عنّي أنني امرأة شريفة وستبحث لي عن زوج من المولّدين. وأنا في طريق العودة إلى البيت كانت فيّ زهر الغرام القديمة تحدثني: " أحمدي الله أنّ دكتور يهواكِ! إضافة إلى الوسامة والمال. لن يعرف أحد ما يجري بينكم، تمتعي بحياتك. اجعليه يلهث خلفك كما سلبتِ قلب حبيب الدين. هيّا قبل أن تفوتك الفرصة!".

وافقتُ على طلب الدكتور للعمل لديه في العيادة مساءً لتنظيفها، وأنا أعرف هدفه من توظيفي. ذهبتُ إلى عيادته وصادف ذلك اليوم يوم إعلان الوحدة بين شمال الوطن وجنوبه. شاهدت الفرح يرقص في كل شارع، والزغاريد تغرّد من النوافذ، والمفرقعات تضحك في سماء البهجة.

شاهدت رجلاً يبكي وهو ينظر نحو السماء ويقول: "دمك لم يذهب هدراً يا شهيد!...لقد تحققت الوحدة يا عبد الفتاح". كان العابرون في الطرقات كُلٌ يبارك للآخر دون أن يعرفوا بعضاً. كان بودّي أن أغني وأرقص في الشارع. أخبرني نصر بعد عودته من العمل والفرحة تكاد تطير به:

- كان الأخدام أكثر فرحاً منّا يا أمي، يغنون، يرقصون، يهتفون: "لا أخدام بعد اليوم!" والمتخاصمون يباركون لبعضهم! لم يبالوا ببعض خطباء المساجد الذين سفّهوا التعدد الحزبي الذي نادت به اتفاقية الوحدة. لن يكون هناك أخدام في البلاد يا أمي. سينقل الحزب الاشتراكي اليمني في الجنوب نظام المساواة، وستسوده العدالة والمدنية سنطبق نظامهم ويدمج الأخدام مع الآخرين ويعاقب من يلفظ بكلمة "خادم". لن يكون هناك رشوة أو محسوبية أو عصبية قبلية أو فساد، ستنكسر تسلّط المشايخ على الدولة ولن يعيق المستثمرين أحد. الوحدة أم الجميع، شجرة عظيمة، يستظل تحتها كل اليمنيين. لن يستطع أحد أن يقتلعها من قلوبنا. لن نفرط بها. وهل يستطيع أحد أن يفرط بأمه؟!

وصلت العيادة متأخرة، شاهدتُ امرأة تترنح وهي تخرج من غرفة المعاينة. مر أسبوعين وبدأ سامح يتغزل فيّ بعد خلو عيادته من المرضى. عشتُ في صراع مع زهر الغرام القديمة، وشرفي الذي اكتسبته من مجتمعهم. وجدتُ أن هناك صعوبة على المرأة أن تبتعد عن الرذيلة

مع وجود مَن يراودها عن نفسها، سيّما إذا كان أمامها رجل وسيم يغويها نهار، وتلاحقها الأحلام به ليلاً!

أشعل سامح شعلة الغَلَمة فيّ، وجعلني أبحث عن زوج وتسرعت في ذلك؛ سيما بعد أن شاهدتُ في عيادته قبل نهاية الدوام موقفاً مثيراً للمرأة من خلال ثقب باب غرفة المعاينة قبل إجهاض فتاة حسناء! بقي فضولي يشاهد إلى أن أرتخى جسدي وتبللت شفتاي، أبلع ريقي عدة مرات! ثم ناداني كما يناديني كل مرة بعد عملياته، ورحت أساعده في حمل الفتاة وانزلناها من على السرير وهي لا تستطيع أن تقف. جلستْ الفتاة غير قادرة على الوقوف نصف ساعة، ثم ساعدتها على الخروج إلى الشارع، وأوقفت لها تاكسي. قلت في نفسي: "مع السلامة يا قحبة، يا خسارة الجمال فيك!". عرف سامح أنني كنت أراقبه؛ فقد فضحتني تعبيرات وجهي، لكنني لم أبح لأحد بأسرار المهنة. وجدت أن المرأة التي تحمل من الزناء لا تخشى الرجال.

حافظت على عملي في العيادة مع محافظتي على شرفي، ولو عرف الدكتور أصلي لطالما أبدو نظيفة، لكان أصر على النيل مني بأي وسيلة، فهم يروننا أفضل من المولّدات. يقولون أننا نداوي ألم الظَهْر أثناء النوم معهم! هههههه.

دعوت الله أن يبعدني عن الزناء، ويرزقني بزوج حلال وقد تجاوزت الأربعين من العمر، كذلك تمنيتُ أن يحظين بناتي بأزواج قبلي، فقد

بلغن السن الذي تكون المرأة فيه بحاجة إلى نصفها الآخر. هكذا كنت أحس أنني نصف إنسان بدون زوج. سعيتُ للبحث عن زوج لابنتي رحمة أولاً قبل أختها الكبرى جليلة من بين شباب المولّدين من جيراننا لغرض في نفسي. أخبرت مريم أن تبحث عن زوج لرحمة فضحكت وقالت: "تريديه لك أولاً أو لابنتك؟! فقلت لها: "أبحث عن زوجين، ولك البغشيش ضعفين"، وضحكنا معاً. قالت: "سأبحث عن زوج لك أولاً؛ فأني أعرف أنك مشتاقة للزوج أكثر من ابنتك. أنت جرّبتِ الرجال، ومن جرّبهم لا يتوب عنهم رغم ظلمهم لنا".

كنت أتمنى رجلاً مثل حبيب شهماً، شريفاً، شجاعاً، حُراً من إرث الماضي. تلك الصفات توارثها نصر عنه، أراه سيحقق حلمي بعد ابيه. وجدته مجتهداً في عمله ودراسته، يعود مساءً متعباً، يظل يذاكر دروسه حتى وقت متأخر من الليل. ذات يوم عاد ضاحكاً على غير عادته، فسُررت لسروره. وقف في وضع قتالي قبل أن ينزع ثيابه، وراح يصف لنا معركة حدثت بين الحمّالين الأخدام والقبائل. رفع قبضته وقال:

- كانت معركة حامية الوطيس، استخدموا القوارير الفارغة والعُصي واللكم والعض. خيل إليّ أنهم حيوانات شرسة في غابة. أوقفوا حركة المرور في الشارع. بدأ النزاع أولاً بين اثنين حمّالين أحدهم من أخدام حي الرحمة والآخر قبيلي، تنافسا على افراغ حمولة

التاجر المقش، الله يقُشّه[٦٦] دائماً يُفضّل الأخدام لقبولهم بالأجر القليل، وهناك تذمّر مسبقاً من قِبل الحمالين القبائل، يترقبون الفرصة لطرد الأخدام إلى منطقة بعيدة عنهم.

استمعنا إلى نصر وهو يصف معركة شرسة، ثم استلقى على الفراش في الصالة. سألته مع مَن وقف وقلبي يدعو له بالسلامة من أي مكروه؟! حك رأسه وقال:

أنا، لم أقف مع أحد منهم، لكنني كنت أرجو أن ينتصر الأخدام، لكن حين كان يُصاب أحد القبائل أحس بالحزن، وحين يُصاب خادم أشعر بنفس الإحساس. أحس يا أمي أن قلبي مع الأخدام وعقلي مع القبائل.

في اليوم الثالث عاد نصر متأخراً من السوق عن عادته، وقد كاد قلقي عليه أن يدفعني للخروج للبحث عنه. جلس يحدثنا: أجرينا انتخابات، واختارنا الخادم "صندوق فرحان" من حي الرحمة ليكون عاقلاً للحمّالين؛ لينظّم العمل بيننا. كسب صندوق صف الأخدام أولاً وهم الذين كانوا سبباً في فوزه رغم أنهم قِلّة. أما القبائل كان رأيهم مُشتت فقد ترشّح ثلاثة منهم ففاز عليهم صندوق فرحان هههه. لم يعترضوا على نتيجة الانتخابات فقد كانت نزيهة، ولولا مندوب الحكومة هو عضو في

[٦٦] يهلكه

الحزب الاشتراكي كان حاضراً، لما وافق القبائل على النتيجة (كيف يرأسهم خادم!).

ذهبتُ معهم للاحتفال بصندوق في حي الرحمة. خرج البؤساء من عُششهم ليستقبلونا وهم يبدون سعادتهم بالرقص والتصفيق!. كيف ذلك وهم في تلك الحالة المزرية؟!

قلت له: "إنه الإدمان على البؤس يا ولدي، أما تسمع من يقول مَن تعوّد على السُّم أكله!"

كان فرحي غامراً على ذلك التغير المفاجئ، أن يرأس أحد من الأخدام مجموعة من القبائل! وأرجعت ذلك الفضل لثمار الوحدة بين الشطرين.

ذات مساء عاد نصر يحمل مُسجلة جديدة فزجرتُه؛ لماذا يبذر بفلوسه. تبسم وقال: "يا أمي اشتريتها من خادم برُبع الثمن!"، وراح يسرد لي قصة شراؤها كما حكى لي أبوه قبل أكثر من عشرين عاماً. عرفتُ أن طباع بني جلدتنا لم تتغير رغم تغيّر الزمن، لا يدّخرون للغد شيئاً، لا يعرفون شيئاً اسمه الطموح، لا يشعرون أن لهم هوية... أسعدني نصر يوم أن حدثني أن له صديق اسمه عُمر خنفر من بني جلدتنا يدرس التاريخ في الجامعة. قال عنه إن سلوكه جيدة، نظيف، مثقف. أبوه شيخ الأخدام في حي الرحمة متزوج أربع نساء.

ذات مرة أخبرني نصر بخبر أفرحني وفي نفس الوقت أدمى قلبي، قال: "يا أمي حدثني عُمر خنفر أنكم كُنتم ذات يوم أسياداً

وملوكاً في الدولة النجاحية، حكمت تهامة مائة وستة وأربعين عاماً في القرن الخامس الهجري، بدعم من الخليفة العباسي وحبشي نكايّة بالأئمة والصلحيين. ثم راح يحدثني:

- علي بن مهدي الرعيني جنّدا القبائل، وحاصروا مدينة زبيد عاصمة الدولة النجاحية وهزموا النجاحيين شر هزيمة. قُتل ما فوق الخامس عشر، ووزع النساء والذراري بين القبائل، لا يكنون عبيداً بل أحراراً، يمتهنون أحقر المهن. لا يبنون دارا، أو يجاورن جاراً، أو يشعلوا ناراً، ولا تخرج لهم مواكب أو زوامل.

قال فينا علي بن مهدي مقولة مازال أثرها حتى اليوم: "والله لأخدمنّ بكم قبائل اليمن كافة" ومنذ ذلك اليوم أصبحناً خُدّاماً للغير مقهورين. كنت أنصتُ جيداً لِمَا يقوله ولدي بفرح لكنه ألمني أنه لم ينسَ أصلي.

الفصل الثالث

نصحتُ بناتي ألّا يكثرن بالخروج من البيت، حتي يتزوجنا من الأسياد. أثناء نصحي لاحظتُ رحمة حزينة لشعورها بالعار مما جرى لها في القرية. فكرتُ أن أخذها إلى الدكتور سامح ليخيط بكارتها في حضوري، لكنني لم أذهب إليه حيث حضرت مريم إلى منزلنا لتراها. قالت بكل سرور: "طلبك موجود عندي، وستشاهدين عريسك في يوم عرس ابنتك رحمه". بقيت على أمل وأنا أشعر بالسعادة، لا أدري هل أنا سعيدة أن عريسي على الأبواب، أم لاقتراب موعد زواج رحمة!

اغراءات الدكتور سامح المستمرة جعلتني أكذب عليه أن رجلاً تقدم لي؛ حتى لا يظل يغريني بكلامه، ولأهزم فيّ زهر الغرام القديمة التي تحدثني أنني لازلت فاكهة شهية لهم. تهمس لي: "المتعة أمامك يا غبيه. انظري وسامته. أحمدي الرب إنه سيرضى بك يا خادمة". كنت حين أرفض اغراءات الرجال، أحس بالانتصار عليهم وعلى زهر الغرام الأخرى والشيطان.

فكرت كثيراً بأمر زواجي فلمستُ أن بناتي أنهن لن يحزن كثيراً كولدي. تخيلت حزنه أمامي وأخذني الحزن إلى القلق عليه، كنت أعود

من العيادة مساءً، إذا لم أجده، أظل في قلق حتى يعود. ذات يوم تأخر عن عودته المعتادة فكِدت أفقد صوابي الباب. خرجت وحيدة وذهبت إلى سوق الجُملة. رأيت الحمالين القبائل مجتمعين، فظننت أنه هناك مشكلة وابني متورط معهم! هتفت: "يا نصر، أين أنت؟" خرج من بين الحشد وأسرع نحوي، وعدت به إلى البيت وأثناء الطريق راح يحدثني عن سبب تأخره، فقد شاركهم في تأسيس جمعية خيرية، واشترك فيها الحمّالون القبائل ورفض الأخدام، يرون أن المستقبل بيد الخالق. أشاد بعاقل الحمّالين صندوق فرحان بعد أن قام في تنظيم العمل بين الحمالين، وهو الذي يفرض على التجار تكلفة افراغ بضاعتهم من الشاحنات وتخزينها وتوزيع الفلوس بالعدل بين الحمّالين. لم يعد هناك تسابق ومشادات بينهم، أما هو يأخذ نصيبه مثل أي حمّال دون أن يقوم بأي شيء سوى مضغ القات كالشيخ. قلتُ في نفسي: "هكذا الناس يُفرّعنون مشايخهم ليجلدوهم". أخبرته بألا يتأخر كثيراً مرة أخرى؛ حتى لا أفقد صوابي كهذه المرة، وأخرج أبحث عنه ليلاً!

فكرت كثيراً كيف سأواجه ولدي برغبتي في الزواج، وهو يراني الأب والأم! بعد أن وافق على مضض زفاف أخته رحمة على المولّد سمير. هو شاب لا باس به، أمه حبشية، عاد إلى اليمن بعد إعلان الرئيس إبراهيم الحمدي عن استقبال ذوي الأصول اليمنية، بالذات من مناطق النزاعات المسلحة في العالم، فعاد الكثيرون من فيتنام والحبشة، لكن

الفيتناميين لم يستطيعوا الاندماج مع المجتمع، فعادوا إلى فيتنام بعد أن وضعت الحرب أوزراها هناك!

في يوم عرس رحمة تعرفتُ على خطيبي، وجدته في الخامسة والستين من العمر، لديه أربعة أولاد مثلي أرمل، طويل، شديد السمرة، نحيف البنية، شفاهه ليست غليظة. فاجأتني مريم بخبرها أن الخطيب أخوها!

حضر الحاج عبد الرؤوف حفل الزفاف ففرحت بحضوره. أحضر لنا معه الحقين والسمن وقدحين حَب دُخن من أرضنا. أخبرنا أن القرية تستغرب غيابنا المفاجئ! ولازالوا لا يعرفون عن اختفاء طاهر! سألته عن ثلج فقال لي إنها بكت بعد رحيلنا وحزينة على فراقنا! ضحكتُ في نفسي: "إنها تبكي على فراق تيسها الصغير" لكنني كنت أحبها عن سائر نساء القرية، كانت صديقتي الوحيدة، ووسيلتي لمعرفة أخبار القرية وما يدور بين النسوة من قيل وقال، حتى أنها أخبرتني بأسرار يصعب البوح بها.

في اليوم الثالث زرتُ رحمة وجدتها سعيدة، فانزاح عن قلبي همٌ كبير. أخبرتني والفرح ينضح من عينيها أن زوجها تساءل فقط: لماذا ليس لديها خِبره في الفراش وتشعر بالحياء؟! ولا تظهر شوقها للقاء!...أخبرتها بطرق عدة لإسعاد الزوج في الفراش، وكيف تجعلُه كالطفل يلهث خلف حليب أمه، وخاتماً حول إصبعها.

كنتُ في حيرة من إمري، كيف أخبر ولدي عن رغبتي في الزواج، فاهتديت إلى حيّل النساء! وأخبرت مريم بأن تقنعه. جلستْ معه واقنعته بكلام أخجلني حين سمعته!...ذلك الكلام لم أكن أخجل منه قبل زواجي من حبيب الدين. استأجرتُ غرفة كبيرة بها حمام ومطبخ واثثتها، قريبة من منزل أولادي. قلتُ أن بشير هو من قام بذلك؛ حيث كنت أحصل على مكافأة من سامح ثمناً لسكوتي إضافة إلى راتبي من المستشفى. تمنيت أحياناً لو أنني رجلاً أقذف بشهوتي متى أشاء، لا أنتظر شريكاً لذلك!

يوم زفافي حضر الحاج عبد الرؤوف. بارك لي وقال كلاماً أسعدني كثيراً: "مبروك يا ابنتي!" تلك الكلمة جعلت قلبي يرفرف كحمامة. بدت فرحتي فرحتين، كيف لرجل منهم يقول لمثلي: "يا ابنتي، وهم يروننا بقعة سوداء تدنّس مجتمعهم، يتحاشونها بكل صلف وغرور!". كان الحاج عبد الرؤوف وكيلي وفضلّته ليقبل العقد بدلاً عن ولدي. قال لي: الزواج يُبعد شيطان الغواية عن المرء.. كانت ليلة سعيدة بالنسبة لي، أما أولادي كانوا على العكس من ذلك. في تلك الليلة أخبرتُ "نصر" أنه أصبح رجل البيت، لكنه لم يرد على كلامي. لم أغضب فهو يراني سأنام في حضن رجل غير المرحوم أبيه، ولا يعلم أن قبره في قلبي.

يوم زفافي انتقلت إلى منزلي الخاص بي وبزوجي. شعرت بالسعادة ورحت استعد للقائه... وجدت بشيراً متردداً من الاقتراب مني فصدمتُ

فيه؛ فقد كنت اتخيّله عكس ذلك. رحت أقارنه لقاءه بلقاء حبيب الدين أول مرة. اقتربتُ منه والبسمة في شفتي، وقفت أمامه وانحنى ليقبلني. جسده طويل وذكورة تلفت الانتباه، لكنه لم يتحرّك ساكناً.

حاول وحاول معه... لكنه لم يستيقظ من سباته المخزي. نظرتُ إلى وجهه علِّ أشاهد الخجل مرسوماً عليه، فلم أعرف فلون بشرته الداكنة تطغى على أي ملامح. استلقى على ظهره وقال إن هذا يحدث معه أول مرة، وإنه لم ينم مع امرة بعد موت زوجته الحبشية. قلت له: مش مشكلة غدا ستكون بخير. واريت غضبي حتى لا يخجل أكثر، وما لم يعجبني أيضاً رائحة فمه النتنة. بقيت مستلقية على ظهري، أسخر من نصيبي، أأضحك أم أبكي؟! أمّا هو لم أعرف، هل نام أم لا!

ليلتها لم أنم، رحتُ أتذكر أول لقاء مع حبيب الدين، أعطاني معجون الأسنان وفرشة وعلّمني كيف أستخدمها، وقطعة صابون كأنها العطر، لم أتنسم مثلها، ولا أذكر متى أبي جلب مثلها إلى كوخنا، ذهبتُ لأغتسل بالماء والصابون، حين هممت بالخروج، قال لي: "اغتسلي مرة أخرى وأكثري من الصابون"، لكنه لم يقتنع فنزع ثيابه ودخل الحمام إلى جانبي، وظننت أنه سيفعلها معي هناك فقد رأيت مثل هذا يحدث في قريتنا، فغالبا ما تمتلك الأسرة غرفة واحدة صغيرة أما الحمام يكون خارج تلك الغرفة، لكنه لم يفعل ما فكرت فيه. نظر إلى اسناني الناصعة وتنسم عرف المعجون، ثم أخذ قطعة الصابون ودعكني بها جيداً عدة

مرات... خامرني حزن عميق وهو يغسلني كأنه يطهّرني من نجاسة ما!. لكن بشير لم يرنِ كذلك، بل أنا التي رأيته كما رآني حبيب في بداية زواجي به.

الفصل الرابع

فكرتُ أن الله عاقبني لتركي أولادي وذهبت لأبحث عن زوج. قررت أن أبقى معه فترة من الزمن، أحاول مساعدته قَدْر المستطاع، وإذا لم يكن هناك فائدة سأختلق مشكلة وأنكد عليه حياته؛ حتى يتركني بسلام ويطلقني.

خجلتُ من نفسي وأنا أشاهد ابنتيّ جليلة وحُسن. أحدث نفسي: "كان من الأفضل أن أبحث لهن عن أزواج أولاً!" كانت ثقتي بهما كبيرة، فما حدث لأختهما رحمة في القرية كان درساً لهما. هكذا هو المجتمع يصب غضبه على المرأة في حالة الزنى والاغتصاب أكثر من الرجل، في مجتمع سلب حقوق المرأة لصالح الرجل، ويسخرون من المرأة إذا أفصحت عن رغبتها في الزواج، يرونها خُلقت لمتعة الرجل وفاكهته المتنوعة. يمكن استبدالها متى ما شاء!

أخبرت الدكتور سامح عن ضعف زوجي في الفراش ولم أقله الحقيقة كاملة. ضحك ضحكة مثيرة وهو يحرك رسه قليلاً وقال: "يحصل مثل هذا للرجل، سيتعالج ويعود لطبيعته. أظنك امرأة قوية تهزمين الرجال يا زهر الغرام!". سألته: "لماذا لا تتزوج؟!" رد قائلا: "لقد تزوجتُ في الخارج أثناء الدراسة، وأتت زوجتي إلى هنا ولم ترضَ العيش. أخذت طفليّ عن

طريق سفارتهم. أرادت مني أن ألحق بها لكنني فضلتُ البقاء حيث القات، كما ترين أنهي عملي هنا الساعة التاسعة، وأذهب لمضغ القات حتى الحادي شعر ليلاً".. ثم راح يتحدث عن دراسته في الخارج وكيف كان يفتخر بما يُقدم لصديقاته من متعة، وكيف كُنّ يتنافسن عليه. أحسستُ أنه يغرينِي، فخرجت من عيادته قبل أن أسقط أمامه على فراش الغواية...

لعنتُ أخت بشير لشعوري أنها خدعتني، لكنني صبرت على عِلّت أخيها. أبكي حظي أرى طيف حبيب الدين يضحك أمامي! أشاهده يجلس في غرفة نومي ضاحكاً، حين أكون مع بشير على السرير. لا أدري لماذا لا أشاهده في أي مكان آخر؟! أحياناً أحدث نفسي: "لماذا يظهر لي طيفه في غرفة النوم فقط. هل سأجن؟!".

ذات ليلة وأنا مع بشير على السرير أحاول مساعدة ليطفئ ناره المُقدّسة، رأيت حبيب أمامي يقول لي غاضباً: "تركتي أطفالي لأجل هذا الرجل! لن تهنئين بحياتك معه". أطفئت النور لاعتقادي أنني لن أشاهده فسمعته يهمس لي: "تظنين أنك ستنسينني. لن تنسيني يا زهر الغرام، ضحّيت من أجلك كثيراً، خسرت أهلي. أنت لم تعودي مِلك نفسك أنت مِلك أولادك يعيشون بين عالمين". لم أخبر أحداً بخصوص شبح حبيب أنه سكن غرفتي أم في ذهني، لست أدري!

استمريت في عملي صباحاً في المستشفى ومساء في العيادة، لا اتأخر عن موعد الحضور، وفي ذات مرة ذهبت إلى العيادة متأخرة. رأيت هناك ثمان نساء في صالة الانتظار، إحداهن تتباهي بحليّها وعطرها زائد عن اللزوم، عرفت أنها ليست مريضة. كانت المريضات يخرجن من غرفة المُعاينة بعد دقائق، لكن تلك المرأة المتباهية بحليها أدخلها آخر واحدة، وحين انتهى من عمله بدت رائحتهُ عَطِرة. جلس في مكتبه وراح يدخن سيجارة وهو يسند ظهره على الكرسي يبدو مرهقاً. سألته قبل أن أغادر عيادته عن المرأة المُعطّرة:

- لماذا أتت تتباهى بالذهب؟!
- هي غير جميلة، أما زينتها هي وسيلة من وسائل المرأة لاستلاب الرجل، وأحد وسائل الانتقام منه دون شعورها بذلك، يعوّضها عن القهر الذي تواجهه منه خاصة في العالم الثالث. أخبرتني أنها تكره زوجها لِمَا له من غزوات مع الغير، ومما أغاضها أكثر أنه أحضر إحداهن إلى بيتها، وهي تود الانتقام بنفس الطريقة كما تدين تُدان.

خرجتُ تلك الليلة من العيادة مسرعة خوفاً من أن أسلّمه جسدي. لم أفهم بعض كلامه، لكنني أعرف أن نحن النسوة نشعر أن لدينا سلاح نقهر به الرجل ونهزمه أحياناً. هم يروننا وعاء لمتعتهم ونحن نذلّهم بها حين نقدر عليهم، يلهثون خلفنا كلهاث طفل خلف حليب أمه. ينسبون

الأطفال لأنفسهم، ونحن نسلبهم منهم فيميلون إلينا ويحبوننا أكثر منهم. نتمارض أحياناً لنخسّرهم ونكثر من طلباتنا، وكيدنا أمضى من سيوفهم.

انقضت ثلاثة أشهر من زواجي ببشير، وأنا وأنفق على البيت دون أن يُلّبي هو رغبتي كما اشتهي، أحدث نفسي: "هل سيْدي حبيب الدين أرسل شبحه يعيش في غرفة نومي!" أحياناً أفكر أنه هو السبب فيما يحدث لبشير. لم يهتم بشير بي بقدر اهتمامه في راتبي، يسألني كم أستلم مالاً من المستشفى ومن العيادة، إلى أن أظهرتُ له غضبي ذات مرة بقولي:

- أتريدني أيضاً أن أشتري لك كاتو "قات"، وقد أقفلتُه... بقُفل!

وجدت أن أفضل طريقة لإذلال الرجل هي تذكيره بضعف لقاءه في الفراش.. وأن الزوجة الشابة تخون زوجها المُسن في أحلامها إن لم تتعدَى ذلك.

أخبرت الدكتور أن يكتب علاجاً لبشير؛ ليساعده على أداء واجب الفراش نحوي، فأنا لم أتزوجه ليطعمني، ومر على خيالي الرجل الذي عملت في بيته خدامة، كيف كان تحت سيطرة زوجته، رغم أنه لا يقصّر في تلبية رغبة زوجته في الفراش. هذا ماكنت أحس به. وصف الدكتور علاجاً لبشير وبخاخ "أيروس". ضحك سامح وقال: "أتدرين ما معنى أيروس؟. هو إله اللذة عند الإغريق". سألته: "هل سيطرة الزوجات

على أزواجهن نتيجة الضعف الجنسي فقط يا دكتور؟!" جلس على مكتبه وجلست على الكرسي المقابل له، وقال لي:

- لا، ليس دائماً، قد يعود ذلك إلى طفولة الرجل. إذا كانت الأم هي المسيطرة على الأب في البيت، يرى بعض الأطفال أن هذا حق من حقوق المرأة ويخاف الخروج عن سيطرتها، وأيضاً لشعوره أنه مَلْك لأمه، لِمَا قدّمت له عند طفولته ويربط زوجته بها دون شعور، ويظل هذا الشعور في عقله الباطن. وحين يتزوج يرى زوجته كالأم فيخضع لها. وهذه أحد وسائل المرأة في صراعها اللاشعوري مع الرجل؛ لإعادة حقوقها المسلوبة منه.

شاهدني وأنا أحدّق في شفتيه الورديتين، لا أدري هل كنتُ مفتونة به، أم مندهشة لِما يقوله؟! قام من على الكرسي واقترب، وراح هو يقول لي:

- وهناك وسائل كثيرة منها تمنّع الزوجة للقاء الحميمي حين يطلبها زوجها للفراش، وهي أكثر رغبة منه في ذلك، وبهذا تشعر هي بالنصر حين يتودد إليها، وهناك وسائل أخرى عند المرأة للانتقام من الرجل حين الزوج لا يشبع رغبتها، منها التمارض وقد تمرض فعلاً، وتكثر من الطلبات الغير ضرورية، وقد تكسر أشياء في البيت دون أن تشعرَ هي أنه انتقام!

أظنه أحس أنني أنصهر أمامه، فاقترب أكثر ووضع يده اليمنى فوق الطاولة أمامي. أستنشقت أنفاسه وأنا جالسة على الكرسي وقد تراخى نصفي الأسفل، وراح يضيف وهو ينظر إلى عينيّ:

- وأحياناً تستنزف قوته أثناء اللقاء الحميمي، عقلها الباطن يدفعها إلى ذلك، وفي نفس الوقت المرأة تحب زوجها وتعيش معه في شخصيتين مزدوجتين. هكذا هم البشر يحملون طفولتهم معهم دون شعور كما قال فرويد.

قبّلني فجأة فصحت زهر الغرام الجديدة ونهضت من أمامه وهربت زهر الغرام القديمة، كانت تشدني للاستسلام له. خرجت من العيادة مسرعة، أحدث نفسي: "إذا بشير لم يلبّي رغبتي سأطلب منه الطلاق!"

دخلتُ الصيدلية اشتري العلاج المقوي لبشير والبخاخ. سألت الصيدلي ما معنى أيروس؟ فقال إنه لا يعرف. أدركت أننا نلقفُ ما يأفكون. في طريق العودة، الساعة التاسعة ليلاً، كنت أحدث نفسي فيما سمعته من سامح والغَلَمة مشتعلة في نصفي الأسفل. وصلت المنزل وكان بشير يود أن ينام، استلقيت بجانبه ووكزه غضبي في جنبه؛ حتى يلتفت إليّ ويخمد شعلتي التي أوقدها سامح.

الفصل الخامس

مضت ثلاثة أشهر على زواجي وأنا أحاول أن أوفّق بين رغبة جسدي وواجبي نحو أبنائي. أمر عليهم كل صباح ومساء، أحس أنهن سعداء. لست أدري! هل لشعورهم أنّي غير سعيدة بزواجي؟! يظنون أنني لم أنس أباهم. لم أستطع أن أخبرهم أن شبحه سكن في غرفة نومي. حقًّا كنت أريد أن أنساه ولو عند الفراش مع بشير، لكنه كان يظهر أمامي ليفسد متعتي البائسة! لم أعد احتمل رؤية. كدت أطلب طلاقي من بشير، وما عدت أستطيع كتمان السر فأسررتُ لمريم بالأمر؛ لمعرفتي أن الأحباش يلجؤون إلى السحر، ويطردون الأشباح ويحضّرون الأرواح، ويضربون القِداح. رحّبتْ بمساعدتي وفي اليوم التالي أحضرتْ حفنة بخور، وأحرقته وهي تتمتم بكلام حبشي!...وأعطتني منه لأحرقه قبل ذهابي إلى فراش. كنتُ كلما أحرقه أرى شبح حبيب يسعل ويلعنني، ثم يخرج من الغرفة! أمّا بشير كان يرى البخور نوعاً من الشوق والاحتفاء به. أعتدتُ على احراقه ليلاً، وذات ليلة مرَّ ولدي بعد عودته من عمله. طرق الباب والغرفة تعجُّ بدخان البخور. فتحت الباب ورأيت الحزن في عينه. لم يحادثني عمّا كان يريده وذهب وقلبي يتألم.

في اليوم التالي زرت اولادي وجدته يبدو مريضاً، فأحسست أنه يفتقد حنان الأم. قلت له: "إذا تريد مني أن انفصل عن زوجي سوف أفعل ما شئت يا ولدي، فقال لي: "لن أقف يا أمي في وجه سعادتك ما دمت أنت سعيدة ومرضي هذا بسيط، ثم قام ليذهب إلى عاقل الحمّالين يطلب مالاً لشراء الدواء. عاد يحمل دواءً معه، وأخبرني أنه ساهم في جمعية الحمّلين ويدفع اشتراكاته شهرياً وصار لها رصيداً في البنك، باسم عاقل الحمّالين، وأخبرني عن علاقته الجيدة مع بني جلدتنا ومع الآخرين، وأنه وسيط بينهم إذا ما حدثت مشكلة بين الطرفين، يرونه أيضاً طالباً جامعياً يدرس القانون، أو يلجؤون لحلها لدى عاقل الحمالين صندوق الذي أصبح هو ينافس الشيخ خنفر على مشيخة حي الرحمة، والمستغرب أن قسم الشرطة يساند صندوق فرحان على المنافسة في هذا الأمر! أمّا إذا المشكلة بين بني جلدتنا أنفسهم تخص أعرافهم الخاصة يذهبون إلى الشيخ خنفر.. اضحكنا بآخر مشكلة حلها خنفر بين شابين من بني جلدتنا تنازعا عنده على فتاة جميلة، كُلٌّ يدّعي أنه خطبها هو الأول. حل المشكلة الشيخ خنفر بأخذها لنفسه، وطلّق إحدى زوجاته الأربع خوفاً من انتقاد الأسياد، بينما ابنه عُمر صديق ابني لا يزال عازباً. بيد أن طليقته عادت إليه ووهبت نفسها له، ولم يحدث الخلاف بين بني جلدتنا، لكنه حدث بين الأسياد حين علمو بالأمر وكل استدل بنص من القرآن على صحة ما يقول.

في ذات مرة شاهد جليلة وطلب مصاهرتنا. لم يرضَ نصر واعتذر له بلطف حتى أنا رفضت ذلك. أمّا جليلة كنت أراها في حيرة من هذا الأمر، قالت لي: "لو تزوجتُ عُمر وعشنا بعيداً عن الأخدام! كما فعل أبي معك. هو نظيف ومؤدب وسلوكه جيد، وأنا سمراء مثله، لكن الأمر لك يا أمي ولأخي".

عرف الدكتور سامح أصلي ولم يغيّر سلوكه نحوي، بل راح يشيد بحسن سلوكي الجيد وعفّتي. أخبرني ألّا أنكر أصلي ما دمتُ قد تغيّرت، كما تغيّر مهمشي الجنوب، ذلك التغير الذي لم يجد له مثيلا في الجزء الشمالي من الوطن رغم محاولة مُنظمات أجنبية مساعدتهم. بنوا لهم مساكن شعبية لكن المهمشين عادوا إلى بيئتهم التي عاشوها. وهبَت المنظمات مكافئة سخّية لكُلَ مَن يرغب من القبائل الزواج من المهمشين. قلت له: "المجتمع رفض تلك المكافئة وهو في أمس الحاجة لها، أمّا المساكن التي بُنيت للقِلة منهم لم يستطيعوا التكيّف فيها. هم يجدون أنفسهم أفضل في البيئة التي تربّوا عليها، أحراراً من أي سلوك يُقيد حريتهم. ثم أن محاولة انتشالهم لم يكن بقرار سياسي حازم من جهة الدولة، واجب تنفيذه من قبل كل الأطراف. قال لي: "نعم، لكن هم تعوّدوا على الرضوخ للآخرين منذ القدم، وتوارثوا الخنوع" ثم راح يحدثني عن المازوشية التي يجد فيها الإنسان متعة في معاقبته نفسه، وفي حرمانه من حقوقه. أحسست أنه ينبش أوجاعاً مدفونة فينا ويقرأ ما لا

ندركه نحن. قلت له: "كان يجب على الدولة أن تعيد ثقتهم في أنفسهم ولو بالعلاج النفسي وتدمجهم في المجتمع".. ثم راح شيطان الهوى في سامح يسألني عن قُدرة بشير في فرش الحب! تلك الأسئلة التي يثيرني بها. نصحني أن أترك لبشير طلب الذهاب إلى الفراش بنفسه وليس أنا! كما كنت أفعل مع حبيب الدين وأن اتمنّع لو طلبني لذلك، وأشعره بالامتنان منه. أخبرني بطريقة معينة... كيف يتم تهيئة الرجل الذي يعاني البرود الجنسي، وكبار السن في الفراش، مما جعلني شيطان الغواية أنصهر أمامه مثل الشمعة وهي تحترق! ذلك اليوم عدت إلى بيتي، وأثرتُ بشيراً دون أن أشعره بشوقي، وسرتُ على هذا المنوال شهوراً.

وجدت أن المرأة تستطيع أن تفعل للكبار السن أفضل من أي علاج مقوي؛ حتى أن نسبة هرموناته الذكورية ارتفعت عند بشير عمّا قبل، وأصبح يدلو بدلوه كل ليلة، مما أدهش هذا التغير الدكتور سامح؛ فهو يراقب حالة بشير عن كثب. بتُّ أرى شبح حبيب الدين أمامي منكسراً، حتى حدثت لي مفاجأة ما كنت أتوقعها أن تحصل. كيف ليَ أن أحمل والعادة الشهرية غير منتظمة عندي؟! أكتشف الدكتور حملي حين شاهد بطني تكبر. قال: "أظنك حاملاً يا زهر الغرام". ضحكتُ متسائلة: "كيف لي أن أحمل وأنا في هذا العمرّ والعادة الشهرية غير منتظمة؟!" قال لي: أعملي هذا الفحص وسنتأكد"، ثم قاس ضغط دمي فوجده مرتفعاً،

واستغرب أنّي لا أشكو من أي صداع أو دوخه! وأعاد ذلك لتكيّفي على الحالة، وقرر لي دواءً لتخفيض الضغط.

دخلت الحمام وخرجتُ بأنبوبة اختبار قدمتها إلى مختبر العيادة، وهناك حدثت لي صدمة حين اكتشفت أنّي حامل! ما كنت أريد أن أحمل وكذلك بشير، فقد قال لي: "نسقط الجنين، لا أريد أطفالاً وكذلك أنت لا تريدين، يكفي ما لدينا منهم". أخبرت الدكتور سامح في الأمر فرحب بذلك. قال: سأعملها مجاناً، أنت تستحقين أن أقدّم لك هذه الخدمة". أخبرني أنه لا داعي لحضور أحد معي. كنت أعرف ما يريده من كلامه هذا، وشدد على سرعة إنزال الجنين قبل أن يبلغ أسبوعه التاسع. أخبرته أن يعطينِ موعداً. ضحك وقال: ستكونين أنت وحدك غداً معي، ولن أستقبل حالات مماثلةً لأهتم بك. اسقاط الأجنة لمثل سنّك صعب ويحتاج لعناية فائقة. عرفتُ ماذا سيفعله قبل العملية وأسلوبه في التخدير. في هذه المرحلة من عمري كانت فيّ الغرام القديمة قد وهنت، وإلا لكنتُ استسلمت لرغبة جسدي، ورغبتها، ورغبة الشيطان؛ فوسامة الطبيب كانت مُغرية، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الحلم به ليلاً! كالطبيب الروسي الذي أنقذ ابني من الغرق في مدينة الحُديدة. وجدت أن الجهاد الحقيقي هو جهاد النفس عن الزلّات.

حضرتُ اليوم التالي إلى عيادته الدكتور، تذكّرت حينها ثلج حين اسقطتُ جنينها، ولايزال أنينها في أذني وذلك النزيف الذي أخافني.

سألت نفسي: "هل الله يعاقبني فيما فعلته في ثلج؟!" رأيت إن الله يعاقب المرء في حياته على أعمال سيئة ارتكبها، دون أن يشعر أنه عقاب إلاهي!

رآني الدكتور برفقة بشير، فرحّب به بفتور. راح بشير يدفعني إلى غرفة العمليات ويشجعني وهو يبتسم. أحضرتُ له بنفسي الموسعات الرحمية من جهاز التعقيم، ثم استلقيت على سرير المعاينة وأنا خائفة! حقنني الدكتور بحقنة المخدر، خيّل إليّ أن حبيب الدين يقف أمامي قبض على رقبتي وكتم أنفسي! دخلت في غيبوبة، ثم رأيته يبتسم لي وأحسسته يقبّلني بنهم كما كان يفعلها معي. حين صحوت كان سامح يواري نظره عني. صمتُ كأنني لم أعرف فماذا عساي أن أفعل، وزوجي يضحك خارج الغرفة.

عدت إلى منزلي وأنا أشعر بألم في أسفل ظهري، وأظنه لم يحقنني بحقنة مُهدئ للألم. استمر النزيف لمدة يومين وبقت أسبوعاً في المنزل لا أخرج منه. كان الطبيب خبيثاً في عمله، لست أدري! أو أن هذه طريقة عمله؟. لم أحس بألم الموسعات التي تفتح الرحم إلا آخرهم، ثم أحسست بملعقة كَحْت في رحمي. رثيت حال تلك النسوة اللواتي يأتين لغرض كهذا؛ عرفت لماذا لم يعدن مرة أخرى إلى عيادته لإسقاط جنيناً آخراً.

بعد نصف شهر سمحتُ لبشير بالنوم معي، فلاحظت أمراً غريباً، هو عودة فتوره الجنسي مرة أخرى! ترى هل اللقاء الحميمي المتواصل كان علاجاً له؟! فبدأت أثير شهوته مرة أخرى، لكنني لم أسمح بدفقات الحياة تسافر فيّ. تلك الدفقات التي تنتظرها المرأة في آخر اللقاء مع شريك الحب، ومن أجلها تقبل سطوته عليها. أذكر ملاعق كحت الدكتور ولا أريد العودة إليها مرة أخرى، وأيضاً لا أود استخدام أقراص منع الحمل بعد أن تبين ارتفاع ضغط الدم عندي، والواقي الذكري لا يصلح لبشير.

حسبتُ أنني دفنتُ الغناء في قلبي؛ لكن مريم نفضت عنه غبار الزمن حين ذهبتْ تدندن ذات صباح في المستشفى، وأنا أقوم بعملي بالقرب منها. أخذت ترددُ أغنية الفنان أيوب طارش "بكّر عبش بالطلِّ والرشاشِ، أخضر من الله لا مطر ولا شي" صوتها الرديء أثار فضولي، فبرزت فيّ زهر الغرام القديمة ولم أستطع كبح جماحها! وغنّتْ نفس الأغنية. توقفتْ عن الغناء والتفتُ إلى مريم، وكان بجوارها ممرضتان. صفّقت أحدهما وقالت: "ما شاء الله! غنّيتها أفضل من أيوب نفسه. أنتِ فنانة يا زهر الغرام برافو، برافو! وراحت الممرضات يتحدثن عن رخامة صوتي في المستشفى.

أخبرني الدكتور في العيادة أنه عرف من مريم رخامة صوتي وبأني فنانة موهبة. قال: "حرام أن تدفني موهبتك! نقيب الفنانين معروف لديّ،

سآخذك إليه وستكونين فنانة مشهورة. أنتم فنانون بطبعكم، في القرى تحييون الأفراح، أما هنا ستسمعك البلاد كلها!" أسعدني كلامه، وعند نهاية دوام العمل أراد أن أُسمعه صوتي وهو يحاول مغازلتي فأبديت غضبي.

الفصل السادس

ذات يوم جاءت إلى عيادته الدكتور امرأة تبدو منكسرة في الثلاثين من العمر، تريد التخلص من جنينها بحجة واهية، وأظهرت مبلغاً أسال لعاب الدكتور. أخبرها أن تنتظر حتى تخلو العيادة من النسوة، وراح يسرع في الكشف على ما تبقي من المرضى وهو على عجلة من أمره وأمرني بإغلاق العيادة وطلب مساعدتي.

استلقت تلك المرأة على سرير المعاينة وأحضرتُ له ملاعق الكحت وموسعات الرحم. حقنها بحقنة منوّم ورحت أشاهده وهو يدخل قضيباً معدنياً نحيلاً في رحم المرأة، ثم تلاه أثخن فأثخن، ثم جهز عدة ملاعق طويلة. في هذه المرة أضاف الدكتور ملقطاً كبيراً وقال لي: "هذا ماسك رأس". كنتُ هذه المرة مساعدته لتقديم الأدوات التي عقمتها من قبل. أخذتني الغبطة بأن امرأة مثلي تقوم بعمل ممرضة! تخيّلت نفسي دكتورة لبرهة! ما لا يحلم به أحد من بني جلدتنا، مستحيل في هذا الزمن! وتلك الآمال التي عوّلنا عليها من قِبل الحزب الاشتراكي بعد الوحدة ذهبت أدراج الرياح، وثملت كوادره من كؤوسه.

أنهى طمع الدكتور عمله ولم يتوقف النزيف. في البداية راح يحشو عنق الرحم بالشاش مع علاج موقف للنزيف. قال لي: "هذا يحصل أحياناً للبعض" لكن الدم استمر بالتدفق فخاف واضطرب وخفتُ أنا أكثر. أسرع بنقلها إلى المستشفى وطلب مني أن أبقى معه، دعوت أثناء الطريق للمرأة بالشفاء على الرغم من خطيئتها. أدخلها غرفة العمليات وبعد ساعتين خرج من الغرفة وهو قلق لا أدرى! هل أخطأ مرة أخرى أو أن حالتها حرجة؟! عدت إلى البيت متأخرة ووجدت بشير يغط في النوم. سخرتُ منه وأنا أتذكر غيرة حبيب عليّ حتى من النساء.

في اليوم الثاني صباحاً ونحن في المستشفى سألت الدكتور عن صحة الحُرمة، وأنا أحدث نفسي: "تستحق القحبة". قال: "هي بخير مازالت تحت العناية، كنا سنقع في ورطة، لكن الله ستر". حدثت نفسي: "كيف يستر الله عملاً كهذه!". في المساء اقتحم العيادة أربعة مُسلحين أحدهم يحمل عصا غليظة. ظننت أن المرأة التي أسعفتْ إلى المستشفى أتى أهلها للانتقام. تسمرت قدماي في البدء وهم يضربون الدكتور، وحاول شاب طعنه لكن أحدهم منعه. صاح الشاب في وجه سامح: يا سافل، يا حقير... أجهضت زوجتي دون موافقتي، وراح يلطّمه إلى أن سقط الدكتور على الأرض ثم أخذ الشاب يركله. لم أستطع أن أحتمل نظرات سامح نحوي وهي تستجدي، فدفعتني جرأتي لأمنع الشاب ووقفت حائلاً بينه وبين سامح. لم أنتبه لهروب النساء من العيادة، بقيت وحدي

مـع الـدكتور، ولأول مـرة اسـتدعيت فـيّ زهـر الغـرام القديمـة فبـرزت كالشيطانة بسرعة إلـى السطح، وشتمتْ المهاجمين بأقذع السباب مما أخجلـتهم، وصـرختْ مـن النافـذة: "غيْـرواْ علينـا، القبائـل سـيقتلون الدكتور!... دخل بعض مَن كانوا في الجوار وازدحمت العيادة بهم. واندفع غضبها يسأل الشاب أمام المتفرجين: ما اسم زوجتك اللعينة؟! البعض يأتين إلـى هنا عاهرات". ألتفت نحو الأخرون وهم صامتين، وقالتْ: "ربّوا نسائكم يا سادة، يفعلن ما لم يفعلنه الخادمات. تثقوا بهن قبل أن تختبروهن..." أقترب سامح نحوي مسرعاً وفمه ينزف دماً وأطبق كفّه مسرعاً على فمي وهمس لي: "اصمتِ، اصمتِ، فضحتينا أمام الناس يا زهر الغرام. خلاص مُش مُشكلة..." كان هناك من الحاضرين ينتقد الدكتور، بعد أن تسببت زهر الغرام القديمة بفضحه، وهناك من ينتقد المهاجمين الذين يرون أنفسهم هم القانون!

حضرت الشرطة واقتادوا المهاجمين وسامح إلى قسم الشرطة وأنا معهم. قُبض عليه بسبب قيامه بالإجهاض الغير شرعي، ثم اقتادونا إلى قسم البحث الجنائي للتحقيق. اتضح فيما بعد أن الشاب المهاجم كان بينه وبين زوجته قضية خُلع في المحكمة، وأرادت المحكمة أن تعرف هل زوجته حامل أم لا، وخسر الشاب القضية.

لم يستطع الدكتور أن ينكر جُرمه، وأخبرهم أنني عاملة تنظيف ليس لي علم بما يعمله. أثناء التحقيق عرفوا أصلي وسخروا مني بألا

توجد خادمة شريفة. أخبرتهم أنني أعمل لكسب لقمة عيشي حتى لا أتسول، أصلّي وأصوم. وجدت الشرطة أن عملي في العيادة يتناسب مع أصلي، ولو أنّي مساعدة الدكتور لكان الأمر يختلف كثيراً كنتُ سأسجن معه، ولن أخرج إلا وقد دفعت الثمن على يدي المُحققين.
حضر ابني وزوجي ودفعوا غرامة مالية ورشوة، كان ابني يتحدّث كمحامي، وزاد غروري يرفع رأسه حين سأله الضابط: "ماذا تدرس؟" فرد ابني: "أنا في سنة أخيرة كلية الشريعة والقانون وهذه أمي". لم يُصدّق الضابط أنني أمه، وبعد أن تأكد أشاد بي وقال بأنني نموذج جيد من الأخدام.

عدت من السجن برفقته وأنا فخورة به تأخذني الفرحة إلى النجوم. أثناء العودة قال بشير: "أنا حبّيت أمك اليوم كثير يا ولد، طِلَع أصلها كُويّس، مننا. ثم ضحك وقال: شوف يا نصر، أصل العالم كُله من الحبشة، أول إنسان أكْتِشفَ عندنا". ثم راحا يتحدثان حول بني جلدتنا. قال نصر: الحزب الاشتراكي لم يستطع أن يحل مشكلة المهمشين هنا في الشمال كما عمل في الجنوب، وقف الكثيرون ضده الي جانب اغتيال كوادره المهمة منذ قيام الوحدة. ولو أن الدولة استطاعت الحاق شباب المهمشين في الجيش وبوظائف تناسب مقدراتهم، كانت ستنتشلهم اولاً من الفقر الذي أوصلهم إلى هذه الحالة الذي هم فيه، وتحسِّسهم أنهم جُزء من المجتمع وليس عالة عليه. قال بشير: "أنت يا ولد تمام، ستكون

محامي كُويّس، نحن نزعل عليهم، نعرف أنهم مننا من زماااان. ونحن أصلنا من اليمن كنا زمان بلد واحدة يا ولد. كانت الملكة بلقيس حقنا تحكم البلاد كلها! قال نصر: " لا يا عم بقليس عاشت في مأرب، وكانت تحكم اليمن والحبشة...

وصلتُ السكن ورحت أفكر فيما قِمت به من سلوك في العيادة، أدّى إلى فضح الدكتور والتشهير به. كان ممكن أن يسوّي الأمر مع المهاجمين. لم أعد أدري من دفعني لذلك السلوك! هل زهر الغرام القديمة؟! أم الجديدة؟! التي أرادت تكسب قوتها بالحلال، وتسعى إلى التغيير وتستهجن كل عمل قبيح، ولم تجد عملاً إلا في المكان الذي لا ترغب العمل فيه، فكان تصرفها لا إرادياً، عبّر ذلك السلوك عن ردع الدكتور عن عمله اللاأخلاقي! أم أنه الانتقام لكرامتي بعد أن قضي وطره فيّ ينبذني ويراني زهرة ذابلة؛ فهو لم يعد يغازلني كسابق عهده!

كان عملي في العيادة درساً آخراً، يوم خروجي من السجن لا يتاح لمثلنا معرفة عالمهم الخفي. في ذلك اليوم أخذت الفرحة فيّ تدندن أغنية أيوب طارش "لمَن كل هذي القناديل تضوي لمَن" وأشاد بشير بصوتي قائلا: "أنت يا زهر الغرام فنانة موهوبة.. صوتك حلو، حلو. ما تدفني موهبتك، ليش ما تغني من زمان ستكسبين فلوسْ كثيرْ، كثيرْ. في أثيوبيا الفنانون أغنياء..." حدثته بما قاله سامح عن معرفته بنقيب الفنانين، وأنه يمكن يساعدني لأغني أمام الجمهور. قال بشير بحماس: "أنت ما

تحتاجي وساطة! سنذهب إليه غداً، ستكونين فنانة مشهورة، ويكون معك فلوس كثير، سيكون معك السيارة وأنا سأقودها، أنا سواق تمام، كنت زمان أسوق دبّابة في الجيش " ثم اقترب ليقبّل فمي فرفضتُ قبلته؛ فهو لا ينظف أسنانه. طلب مني أن أغني أغنية أخرى، فغنيت أغنية "يا بنات الحوية". شجعني والح على ذهابي إلى رئيس نقابة الفنانين، عكس حبيب الدين الذي وأد الغناء في قلبي، الذي تربيت عليه منذ طفولتي. كنتُ أسمع أمي وهي تقوم بتلحين الأغاني لكلمات بسيطة هي تألّفها، سمعتُ ألحاننا يرددها بعض الفنانين حتى أيوب طارش عبسي نفسه.

ذهبنا اليوم التالي بعد عودتي من المستشفى عصراً إلى النقابة في حارة باب موسى. قابلتْ في مكتب نقيب الفنانين ثُلّة من رجال يتعاطون القات هناك، أحدهم كان يدندن بالعود. دخل بشير إليهم والبهجة تسبقه، وبعد أن سلّم عليهم قال للنقيب بلهفة: "زوجتي صوتها حِلو، حِلو. أريدك أن تسمعها. ستعجبك كثيرْ!". في البداية لم يهتم النقيب، ظن أن التي أمامه مولّدة حبشية. طلب مني بفتور أن أسمعه صوتي، كذلك الآخرون لم يهتموا للأمر. لكن ما أن بدأت أغني حتى أتلعت عيونهم نحوي، وراحوا ينصتون بإعجاب والبسمة مشرقة في وجوههم، وزهر الغرام القديمة ترى نفسها تُغنّي فوق برج عالي. تود أن تسمع صوتها المدينة كلها، فقد كبتت صوتها ثلاثة وعشرين عاماً:

حبيبْ حبيبْ شاغمضْ عليكَ جفني

حتي تصيرْ فيّ وجُزء منّي
واذوّبكْ في قلبي المُعنّى
وا نسى بقربكْ لوعتي وحُزني

تلك الأغنية التي أغضبتُ فيها حبيب الدين، حين كنتُ ادندن بها في الحُديدة. ظل قلبي يحتضنها، ولازالت كلماته محفورة في أذني. قال لي بغضب: "لا أريدك أن تغني أبداً. غناء النساء للخادمات فقط"، حتى غناء الرجال كان مستهجناً لدى الكثيرون أيضاً.

اصطحبني النقيب إلى مكتبه الخاص والبهجة بين عينيه، عرّفني باسمه "تامر" دخل بشير معنا. راح اعجاب تامر يعبّر عن نفسه: "ستكونين فنانة رائعة، سأجعلك فنانة مشهورة!. أين كنتِ من زمان؟. كان بشير سعيداً! وتامر يمدحني أمامه. قمت من مكاني خائفة! ويدي على رقبتي وأنا أنظر نحو باب المكتب، فضحك تامر وقال: " مو[٦٧] جرى لك، زوجك معانا!" جلست وأنا أقول: "أعوذ بالله من الشيطان".

عدتُ من النقابة والبهجة مشرقة في وجه بشير. أمّا أنا كنت خائفة أفكر بما تخيلته أثناء مقابلة تامر، فقد رأيت حبيب الدين يدخل المكتب غاضباً بيده سوط لفّه حول رقبتي! شعرت حينذاك بالاختناق. أفكر لو ظهر لي وأنا أغني على خشبت المسرح!

[٦٧] ماذا

وجدت بشيراً مفيداً لي. كنت أذهب بصحبته إلى النقابة، فيغض الآخرون الطرف عني أثناء التدريب على الحان الأغاني. رأيت هناك مَن يضرب العود ومن ينقر على الطبل وهناك آلات موسيقية لا أعرفها. راح أحد الفنانين يعلّمني السُلّم الموسيقي والمقامات والطبقات الصوتية لكنه وجدني أنني قد تجاوزت ذلك. كان المُعجبون يشيدون بي وهذا ما أسعد بشير! ذكّرني سلوكه بحبيب وهو يقول:" أريدك لي وحدي ما انتيش في لبنان أو مصر للفنان قَدْره". أحدهم همس لي: "ستسقطين يا زهر الغرام آنياً أم عاجلاً، العالم هنا لا يعرف العِفّة".

قلّ دخلي المادي بعد سجن الدكتور، وكذلك أبني عكف على امتحانات الجامعة النهائية وكانت الانتخابات النيابية على الأبواب. بحثتُ عن عمل لابنتي جليلة وكذلك حُسن، أخبرتني مريم بأنها ستقنع المدير بطريقتها بأن يوظفها مساعدة في مطبخ المستشفى، لا أدري كيف أقنعته بتلك السرعة! هل هي قامت بذلك أو أرسلت فتاة من صديقاتها تقنعه؟! ظلت جليلة ثلاثة أشهر تحت التجربة. اعتادت أن تحضر لنا كل يوم ما يسأر من طعام المطبخ، لذلك وفّرت علينا نفقات كثيرة. ساعدتها مريم بإعطائها بهارات حبشية، تطبخ "الزِّقني" فكان المدير يشيد بطبخها. اخبرتُها أنها ستجد إغراءات كثيرة، وعن طريق العِفّة وحسن السلوك ستلاقي لها زوجاً، وحدث ما توقعته؛ حيث ذات يوم عادت تخبرني أنها تعرّفت على رجل في المستشفى متزوج لديه أولاد،

وليس لديه مانع أن تستمر في عملها. حدثت نفسي: "لولا وظيفتها لمَا وافق أن يتزوجها، وما أقدّمه لبشير ستقدمه هي لزوجها، لا ضير في ذلك. بحنكتها تستطيع أن تجذبه إليها، فهي ابنة زهر الغرام التي أنست زوجها المرحوم زوجته الأولى".

حمدت الله على زواجها، ولم أعد أفكر إلا بابنتي الأخيرة حُسن وبزواج نصر الذي لم يكن يهمني كثيراً فهو سيجد له زوجة من الأسياد. كانت جليلة تنفق على المنزل، حتى أن بشيراً ازداد وزنه مما تحضره من دجاج وسمك، وأصبح يحب أولادي ويعتبرهم أولاده، يطلبني للفراش كل ليلة، وازداد خنجره البشري الطويل غطرسة، رغم أنه يؤلمني، كنتُ أشجّع جليلة لإحضار وجبات السمك.

رشّح عمر خنفر نفسه في الانتخابات النيابية عن الحزب الاشتراكي اليمني، في الدائرة التي تضم حي الرحمة والأحياء المجاورة. واجتمع ببني جلدتنا في الحي، يتباهى بصوره الملصقة عرض الأكواخ الواهية. وقف عمر على منصة صغيرة، أبوه على يمينه والشيخ صندوق على يساره. وخطب فيهم قائلا:

- لقد أشرق عليكم الفجر الذي طال ليله منذ مئات السنين، كنتم تعيشون وسط هذا المجتمع وهو يراكم أدنى من العبيد. يروننا نكرة، نكرة. لا يروننا بشرا مثلهم.

والآن أشرقت شمس الكرامة وستنالون حقكم الإنساني المسلوب، بعد أن كنتم أسيادا ذات يوم عليهم– أتذكرون– وداعا للقهر والذل يا أبناء جلدتنا.

صفق الجمهور ورقصت امرأة بهز ردف يترجرج، وضربوا من حولها الدفوف. كانت هناك شابة تهز ردفيها وفي حضنها طفل، أودعت الطفل لرجل بجانبها، وأسرعت تشارك المرأة الرقص وتنافستا بهز والأثداء. هتف فيهم الشيخ صندوق ليتوقفوا عن الرقصة حتى يكمل عمر خطبته. وعاد عمر يقول:

- سأطالب لكم بحقوق متساوية لتعيشوا كالآخرين.. لن نسمح لأحد أن ينادونكم بالأخدام بعد اليوم، لقد أطلقوا عليكم تسمية جديدة "المهمشون" نعم أنتم كذلك، ويعاقب من يناديكم بالأخدام..

صفّق الجمهور وكثر الصخب. وزغرد الفرح من أفواه الرجال والنساء. رقص الحشد كله نساءً ورجالاً وأطفالاً. رفع بعضهم مكانسهم للأعلى يهتفون: لا أخدام بعد اليوم...

هتف أحد الحمّالين الأقوياء من وسط الحشد: نعم، نعم أنت شيخ وابن شيخ وأستاذ. أنت زعيمنا. من اليوم إي واحد من الأسياد يناديني " يا خادم سألطمه" .. وقال حمّال آخر: نعلقه من أرجله مثل الدجاجة. راح زمن الذل. أخيراً الدولة اعترفت بأننا جزء من الشعب.

قال عمر: ليس هكذا تؤخذ الحقوق. من يشتمنا وينعتنا بالأخدام التي تجرح قلوبنا كالخناجر، نشكوه في قسم الشرطة وهو الذي سينصفنا. نحن لدينا الآن حقوق مواطنة متساوية. وصفّق الحشد ورقصوا مرة أخري.

كانت ابنة كودّافة (قمامة) الجميلة في ربيع العمر، تقف أمام الحشد وهي تحشر نفسها بين رجلين. قالت: نريد أن تطالب لنا بقصبة ماء (أنبوب) تصل إلى الحي.. وامرأة أخرى قالت: نريد كهرباء لعُششنا.. وهتف فتى: نريد مكانس جديدة يا زعيمنا، ورفع المُكنس للأعلى، لم يبق منه إلا شعيرات قليلة.. رد عمر على مطالبهم بأنه سينفذها بعد أن يكون عضوا في مجلس النواب، ووعدهم بمدرسة ومركز صحي للحي وحمامات صحيّه للحي.

أنهى عمر خطبته ووقفا الشيخ خنفر والشيخ صندوق يتعانقان أمام الحشد، وكذلك تعانق أنصارهما وطغت الفرحة على الجميع.

تقدم حمّالان قويان ورفعا عُمر على أكتافهم، والحشد بعدهم يرفعون صور عمر خنفر عاليا على رؤوس مكانسهم، ومشوا يطوفون داخل الحي يضربون الطبول كأنه عرس السلطان، وبعض الرجال والنساء يرقصون معا أمام المسيرة، رقصات مختلفة كل على هواه. هتفت ابنة كدافة: مش هكذا الرقص!.. وراحت ترقص أمام عُمر رقصاً شرقياً رائعاً أحاط بها الحشد، وراحوا مشدوهين يشاهدون الجمال الراقص تكاد أن

تلتهمها العيون. قال أحدهم وهو يصفق لرقصها بقوة: لله در الأسياد الذي علموك هذا الرقص!.. هُزي، هزي ..

خرجوا خارج الحي يطوفون شوارع الأحياء المجاورة يهتفون: يا عُمر قُدّام قُدّام.. نحن مهمشين مُش أخدام..

كنت واثقة من فوز عمر خنفر في الانتخابات، فما شاهدته يوم أن خطب في الحي يبشر بفوزه، وبارك الشيخ صندوق وأنصاره لعمر خنفر مقدما بالفوز، ورفع أنصاره صور عمر على أكواخهم. وألصق البعض صورة في صدرة، إلى جانب هذا كان سكان الحي ثلثي سكان الدائرة. كان عمر يمر إلى منزلنا فيرحب به أبني بقوله: أهلا بالنائب.. حتى بناتي باركن له الفوز مقدماً وانجذبنا نحوه، لكنني لم أسمح لهن بالتحدث معه إلا أمامي. ولو طلب مني أن يتزوج إحدى بناتي لما وافقت؛ فأنا أرى أنه سيبقى منبوذا حتى داخل مجلس النواب من الكثيرين لو فاز في الانتخابات.

لم يكن عمر يظهر الفشرة (الفخر) أمام الآخرين. يحاول أن يُقلّد الدبلوماسيين في الدولة، لكنني كنت ألحظ فتحتي أنفه تتوسعان قليلا حين يصفونه بالنائب. كان يمر بالسيارة إلى حيينا ويصطحب نصر معه في نزهة إلى وادي الضباب، وكنت أرفض أنا وبناتي أن نخرج معهما.

يوم الانتخابات كنت واثقة من فوز عمر، بيد أن مفاجأة حدثت غير متوقعه، حيث أن أنصار الشيخ صندوق ذهبوا يوم الاقتراع ليدلوا بأصواتهم في دائرة الانتخابات وهم يرتدون أحذية جديدة، وأثواب جديدة فيها صور المرشح المستقل الشيخ صادق نصّار، وكذلك بعض أنصار الشيخ خنفر. عرفت أنهم باعوا أصوتهم مقابل حذاء وثوب لصالح الشيخ، ولم نكن نعرف أن المعسكر الذي أقيم على مقربة من حي الرحمة سينزل جنوده يرشحون الشيخ نصّار بذلك العدد الكبير. وأضاع المهمشون أول فرصة لهم.

اجتمع أبناء جنسنا في الحي. كنت أظنهم سيندبون حضّهم لكنهم راحوا يتحدثون بأنهم حققوا أول نصر لهم في تاريخهم المظلم. قال أحدهم اسمه زمُيطة:

- أول مرة يسمحوا لنا أنا نشارك في الانتخابات

وقال بعصوص:

- يا زمُيطة، أفضل شيئا أننا حصلنا على لقب مُهمشين. وداعا للقب الذل والهوان "أخدام".

ثم التفت نحو الآخرين وقال:

- كلامي صحيح، وإلا كلام زميط يا منحوسين؟

- كلامك أنت يا بعصوص، يمكن يصفّو عمر خنفر تصفية جسدية لو فاز في الانتخابات، مثلما فعلوا ببعض رجال الحزب الاشتراكي.

انتهى الاجتماع في الحي يحمدون الله على حصولهم على لقب مهمشين وعلى نجاة عمر خنفر من التصفية الجسدية لو فاز في الانتخابات، وراح البعض يبارك له على نجاته.

جاءتني ابنة كدافة تسألني ونصر بجانبي: لم أفهم معنى "تصفية جسدية" يغسلوهم بالصابون وإلا كيف يا أم نصر؟!. أنتِ عشت مع الأسياد تعرفي عنهم أكثر منا وهي تنظر إلى نصر. ضحك ابني وقال لها سأخبرك فيما بعد. عرفت بأن ابني على علاقة معها؛ فهي جميلة ومجهولة الأب.

صرحت صحيفة صوت العُمال: مهمشي الشمال باعوا أصوتهم مقابل حذاء. ترى هل يعلمون أنهم يعيشون دمقراطية مزيفة؟!.

الفصل السابع

تخرّج ابني من كلية الشريعة والقانون حاصلاً على تقدير جيد جداً. حملتني البهجة في الحفل على بساط الزهو حين رأيته بين الخريجين. أحدث نفسي: "ها هو ابني أفضل منكم يا سادة..."

عدنا لنحتفل في بيتي برفقة صديقه مشاكس، وراحا يتحدثان عن التنافس على المشيخة بين خنفر وصندوق فرحان في حي الرحمة، وكُلٌّ يحشد الأنصار حوله.

ذات يوم قمنا صباحاً والناس تنظر من سطوح مساكنها نحو دخان يتصاعد من حي الرحمة، وعُشش تحترق. جرى ابني مع الغير إلى الحي... عاد إليّ يشرح القتال الدائر بين أنصار الشيخ خفر وأنصار الشيخ صندوق. قال: "لولا تدخل صاحب فندق الرحمة لحل المشكلة، لكان الحي احترق بالكامل. حاول دفع مبلغاً من المال لهم ليرحلوا من الحي، لحاجته لتلك المساحة المطلة على المدينة ليبني فيها لكنهم رفضوا.

بعد أسبوع قام حي الرحمة فجراً على اصوات الجرافات، ورجال الشرطة تأمرهم بالرحيل من الحي، وأمهلوا القاطنين ساعة واحدة ليرحلوا

من الحي، وقد أعدوا لهم مكاناً آخراً في أطراف المدينة. رحلوا إلى حيهم الجديد وهناك قسموا الحي نصفين نصفه لأنصار الشيخ خنفر، والآخر لأنصار للشيخ صندوق، وعملوا بينهم حدّاً، وبقيت هناك إحدى العُشش واقعة في الحد بين الحيين مصدراً للخلاف بينهم.

بعد أقل من شهر من حادثة حريق حي الرحمة، تفجّر الوضع العسكر بين المؤتمر الشعبي العام والحزب الاشتراكي، شركي الوحدة والحُكم، بعد توتر دام لأكثر من سنة. بدأت الحرب بينهم في صيف ١٩٩٤م وحشد كل وحوشه لينفرد الأقوى في السلطة. حضر عمر خنفر صديق نصر؛ ليتخفى في منزلنا؛ حيث هو عضواً فعّال في الحزب الاشتراكي.

اعلن نائب الرئيس علي سالم البيض فك الارتباط مع الشمال؛ فخرج عمر خنفر من مخبئه في منزلي يشتم نائب الرئيس، ويعلن خيانته للوحدة وأنه ما كان يجب إعلان الانفصال. كان يشتم قائلاً: "غير ممكن. هل توحدنا لننفصل؟! كنا موحّدين قبل الوحدة بقلوبنا أكثر، هل كانت الوحدة خُطة للقضاء على وحدة القلوب". وراح يشتم بلسان بذيّة وخرج عن طور الثقافة التي أكتسبها أثناء دراسته في الجامعة، وعاد إلى سلوك تربية حي الرحمة! لم ألمُه على سلوكه المشين، فقد شهدتُ سلوك الكثير من غير بني جلدتنا الذي يحملون شهادات عليا، وتخرجوا من أفضل الجامعات خارج الوطن، سرعان ما يعودون بعد دراستهم إلى

سلوك البيئة التي تربّوا عليها سابقاً! كعمر عمر خنفر مثلاً كان محيراً في سلوكه، يطالب بالتداول السلمي للسلطة وهو يعيش النفاق مع نفسه، يقف إلى جانب والده الشيخ خنفر، الذي شقّ حي الرحمة إلى نصفين؛ حتى يبقى شيخاً ولو على جزء من الحي، ولم يكتفِ بالمدة التي بقي فيها شيخاً. أما ابني وصف الحالة الأمنية المتردية في المدينة وتجنيد الاصلاحين لآلاف الناس من كوادره، والمجاهدين العائدين من أفغانستان؛ لنصرة الوحدة رغم أنهم كانوا مناوئين للوحدة اليمنية بشدة عند قيامها! ومَن له وجهين لا وجه له! أضحك ولدي مما قاله عن ضجر جشع التجار: ناصر على، المقش، والبرنس... وهم يندبون حظهم في دعم المجهود الحربي.

زرتُ الدكتور سامح في السجن ولاتزال نار الحرب تلتهم الأرواح، وجدته يمضغ القات مع الكثيرين في السجن. سألته عن حاله قال: حكمت المحكمة بحبسي سنة وتوقيفي عن ممارسة المهنة لمدة ثلاث سنوات، لكن الحمد لله، العسكر جيدون هنا يشترون لنا القات كل يوم فننسى أننا في سجن... وحدثني أنهم أفرجوا عن بعض السجناء وأجبروهم على الذهاب إلى الجبهة. لم يكن مستشفى الصحة الذي أعمل فيه يستقبل مصابين يُحضرون من القتال الدائر بين الإخوة الأعداء، مثل المشافي الأخرى العامة التي راحت تفتح أبوابها على مدار الساعة، فكنت أجد فرصة لأجلس مع مريم نتحدث في شؤون نسائية. ذات مرة

طلبتْ مني البحث عن فتاة من قريتي لعاصم، أحد أقاربها المولّدين، ففكرتُ بثلج وبهذا أكون قد كفّرت عن خطيئة ابني وخدمت صديقتي. تواصلتُ مع الحاج عبد الرؤوف ونسق الأمر، وسافر عاصم معه إلى القرية ليتعرف عليها. أعجب ببشرتها البيضاء وتم الزفاف في القرية وعاد بها. زرتها بعد ثلاثة أيام من زواجها في شقتها الضيقة وجدتها في غاية الفرح، شكرتني على ما قدمتُ لها. حدثتني أنها كانت خائفة من ليلة العرس! لكن زوجها كان مسروراً بها؛ أنها ليست عذراء، لديها خبرة لكن ليست مُكتملة.

زرتها بعد شهرين وقالت لي أن زوجها يعمل في شريكة نفطية في وادي المسيلة، يداوم شهراً ثم يعود ليجلس معها شهراً، واعتاد أخوه البقاء في المنزل. ينام في الصالة توأدي إلى حمام المنزل. قالت لي إنها تستحي أن تخبره أن يتغطى جيداً أثناء النوم، وهي تمر بجانبه، لاسيما في الصباح!

حصل نصر على وظيفة عند التاجر حمزة العُديني مؤقتاً، إلى أن يحصل على مكتب محامه يتدرب فيه. جلس يحدثني عن ثقة التاجر فيه واعتماده عليه في أشياء كثيرة. أخبرني أنه اكتشف أن الصناديق التي يوصلها إلى الفنادق فيها قوارير خمر، تُهرّب إليهم من الخارج عبر ساحل المخا. أبديت خوفي عليه فضحك وقال: يا أمي، هناك من يحمي

العُديني ويتقرب منه. قلت: "المحظور مصيره معلوم، حينها تنفر الاصحاب عن المرء، كما حدث للطبيب سامح".

زرتُ ثلج مرة أخرى يوم الجمعة صباحاً. طرقت الباب وتأخرتْ في استقبالي! حين دخلت كانت مرتبكة، وسمعت أخ زوجها يدندن في الحمام بكلام يشبه دندنة بشير حين يكون سعيداً معي. جلست أتحدث معها أنني أتدرب على أغنية، سأغني قريباً في المسرح...ضحكت وقالت: أنتم الأخدام مُدرّبين على الغناء أكثر من الفانين. كان غضبي سيصفعها لذِكرها أصلي، وودتُ أنا أقول لها: "أنا تغيّرتُ أمّا أنتِ لا، ولم يكن ولدي هو الأول في حياتك".

دعوت عند صلواتي كثيراً ألا يتورط نصر في التهريب أو شُرب الخمر، فحديثه عن التهريب الذي يدخل عبر سواحلنا أخافني. ذات مساء قال ضاحكاً: "يا أمي تعبر السيارات نقاط التفتيش بكَرْتٍ خاص، ومن ليس لديه كرت العبور يمر عبر طرق وعره، يطاردونه كالصقور!". رجوته أن يبتعد عن العمل مع المُهربين، وألححت عليه للبحث عن مكتب محامي يتدرب فيه، أخبرني أنه لم يجد وليس لديه وساطة، وراح حزنه يعبر عن نفسه قائلاً: "أخبرني أحد زملائي الخرّيجين يتدرب في مكتب محامي، أن المحامي لابد أن يكون أميناً على قضايا الموكّلين، ومَن ربيته خادمة لن يكون كذلك!". بكى قلبي وتذكرتُ أوجاع الزمن

الذي تحملته لأعد أبني محامياً. يا لخيبة الأمل! بنيت حلمي طوبة طوبة، وها هو ينهار على رأسي!

داهمني الصداع وأصابني الدوار فتوقفت قليلاً وقد حدث لي مثل هذا عند الغضب، ثم قلت له: ستجد يوماً من ينصفك وينصفنا ولو من غير المسلمين يا ولدي. ابتسمت حسرته وقال: "إذا لا تريدينِ أن أعمل عند العُديني سأقبل أن أكون عاقلاً للحمّالين، يريدونني أن أخذ مكان العاقل صندوق، سرقهم ونصّب نفسه شيخاً على حي الرحمة بجانب الشيخ خنفر. أنا مقبول لدى الطرفين يا أمي، هم يرون أنّي محامياً وأستطيع حل مشاكلهم". حملني حزني إلى الفراش وأنا أشعر بالدوار وبكيت خفية!

ظل نصر يعمل مع التاجر "العُديني" وبعد أسبوع عاد من عمله يحمل دفاتر حسابية ومر على منزلي. ضحك أثناء جلوسه وراح يحدثني أن الحمّالين القبائل اختاروا عاقلاً لهم، وكذلك الأخدام عاقلاً آخراً، وجلس العاقلان معاً يتقاسمون النفوذ في المدينة وشطروها إلى نصفين، الفاصل بينهما شارع جمال عبد الناصر. شماله يخص نطاق الحمّالين الأخدام، وجنوبه للقبائل، وصار لكل عاقل نفوذه ضمن نطاق حدوده الخاصة به. أخذني الحديث معه لأسأله البحث له عن زوجه. تدخّل زوجي وقال: "عندي يا ولد لك بنت مولّدة جميلة، أمك تعرفها. ما رأيك تتعرف عليها؟". رفض نصر العرض حتى أنا لم أرضى بها؛ لتفاخرها بكثرة أصدقائه. أوجستُ أن لدى نصر عشيقات عدة؛ كيف لا؟! وقد

فتحت ثلج شهيته للنساء في سِن مبكرة، وفي نفس الوقت أعطته انطباعاً سيئاً عن النساء وعدم الثقة فيهن؛ لهذا لم يعر أي اهتمام بالفتيات اللواتي كُنّ يزرن شقيقاته في البيت، بالذات "تهاني" أحببته، وكُنّ أخواته يغرينه لخطبتها من أبيها، مات في حرب صيف ١٩٩٤م. دعوتُ الله كثيراً بأن يوفّق نصر بامرأة صالحة وتعيد له الثقة بالنساء، لكن دعائي لحُسن كان أكثر فنحن النسوة نعذر شوق المرأة للرجل، ونعرف إحساسها بالحرمان فالرجل يستطيع أن يطفئ نار شهوته بسهولة. شككتُ من صُحبته مع حمّالي بني جلدتنا، وزيارته المتكررة لحي الرحمة وأخاف أن يصبح كعبد الستار في شبابه. أنا أعرف ما يجده الرجل هناك من إثارة، أفضل من الأدوية التي كان سامح يصفها لبشير واشتريت له مراراً. قال لي صيدلي ذات مرة باستحياء: "هذا يشتريه الرجال!" لكنني استمريت في شرائه دون خجل؛ لأنني لا أشعر أن هناك ثمة خطأ أقوم به.

زرت ثلج بعد خمسة أشهر وأنا تواقة لأعرف قصتها، فتحتْ الباب وهي مبتهجة وزوجها بجانبها. رحب بي وهو يستر عورته بفوطة، عضلاته بارزه ومثيرة. ذهب إلى الحمام وجلستُ أتحدث معها، أخبرتني أنها حامل فهمستُ لها دون شعور: "ممِن حملتي؟!" ضحكت وقالت: "يكفي شكاً بي يا صديقتي، لقد وجد لأخيه عملاً في شركة، أنا الآن أبحث له عن زوجة من قريتنا". رجعتُ منزلي وأنا أفكر بزواج حُسن، لم يأتيها نصيبها بعد وقد بلغت الخامسة والعشرين. فكرت ماذا لو أطلبُ

من ثلج أن تخبر زوجها ليخطب حُسن لأخيه. وصلتُ إلى البيت وجلست أتحدث معها قالت: "أختي رحمة مرتاحة مع زوجها، وقد انجبت بنتاً" فعرفت أنها موافقة. عدت اليوم الثاني إلى ثلج وطلبت منها أن تقنع شقيق زوجها ليخطبها لأخيه. ابتسمت وقالت: "يا صاحبتي، هو يريد واحدة مثلي وشعرها ناعم، وابنتك أنت تعرفينها.

عرفتُ من لغة المولّدين كلمات كثيرة منها: ، أفت وكّي[٦٨] ، ني[٦٩]. قجبلي[٧٠]، وزاي[٧١]، بلع[٧٢]، لب "قلب" خَجَر، ... مارشت. يلجون كثيراً للطب الشعبي للتداوي وبعض الشعوذة، تأثرت بهم ولم أنتظم بأخذ علاج ارتفاع ضغط الدم الذي وصفه لي الطبيب منذ فترة طويلة. ظننت أنني سأشفى بتعويذة يرددها بشير فوقي مساءً، وذلك لأوفّر مالاً لعرس ابني. لكن الله يرزق من غير حساب فقد استلمت مبلغاً كبيراً بعد أن غنّيت أول أغنية لي على المسرح "أراك في غيبتكْ" والثانية "لو كان عندي الغلط ". كنت فخورة والجمهور يُصفّق لي بعد أغنيتي الأولى.

حضر الحفل الوزير... وبجانبه مجموعة من الوجهاء. نزلت من خشبة المسرح والتقيت به وراح يشيد بي، وأفرحني بأنني سأكون ضمن فرقة تمثّل اليمن في الخارج، ورجل آخر كان بجانبه اسمه أمين درهم

---

[٦٨] أنا أحبك
[٦٩] تعالي
[٧٠] اجلسي
[٧١] اخرجي
[٧٢] يأكل

رجلاً يدعم الفن، شجّعني وقال: "سأسجل أغانيك في بيروت متى ما تكوني جاهزة، بارفو عليكِ يا زهر الغرام".

خرجتُ من المسرح ظهراً وتفاجأت بحشد من بني جنسنا تراقصهم الفرحة. لحظة أن رأوني ارتفعت أصوات طبولهم بكل أشكالها، وأحاطوا بي وبشير ونصر. رقص الحشد نساءً ورجالاً وأطفالاً رقصاً لا أعرفه. كان بعضهم يرفعون مكانسهم للأعلى وهم يهتفون لي...كان بشير يشير بيده للجمهور بزهو، يرمي القبلات لهم بدلا عني. قال لي: "أنا أعرف هذا الرقص، عندنا القبائل ترقُص مثله، أهلنا هُنا ما نسوا".

أوقف ابني سيارة أجرة وركبتها وبشير بجانبي، إذا بالحمّالين أصدقاء ابني يرفعونها ومشوا بها مسافة. صفّق الجمهور وكثر الصخب وارتفعت اصوات الطبول. مشى الحشد حول السيارة في الشارع وبشير يخرج يده للجمهور، البعض منهم ركب فوق سطح السيارة وهم يضربون طبولهم، أجبروها على التوجه إلى حي الرحمة. تفاجأت هناك باستقبال آخر، خرجوا يهرعون من عششهم مع أطفالهم إلى طرف الحي لاستقبالي. والفرح يزغرد من أفواه النساء.

دخل الحشد الراجل الحي وهم يضربون طبولهم، وهناك راحوا يرقصون على وقع الطبل والمزمار. فتشوا عن شيء مرتفع

فوجدوا بين أكواخهم برميل قُمامة، نظفوه وأحضروه إلى بداية الحي، مساحة تكفي لتجمع حشد البهجة. وضعوا عليه كراتين ثم فرشوا فوقه بطانية مُهترئة وأجلسوني عليه كملكة. راحت مجموعة من نساء الحي ترقص أمامي رقصاً لحجياً على قرع الطبول، والتصفيق لم يتوقف. هبت ريح رملية فكنست الروائح الكريهة بجوار أكواخهم؛ مسحت أنفي وكان بشير يقول لي: "أنتِ اليوم ملكة يا زهر الغرام، وأنا زوج الملكة هههه. هؤلاء الناس طيبون، لمّا يفرحوا يجننوا!" اقترب البعض منه يسلّم عليه يقولون له: "أهلا بك يا ابن العم".

وقف عُمر خنفر فوق حجرة مرتفعة وتوقف ضرب الطبول، وراح يخطب فيهم قائلاً: "أيها الإخوة، نحن نُغنّي دائما لنسعدهم، نرقص ونزفُّ أعراسهم، أمّا اليوم سنحتفل ونغني لأنفسنا، نحن منذ زمن بعيد، بعيد لا نعرف الأفراح، نراه في وجوه الآخرين!". صاح أحد من الحشد: "نعم، نعم أنت شيخ وابن شيخ وأستاذ". هتف مُشاكس من بين الحشد:

- ماذا أعددت لحفلة اليوم يا شيخنا؟!
- أعد لنا فندق الرحمة وجبة شهية، هدية يهبها لنا كل عيد، وهذه المرة بمناسبة احتفالنا بالفنانة زهر الغرام، أظنه يريدها أن تغني في فندقه (صفّق الحشد وصفروا)

ستأكلون وجبة دسمة، وعليكم أن تحضروا نبيذكم لمثل هذه المناسبة لتكتمل فرحتنا. ومن ليس لديه نبيذ يأخذ من برميل أبي الشيخ.

وصلت قدور اللحم والأرز، فتهافتوا عليه وتزاحموا. راح الحمّالون ينظموا تدافعهم، ثم جلسوا يأكلوا دون أن يغسلوا أياديهم، وهم يتحدثون ويضحكون. بعد الوليمة الدسمة مسحوا أيديهم في الجدران والأشجار والأحجار ومآزرهم، ومنهم في سيقانهم.

أحضروا نبيذهم المتخمّر من بقايا الفواكه الفاسدة، وجلسوا تحت حر الشمس يمرحون ويضحكون أثناء الشراب. راح البعض يغني والآخر يرقص. كان بعضهم يصب الشراب على رأسه(يرى أن هذا فخرا حين يغتسل بالخمر). في خضم النشوة أرتفع "مُشاكس" فوق حجرة وهو يترنح وقال:

- اليوم نحن نكرّم ملكتنا زهر الغراااام، هذه بطلة! اصطادت رجلاً من العرب وربطته مثل الخرووووف. هؤلاء جعلونا أخداااام، نخدمهم وكنا سادة مثلهم، ما فيهم رحمة، حتى البئر التي نشرب منها ردموها علينا، يريدوننا أن نرحل من الحي، وأخاف يحرقوه كما أحرقوا حيينا السابق، وطردونا منه مثل الكلاب، يروننا

صراصير، حشرات. ما لهم إلا عنتر جديد ينتقم لنا. أليس كذلك؟!

صفّق الجمهور، وقال أحدهم وثيابه مُبلولة بالشراب:

- نعم، يوم أن طردونا من حقنا الحي أنا ضيعتُ حقي الدجاج.

أحد الحمّالين قال:

- كانت زوجتي مريضة. حملتها على ظهري.

ضحك أحدهم وقال:

- يا برادع أنت تقدر تحمل جونية ملح، تقدر تحمل نِسوانك الثلاث. تشقي[٧٣] لبطنك وهن يُطلّبين[٧٤] لجُهالهن.

صاح أحدهم والقارورة في يده، لم يعد فيها إلا القليل:

- شربتُ من برميل الشيخ خنفر، الخمر حقه يخلينا رجالاً، نقول ما نريده. لازم ننتقم من العرب، أذلونا، يروننا صراصير مجاريهم. هذا الخمر (رفع القارورة عالياً) خلاني[٧٥] أصحو، لكن قولوا لي كيف ننتقم؟!

- نضرب عن العمل يا رَقيص. نتركهم يمشون فوق القُمامة حقهم.

أعترضه آخر وقال:

---

[٧٣] تعمل
[٧٤] يتسولن
[٧٥] جعلني

- أفضل شيء يا رقيص نسد مجاري المدينة في الليل، ونجعلهم يمشون بين خرآهم كما نعيش نحن هنا.

ضحكوا، صفّقوا ورقص بعض الرجال. ضحكت النساء، إحداهن كانت ترفع ابنها تزهو بلونه الأبيض.

نفذ الخمر من قواريرهم فاسرعوا إلى الشيخ خنفر؛ ليمدهم بالمزيد وحلفوا بأنهم سيكونون من أنصاره. أما الشيخ صندوق قال : "إنه ليس لديه شراب". اقترب أحدهم من مشاكس واسرّه بكلام. ارتفع مشاكس فوق الصخرة، وصاح وهو يترنّح، كاد أن يسقط وقال:

- اسمعوا يا منبوذون... أتدرون ما هو اللحم الذي أكلتموه في حفلتكم؟. إنه لحم حماااار. قبّحهم الله، لا يهدوننا إلا الحمير، ونحن ننظف خراءهم وقذارتهم.
- وماذا في ذلك يا مُشاكس؟! إنه لذيذ، أنا ذبحته.
- لماذا لم تخبرنا يا جزار الحمير؟!
- لقد أكلتموه عدة مرات في الأعياد، حتى في مطعم القِمة داخل المدينة أنا أقوم بذبح الحمير لهم.
- ها، عرفنا لماذا الحمير تقل في المدينة! كنا نظن أنهم يقدمونهم طعاماً للأسود!

عـمّ الضـحك بيـنهم وهـم يترنحـون. هتـف أحـدهم بصـوت جهـوري اسمه نجـاح وقـد نفذت قارورتـه وقـال وهـو يمسك نفسـه عـن السقوط ويمسح دموعه:

- اسمعوني يا سلاطين لا تنسوا أننا كنا أسياداً.

هـم يـأكلون الضـأن والكبـاب، ونحـن نأكـل الحميـر والكـلاب، هـم يسـكنون القصـور ونحـن الجحـور، يشـربون أجـود أنـواع الخمـور المسـتورد ونحـن نصـنعه مـن مخلفـات الفواكـه والبـذور. لـديهم حمامـات ونحـن نقضـي حاجاتنـا فـي العـراء، جعلنـا الفقـر نعـيش عيشـة الكـلاب. لابـد أن نأخـذ حقوقنـا مـن العـرب! لا يكفـي أن نغـرق المدينـة بخـرائهم، أو نضرب عن تنظيفها. لابد أن نجمع أشتاتنا ونثور عليهم.

رفع السكارى قواريرهم ومكانسهم عالياً وصاحوا:

- نثور، نثور. ولكن كيف نثور يا نجاح؟!
- نلملـم اشـتاتنا رجـالاً ونسـاءً واطفـالاً مـن القُـرى المجـاورة ونحضـر طبولنـا، ونخـرج فـي مسـيرة كبيـرة، ونزحـف علـى المدينـة حتـى يسـمعنا العـالم كُلّـه. أو نهجـر الشـمال ونتوجـه إلى جنوب الوطن، حيث أهلنا هناك أخذوا حقوقهم.

ضحك رجل سمين ذو كرش كبير وقال:

- يا نجاح، كيف يقبلونا في الجنوب نحن أكثر من مليونين في الشمال!. سيرشونا بالسم كأننا صراصير. أفضل شيء نضرب عن العمل ونكسر المكانس حقنا ونسائنا يُطلّبين[٧٦] لنا. والله إن المدينة ستجيف من وسخهم. أتعبونا القات والشمة يرموها في كل مكان، وبعضهم يخرأ ويتبول في الشارع مثل الغنم. ننظف خراهم ومجاريهم مقابل ملاليم، وهم يحتقروننا، والله لولا نسواننا يُطلّبين لنا لمتنا من الجوع.

رفع أحد الحمّالين الأقوياء القارورة الثانية من الشراب وقال:

- يا رقيع، أنت متزوج بأربعة نسوان، يُطلّبين لك وأنت جالس في البيت. أنك قوّاد الفندق، تجلب للعُشة[٧٧] حقك الزماميط(واقي ذكري) من قمامة الفندق، تنفخهم للأطفال يلعبون بهم. نثور على العرب أفضل، كنا زمان نهزمهم.

عمّ الضحك وراحوا يتحدثون فيما بينهم. فجأة دخل رجل عليهم من سُكان المدينة وهم يكسرون مكانسهم. أعترضه أحد الحمّالين الأقوياء، ورفعه للأعلى وأخذه إلى نجاح وقال:

- هذا العربي يزور حينا دائماً!

---

[٧٦] يشحذن

[٧٧] كوخ من الصفيح

قال الرجل الزائر وهو يحاول أن يُخلّص نفسه من قبضة الحمّال القوية:

- أنا جئت أشارككم فرحتكم.

صفعه الحمّال بقوة وقال:

- جئت تركب نسواننا يا جبان...

انهالوا عليه بالضرب، فصاحت امرأة حسناء:

- يا سكارى... ستقتلون الرجل، اتركوه لشأنه.

هتف نجاح :

- لن نقتله، سنقطع الذي يفتخر به وجاء من أجله.

ضحك الحشد وهتفوا:

- يستحق، يستحق...

غضبت الحسناء وقامت من مكانها، اقتربت من الرجل وحاولت أن تنقذه من بين أيديهم وصاحت:

- اتركوا الرجل وشأنه.
- لا، لا لابد من عقابه.
- هو دائماً يحضر أمام أعينكم. لماذا لا تعترضونه من قبل؟!
- قال أحدهم وقد سقط على الأرض:
- يا "كودّافة" [٧٨]نحن اليوم صاحين تمام. أنت قحبته.

[٧٨] قمامة وهذا هو اسمها

ذهبت "كودافة" إلى الشيخ خنفر مسرعة لأطلق سراح الرجل الزائر، ورجعت تقول للرجل:

- سامحهم يا سيّدنا، لمّا يسكروا يبكون على حالهم الله. يلعن الخمر. قد نحن ناسين أحسن!

أنقسم الحي إلى قسمين، أنصار الشيخ خنفر ضد الاضراب عن العمل، وأنصار الشيخ صندوق مع الاضراب. وحدث اشتباك بين الفرقين... وتحول الفرح إلى حزن وقتال.

خفتُ من جنونهم، فانسحبتُ بهدوء من حي الرحمة برفقة ابني وبشير قبل غروب الشمس، خذرين من القوارير التي يتقاذفون بها. كان بشير يضحك ويقول:

- عندنا قبائل مثلهم تتقاتل على شيء بسيط. مجانين!

وصلت إلى منزلي والبسمة مرسومة على شفتي بشير، يحدثني بما سنكسبه من المال. طلب بدلة جديدة وحذاء إيطالياً وطلبات أخرى...في اليوم التالي عصراً حضر مشاكس إلينا، وحدثنا عمّا حدث بعد مغادرة حي الرحمة:

- كانت معركة الأمس حامية الوطيس! ذهب قراحف إلى بيت الشيخ صندوق ليقتله، وذهب مُرادع ليقتل الشيخ خنفر فتفاجأ بوجود الشيخ فرحان عنده وهما يسكران معاً.

رجع مُرادع يصيح وهو يجري: اسمعوني يا كلاب. المشايخ أصحاب، ونحن نِضّارب!!

راح مرادع يردد كلامه حتى توقفوا عن القتال، كان نجاح قد سقط صريعاً واثنتان من النساء اللواتي كُن يشتمن الشيخ خنفر، يتهمنه بشراء أصوتهم في الانتخابات بكوب من الخمر!

دفنا الموتى ليلاً في الحي قبل أن تعلم الشرطة. ثم عاد مرادع يسرد لنا ما رأى في بيت الشيخ خنفر. قال:

- يا رجال لما رأيتهما جالسين معاً لم أصدّق عيني، قُلت أنا سكرااان. نظرت مرة أخرى من ثقب العُشّة ورأيتهما يلعبان البطة "لعبة الشيطان"[٧٩] وهم يشربون الخمر، اتفقوا على أن الذي سيكون بيده الشيطان هو شيخ الحي كله. وزعوا الورق فيما بينهم. فرح خنفر وقال: أها، الشيطان معي، وقال صندوق: أنت سكران ما تشوف تمام، الشيطان عندي أنا. ثم كشفوا أوراقهم ورأيتُ ورقة الشيطان عند كل واحد منهم!

وقف مرادع أمامنا ورفع فوطته عن نصفه الأسفل إلى ظهره، ووجه مؤخرته نحونا، وضرط ضرطة قوية، وقال: " هذه الضرطة للذي شيصدقهم مرة أخرى" وراح السكارى يضحكون كالأطفال!

[٧٩] لعبة الجوكر. من سيبقى عنده في النهاية هو الفائز

قال أحدنا اسمه ضافع، وقد شُج رأسه أثناء العراك:

- أنا صدقتُ الآن أننا أكلنا لحم حمار، لمّا يضرط الواحد منا بعد أكل لحم الحمير تكون ضرطته مثل ضرطة الحمار!

ضحكنا جميعاً ثم وراح مشاكس يكمل حديثه:

- اليوم فجراً بكّر الشيخ خنفر يصيح عليهم، واسرعوا يصلحون مكانسهم المُكسّرة، ويشكرونه على خمره اللذيذ الذي يشبه خمر الأسياد، وذهبوا ينظفون شوارع المدينة.

عشت أسبوعاً من السعادة، فحفلتي الغنائية أخذتني إلى النجوم، أرى نفسي أركب بساط الريح مع فرقة غنائية تمثل وجه اليمن المُشرق. ذلك الوجه الذي تلطخه الأيادي المتنازعة على كرسي السلطة بالسواد. سعادتي تلك كانت ناقص؛ فابني لم يحصل على هدفي ذلك الذي رسمته في خيالي، وكذلك أتى عبد الرؤوف يطلب مني السفر إلى القرية لزيارة أمي وهي على فراش المرض. تردد اسمي بين الحين والآخر.

سافرتُ برفقة نصر وحُسن، جلست مع أولادي في المكان الذي كنت أنام فيه مع أشقائي في الصغر. تفاجأ نصر حين قلت له إننا كُنا ثمانية افراد ننام في نفس الغرفة: أمي، أبي، أخي

مرجـــان، فازعـــة، كرامـــة وجـــدتي.. لـــم يســـتطع نصـــر أن ينـــام والبراغيث والقمل تطفر في الغرفة، فقام ليذهب إلى قرية أبيه.

نامت حُسن بجوار أمي أمّا أنا سلبتْ الذكريات نومي، وأعادتني إلى صباي وشقائه. تذكرت يوم أن حضر حبيب بعد غروب الشمس؛ ليأخذني إلى المدينة. تلك الليلة تسلل إلى كوخ أبي خلسة، يحمل هدايا وملابس جديدة لي ولأسرتي، ولأول مرة أرتدي ثياباً جديدة، وتذكرتُ خوف أبي وهو يقول لحبيب الدين:

- يا سيْدي أنا لن أوافق على زواجك بزهر الغرام ولن أرفض، هي أمانة في عنقك، ستجد في المدينة من يعقد بها لك.

ثم خرج من الكوخ وجلستُ أنا وأمي والحب يرافقنا نقرر ماذا سنفعل... كان فرحي يريد أن يعبّر عن نفسه ولم يهتدِ إلى شيء! وافقت أمي على الزواج فأعطاها رزمة من المال. تخيّلت أن أبي سيفرح بالمال لكنه لم يفرح! كأن المال سيُكّلف حياة الأسرة. لم يوافق على الزواج لكنه سمح لي بالسفر مع حبيب تلك الليلة.

ظلت ذكريات الصبا تطوف بي في سماء كوخنا، ورأيت نفسي في السابعة من عمري وأنا أتظاهر بالنوم ليلاً؛ لأسمع نغم حُب والديّ الذي أعتدتُ على سماعه ليلاً. أما وقت النهار كان يأمرني أبي بالخروج من الكوخ للعب مع الأولاد. وحين بلغتُ السنة الثانية عشرة من العمر، كانت موسيقى الحب بين والديّ تعزف أوتار فؤادي، فأنام في حُضن الحب.

أنتظر اليوم الذي أجد ذلك حقيقة وليس خيالاً، أفكر متى سيحصل ذلك معي لأعرف الإحساس بنفسي. أحدث نفسي ترى لو جرّبته مع صديقنا مُكادح أثناء لعبة الاستغماية[٨٠] في الحي، حين تسرح أمي في القرى تبحث عن رزق لنا كالطيور.

عاد نصر بعد ثلاثة أيام من قرية أهله "الدُّقم"، بأفكار غيره، لم أسمعها منه سابقاً ودار بيننا حوار آلمني جداً. سألني بجفاء وأنا أُعلل أمي:

- متى سنعود إلى تعز؟!
- أسبوع، وإذا لم تشفَ جِدّتك سنأخذها معنا يا ولدي.
- إذا توفّت في المدينة أين ستقبرينها؟. رأيت الأخدام هناك يقبرون موتاهم في مساكنهم، ونحن لا يمكن أن ندفنها في بيتنا!
- لا يا ولدي، سنقبرها في مقابرهم، الزمن تغيّر.
- نعم، الزمن تغيّر لكن عادات الناس لم تتغيّر
- يا ولدي، هذه أمي لن أتركها هكذا ولابد أن تساعدني.
- لا تتحدثي عن الحنان، لقد تركتنا وتزوجتِ، وعدتِ للغناء مرة أخرى، وهذا عيب في حقك وحقنا نحن أولادك. لن أرضى عن

[٨٠] لعبة التخفي

هذا، أنتِ في بداية المشوار ولن تستطيعي أن تقاومي المعجبين بك. لابد من التوبة يا أمي الغناء حرام.

- لكنك لم تقل مثل هذا من قبل، أظن هذا كلام عمّك تاج الدين؟
- نعم، كلامه صحيح، وهذا كلام القرية أيضاً.
- لماذا عمّك لم يقف معنا حين أُغتصبتْ أختك رحمة؟! عمّك يكرهني يا ولدي، أراد من أبيك أن يطلقني، وكُنتَ أنت لن تدرس مثل اخوتك.

صرخ نصر وهذه أول مرة يرفع صوته عليّ، وقال:

- كلامه صحيح، الناس تدنّس الفنان بأي وسيلة وزوجك بشير لن يحميك؛ بل يريد أن يكسب من وراك، هذا الجبان.

خرج نصر من الغرفة وهو غاضب، ثم عاد ليصطحب أخته حُسن للعودة إلى المدينة، وكان يريدني أن أبقى في القرية. وجدتُ نفسي أنني لن أستطيع مجادلة فتى متعصب في رأيه مخدّر بكلمات يراها السراط المستقيم. قلت له: كما تريد يا نصر، أنت أصبحتَ رجل البيت والسمع والطاعة لك. ثم جلس يضحك وراح اعتزازه بنفسه يخبرني أن عمه تاج الدين عضواً قيادياً في حزب التجمع اليمني الاصلاح، وأنه زار الحاج عبد الرؤوف في بيته وجد ذاكرته جيدة على الرغم من هرمه، وهو ليس راضٍ عني بعد عودتي للغناء. حدثني عن تصدّع دارنا وأرضنا لم تعد

تزرع، وهناك أراضي كثيرة تركها أهلها بعد أن انتقلوا إلى المدن. ضريح الولي "سعيد طه" أزيل، وبنوا اثنين مساجد في القرية، أحدهم فيه مدرسة تحفيظ قرآن، وهناك مساجد منتشرة في القرى، وأن الشيخ عظروط مات وتربع ابنه المُلّقب بالمِرد كرسي المشيخة.

تفاجأت كيف أن منطقتنا تتحول من نهج اشتراكي إلى نهج محافظ في فترة قصيرة بعد الوحدة؛ حتى أن الفتيات منذُ العاشرة من العمر يضربن بخمارهن على وجوههن وهُنّ يذهبن إلى الحقول. بأي ذنبٍ قُتلت تلك البراءة! كانت المرأة تمر أمام رجل دون أن يفكر فيما يسيء إلى الشرف، ويرى نساء قريته اخواته. أي شيطان غير سلوك الأبرياء؟! أندهشت لتحول ولدي الفجائي من نهجه المعتدل إلى نهج محافظ مُتصلب، أتذكر كلامه من قبل وهو يقول:

- التغيّر سُنة الكون كله، ونحن لم نتغيّر؛ بل ندحرج عجلة التقدم إلى الوراء تمر على ضهورنا. نود أن نكون حتى في آخر عربة قطار التقدم. أشعر يا أمي أننا سِكّة القطار. متى سنشارك في قيادة القطار؟! وعادتنا الخاطئة لازالت ثابتة. ها هم لايزالون لا يصلّون على موتى الأخدام، ولم يعترفوا بحقوقهم، والعالم يقترب ليكون قرية واحدة.

ثم راح يتحدث عن شجار حدث أثناء بقائه في قرية الدّقم أضحكني رغم حزني على أمي. لم يكن يحدث مثله من قبل في مجتمعنا أن يتسول

أحد أو يحضر ليقيم حفل عُرس في قرية لا يمتلك صكّ الملكية بها. قوانينا لا يتجاوزها أحد كقوانينهم. هُم في نزاع مستمر على حدود ملكياتهم الخاصة، يقتتلون على شجرة صغيرة فيما بين حدود حقولهم. قال ولدي:

- الخادمة "فاكهة" ذهبت إلى عرس قرية الأعدان؛ لتزف العروس ابنة مقبل ناجي، وهذه القرية من حِصة الخادم مسرور مُكادح ورثها عن أمه ولديه صكٌّ بذلك، ألتقيا هناك فضربها الخادم مسرور بعصا على رأسها، وأدانها شيخهم المُلّقب بالملح ابن الشيخ مجبور.

كانت أختي كرامة تستمع إلى حديثه ثم راحت تلوم فاكهة لماذا تكسر عُرفا يُعمل به منذ عقود عدة، وأنهم ليسوا مثل الأسياد يعتدون على حقوق الغير بالقوة، ثم ابتسمتْ لي وهي تطلب مني التنازل لهم عن نصيبي من تركة أمي "قرية الدُقم"، فرحتْ حين قُلت لها أنني لم أعد أفكّر في هذا الأمر.

بقيتُ إلى جوار أمي وكذلك حُسن وعاد نصر إلى تعز وحيداً. في ذلك اليوم تخاصمتا شقيقتاي فازعة وكرامة وسمع الجيران شجارهما. حين عرفتُ سبب الخصام ضحكتُ على الرغم مما أنا فيه من الحزن وأمي تنازع الموت. كان كُلٌّ منهما تريد أن تخطب حُسناً لابنها. حين سألتهم: أين منكما استشارت ابنتي في هذا الأمر؟! قالت فازعة بسخرية:

- لِمو [٨١]ما توافقش على الزواج يا أختي، عمرها فوق الخامسة والعشرين السنة، غيرها معها درزن جُهال[٨٢].
- هي ابنة أحد الأسياد، ولن توافق هي ولا أخوها.
- يا أختي، الذي أمه خادمة يبقى خادم طول عمره. لا تتكبريش علينا يا زهر الغرام خلّي[٨٣] بنتك تتزوج ابني فارع.

وقفت كرامة كالشيطان وارتفع صوتها:

- والله، يا فازعة ما تتزوج إلا ابني بارق، يُصلّح الجزمات ما فيش مثله. ابنك فارع عمره سبعة عشرة سنة هي أكبر منه، عاده مُمخط[٨٤]، جاهل.
- ابني فارع هو شِركبه[٨٥] ما شتكربوش هيَ.

أخبرتهما حُسن وهي تشعر بالخجل من حديثهما أنها لا تريد أن تتزوج، قالت فازعة:

- يا بنت أختي قولي بالصدق، عادك بِكْر؟ وإلا لا. أزوّجي ابني فارع قبل ما تحبلي.
- يا خالة، عيب الخبر هذا!

---

[٨١] لماذا
[٨٢] أطفال
[٨٣] دعين
[٨٤] أنفه يسيل
[٨٥] يعتلي

ذرفت حسن دموع الحياء من كلام خالتها، وانتصب غضبي صارخا في وجهيهما. حدثتهما أنني ربّيت أسرتي تربية الأسياد... نادتنا أمي بصوت واهن:

- أُسكتن وا قِحاب، خلّوني[٨٦] أموت.

غادرتا شقيقتاي وكلٌّ تشتم الأخرى ورجعن إلى بيوتهن. بقيتُ بجوار أمي، وفي تلك الليلة أخبرتني بسر رهيب. قالت بصوت واهي:

- يا زهر الغرام، أنتِ مُش[٨٧] بنت زوجي مقرع!

شعرت بأنني ريشة في قلب عاصة من التساؤلات. لم أعد أدرِي، هل أفرح! أم أبكي! مرة تلك اللحظات كأنها عمري كله. ألتفتُ إلى أمي سارت في صمت مهيب! هززتها بعد أن هزّت كياني وأنا أقول: من هو أبي؟! من هو؟!...لكنها لم ترد على سؤالي، كانت قد فارقت الحياة.

دخل أهل الحي يستغربون لبكائي الحار؛ فهم لا يبكون على الموتى كثيراً. أخذت أسأل: "ترى من هو أبي؟!" شككت بكل الأسياد القدامى، بعضهم لايزال حيّا. أسأل نفسي: "ترى ماذا لو يكون حبيب الدين هو أخي؟!" حينها لطمت خديّ، واقترب الأهل مني أكثر ليواسوني، وبكوا لبكائي وأشادوا ببري لأمي.

شككتُ بالحاج عبد الرؤوف، فلازلتُ أتذكر كلمته حين قال لي : "مبروك يا ابنتي". هو الوحيد الذي كان يرأف بي في القرية، ويقف إلى

---

[٨٦] اصمتن

[٨٧] ليس

جواري ليدافع عني. حقًّا دعوت الله لو يكون لي أب مثله. خرجتُ بصعوبة مما أنا فيه وذهبتُ لأحفر قبراً لأمي بجوار منزلها، وجدت تحت التربة هناك عظاماً. قيل لي إنها لجدة مَن كنت أعتقده أبي، فأعدت دفنها بجوار جثة أمي، وعيناي تذرفان الكمد على السر الذي دُفن معها "من هو أبي!".

عدتُ إلى تعز وحُسن مستاءة من كلام خالتها كرامة وفازعة الفاحش دون حياء. أما أنا أحدث نفسي: "ماذا لو أنّي أخت زوجي المرحوم حبيب الدين!". كلام أمي ترك جرحاً غائراً في نفسي: "ابنة مَن أنا؟!" أعرف أن الأب في مجتمعنا لا يهمه أمر كهذا، هو لا يقدم لأولاده تربية حسنة، ولا يترك له ميراثاً غير صكٍّ لأي قرية يتسول منها، وفي المدينة يترك له عُشّاً وضيعاً لا غير.

أخبرتُ مريم بما جرى من ولدي نصر في القرية بخصوص الغناء، وحاولتْ هي اقناعه بعودتي للغناء فلم يقتنع. حدّثه بشير فرفض نصر وشتمه، وأصر أن أتطلق منه. لم أعد أهتم ببشير، ولم تعد حياتي تهمّني، أفكر فقط بمستقبل ابنتي حُسن، أود أن تجد لها عملاً أو زوجاً. بعد أسبوع ذهب نصر إلى الوزارة فقد استدعاه الوزير، وعاد والسرور على وجهه! حدثني أنه يريدني أن أعود للغناء مرة أخرى! قلتُ في نفسي: "أن الفتيان يقعون تحت تأثير من لدية سلطة الإقناع. تأثر بكلام

الوزير كما تأثر بكلام عمّه تاج الدين في القرية، وشتان بين فكريهما. واستبعدت أن يكون قَبِل رشوة الوزير حيث قال نصر بفرح:

- لقد حصلتُ على وظيفة في مكتب محامي مشهور، واختي حُسن حصلتْ على وظيفة في الشرطة النسائية. ستكون ضابطة في المستقبل، وأنا بعد سنتين من التدريب سأفتح مكتب محامه باسمي (ووثب في الغرفة كالطفل) والوزير وضعك في القائمة ضِمن فرقة فنية ستسافر خارج الوطن وسأرافقك أنا طبعاً، سنعيش شهرين في الخارج. يا سلام يا أمي، سنركب الطيارة وسنشاهد العالم.

رحتُ أنا أحلم بما لم يتخيّله أحد مِن بني جلدتنا، سأحصل على بطاقة شخصية، وجواز سفر ستستخرجه الوزارة لي، هذا ما لم يقتنيه أحد منّا، غير الذين يعملون في البلدية قسم النظافة.

استلمت حُسن بدلتها العسكرية. تخيّلتها تتدرج في وظيفتها تحمل رُتبة عسكرية. برزت فيّ زهر الغرام القديمة. كانت تود أن تزغرد، فأمسكت يدها وأخرستها. أرادت أن تعود لتقبع داخلي فنبذتها وطردتها. رأيته تبتعد عني حتى اختفت عن نظري!...

في بداية عمل حُسن كانت تشعر بالخزي عن حديث يخص قضايا نسائية، مما يُخفى عن دهاليز المجتمع، لكنها فيما بعد لم تعد تُحرج عن التحدث عن قضايا نسائية مُخزية. أصبحت شخصيتها قوية، تغيّر

تفكيرها ونظرتها في الحياة وعرفتْ الوجه الآخر عن الإنسان أكثر مني. رأيتها تكبر بسرعة وتبدو لي أكبر من عمرها الزمني بكثير وهي لم تتجاوز السابعة والعشرين سنة. فرحتُ بذلك التغير وقلت في نفسي: "لو لم تجد شريكاً لحياتها ستستطيع أن تحمي نفسها من الذئاب البشرية". آلمني عدم رغبتها في الزواج عمّا سبق واقلقني هذا العزوف وكثيراً ما كانت تحدثني عمّا تشاهده من ظلم ضد المرأة، حتى في القانون لم يكن فيه إنصاف لحقوقهن. كنت أرى فيها فشرة[٨٨] تلك الحالة التي تحل بأفراد بني جلدتنا حين يكونون سعداء، وأنها ستتبوأ ماكناً رفيعاً في الشرطة يوماً. حينها أدركت أين اختفت زهر الغرام القديمة.

تغيّرت نظرتي للحياة منذُ أن أخبرتني أمي بسرها، لم تبح به إلا في آخر لحظة من بقائها في الدنيا "لستُ ابنة زوجها مقرع". كان بودي أن أعرف من هو أبي مِن أهل قراهم، لمجرد الفضول لا غير! وأظن أن أمي قد تكون أخبرته وهددها هو وأحسن إليّ مراراً، ورآني خطيئته التي تمشي علي قدميها، وتمنى أن يخفيها تحت التراب.

سألتني حُسن ذات مساء: "لماذا الكثيرون من الرجال يمارسون العنف ضد المرأة؟! وينظرون إليها باحتقار ويستعبدونها" أخبرتها بما عرفته من الدكتور سامح، أن الذكر سواءً كان إنساناً أو حيواناً هو المسيطر؛ لأنه هو الأقوى بهرمونه الذكوري، وأن الرجل يتخلص من سلوكه المسيطر

[٨٨] حالة من الغرور عند الفرح

كلما أرتقي عتبة جديدة في سُلّم الإنسانية، والزوجة تتمرد على الزوج حين تخف رغبتها الحميمية إليه، وحين أولادها يحيطونها بالرعاية والحب، الذي غرسته فيهم منذ الطفولة على حساب حُب الأب.

تعيش المرأة مع الرجل وتتدرج بأخذ حقوقها من الزوج بصبرها وحكمتها، إلى أن تصل إلى حد رفضه. ذلك الرفض لم تستطع أن تفعله في مُقتبل العمر. والبعض تكره زوجها في آخر حياتهما الزوجية، لا تود العيش معه، وأن الزوجين أحياناً يصبحان ودودين معاً، يعيشان كأخوين، ينظران لبعضهم نظرة أخوية. يعودان كما بدأ خلقهما أول مرة.

استلقيت على الفراش أسترجع ذاكرتي عمّا كتبته صحيفة صوت العمال، عن فوز علي عبد الله صالح على منافسه بن شملان في الانتخابات الرئاسية، رغم توقّع الكثيرون فوز بن شملان وعن الانتخابات النيابية التي حدثت عام ١٩٩٣م "مهمشي الشمال باعوا أصوتهم مقابل حذاء" وتذكرت ما قاله أبناء جلدتنا من احتمال قتل عمر خنفر إذا فاز في الانتخابات البرلمانية! وما أظن إلا أن منافس علي عبد الله صالح رضخ للنتيجة؛ ليبقى على قيد الحياة".

مرت كل أحداث عمري أمامي كمر السحاب، ووجدت نفسي في قِمة هرم حياتي، تسلّقته بمخالب الكفاح لأتغيّر، وحققت هدفي بعد نصف قرن من الزمن، ، ولو لا ذلك التغير لما شعرت بالعار الذي أخبرتني به أمي ظل زمناً ينتظرني. انعزلت الناس وأكثرت من الصلاة كأنني أكفر

عن ذنب ارتكبته أمي، وفضّلت البقاء في منزل أولادي، ولم أعد أقابل بشير فهو لا يقدم لي الدواء ولا الغذاء ولا حتى إيجار السكن، ولم أعد أرغب في الرجال. رفضتُ عرض الوزارة للمشاركة في مهرجان ثقافي يُقام خارج الوطن. وذهبتْ ابنتي حُسن تطلب الطلاق من بشير فاستجاب لطلبي على الفور؛ فأزداد افتخاري بها. أراها زهر الغرام القديمة والجديدة في جسد واحد!

آنئذ أحسستُ بروحي تريد أن تفارق جسدي، أراني بعمر السابعة عشرة بجانب مُخلّصي حبيب الدين وهو في عمر الشباب يشع نوراً، يمسك معصمي ورحنا نطير بخِفة في السماء، نرى الأرض درّةً زرقاء أجمل ما في الوجود. نرقب أولادنا كنجمتين صغيرتين في الفضاء...

تمت

سيرة ذاتية
الأسم: أحمد قاسم علي العريقي
الحالة الاجتماعية : متزوج
عدد الأولاد: ولد وأربع بنات
محل الميلاد: الأعروق، حيفان- تعز
تاريخ الميلاد: ١/١/ ١٩٥٨م
السكن: الحي السياسي- جوار مركز كلودي فاين – صنعاء
الوظيفة: صيدلاني
مكان العمل : المركز الوطني لعلاج الأورام- صنعاء
عضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين
عضو نادي القصة (المقة)
الإصدارات الأدبية:
- مقامات العريقي صادرة عن دار عبادي للنشر والتوزيع (دار محلية) ٢٠٠٦م
- غلطة قلم (مجموعة قصصية) صادرة عن دار عبادي للنشر والتوزيع (دار محلية) ٢٠١٢م (يدّر في كلية اللغات في باكستان)
- الرماد الأخضر (ديوان شعر) صادرة عن دار عبادي للنشر والتوزيع (دار محلية) ٢٠١٣م
- كُرات الثلج، مجموعة قصصية من وحي التراث عربي-إنجليزي ٢٠١٧م
- تعرية رواية صادر عن دار مقام القاهرة ٢٠١٨م
- دعوة الحقول (ديوان شعر) ٢٠١٩م
- زُربة اليمني رواية صادر عن مؤسسة هنداوي ٢٠١٨م
- سيرة كوبي رواية
أعمال لم تنشر: ست روايات
تلفون سيار: ٠٠٩٦٧٧٧٧٤١٣٥٧٩
تلفون المنزل: ٠٠٩٦٧١٤٤٦٥٩٣

البريد الاكتروني: Ahmed.mkamat@gmail.com